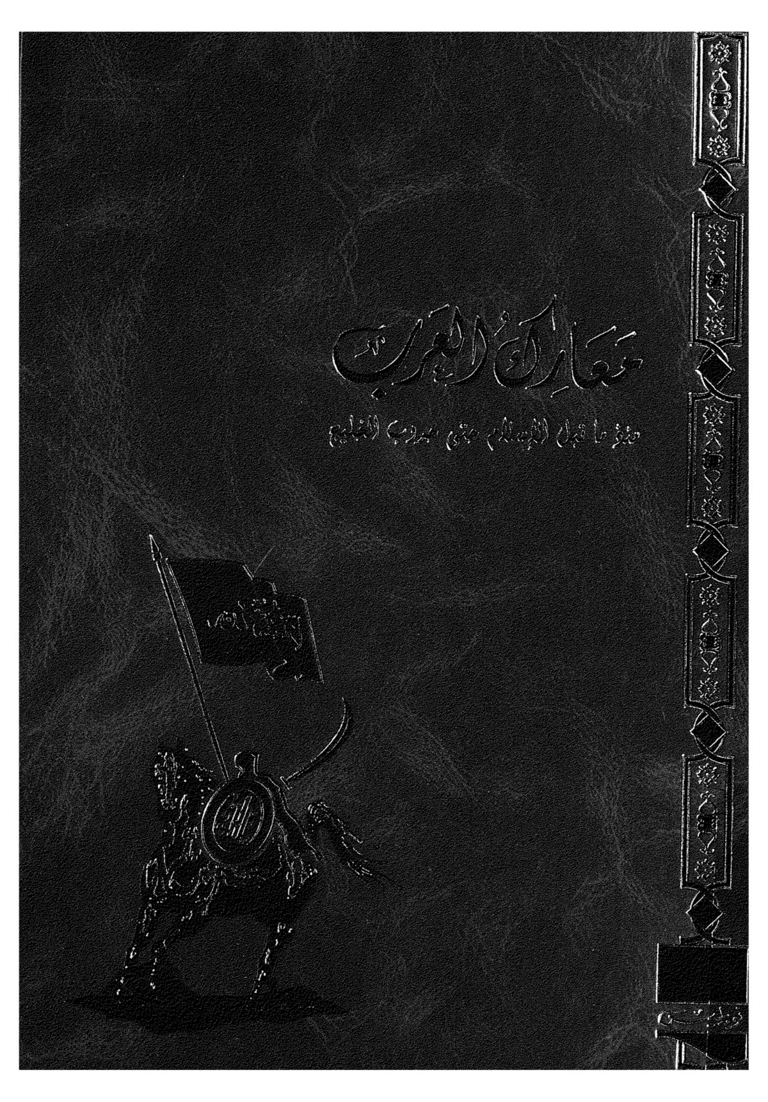

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب 8

اسم الموسوعة	:	معارك العرب
		منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	الخلافة الأموية (1)
		إنتقال الخلافة إلى الأمويين والثورات ضدهم
المؤلف	:	العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	208
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت - لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ

مَعَارِكُ العَرَب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (8)

الخلافة الأموية (1)

إنتقال الخلافة إلى الأمويين والثورات ضدهم

NOBILIS
2007

المقدّمة

اعتبر الصراع ما بين علي ومعاوية أول صراع في الإسلام بين معسكرين، كلاهما مسلم. فقبل هذا الصراع كان المسلمون يداً واحدة وقلباً واحداً في محاربة الظلم والبؤس والتعسّف والهيمنة، وضد مفاهيم الجاهلية والوثنية. وحسم هذا الصراع لصالح معاوية، أي الأسرة الأموية ضد الأسرة الهاشمية.

لكن الحكم الإسلامي بعد معركة صفّين والتحكيم ومقتل الإمام علي، لم يعد مثله قبل ذلك، إذ انتقلت الخلافة، ليس فقط إلى الفرع الأموي، إنما أيضاً خرجت من شبه الجزيرة العربية، من المدينة المنوّرة ومكّة اللتين أصبحتا مركزاً للعبادة، إلى بلاد الشام. ولم تعد الخلافة بعد ذلك إلى مركز انطلاقها في الحجاز، بل انتقلت مع العباسيين من الشام إلى العراق، قبل أن تقوم دويلات مستقلّة عاصية على الخلافة العباسية، حتى انه، وفي وقت لاحق، قام خلفاء ثلاث، الأول العباسي في بغداد، والثاني الفاطمي في مصر، والثالث الأموي في الأندلس.

هذه الخلافات الثلاث تصارعت في ما بينها. فما كان يعتبر في الخلافة الراشدية ضرباً من الخروج على الدين، أي محاربة المسلم أخيه المسلم، أصبح بعد قيام الخلافة الأموية والعباسية قاعدة في التعامل بين القوى الإسلامية المختلفة. فالصراعات بين أولاد الخلفاء وبين الدويلات المختلفة، وحتى الدول التي قامت في الشرق الأدنى ومصر والمغرب والأندلس، أصبحت القاعدة المتبعة في أرجاء الأمة الإسلامية التي لم تتوحّد بعد الفتنة الكبرى كما كانت قبلها.

حتى في زمن الخليفة الأموي الأول معاوية، حفل التاريخ الإسلامي بمعارك عديدة ضمن إطار الصراع على السلطة. فقد كان على معاوية أن يقاتل الخوارج والشيعة ويعمل على تأمين الخلافة بعده لابنه يزيد.

ونتوقّف هنا عند ظاهرة تسليم الخلافة ليزيد بن معاوية بعد أبيه لنؤكّد أن الخلافة الأموية عملت أيضاً على قلب المفاهيم الإسلامية التي جاء بها النبي ﷺ لجهة الاستخلاف. ففيما درج المسلمون على بيعة الأحقّ بالخلافة وفق ما يرون، فجاء أبو بكر الصديق الذي سمّى خليفته عمراً بن الخطاب؛ وفيما اجتمع كبار الصحابة واختاروا عثمان بن عفان خليفة؛ وفيما جاء علي بإجماع كبار الصحابة وبايعته الأقاليم؛ ألغى معاوية الشورى في الإسلام وأقام بعده خلافة دنيوية قائمة على الوراثة والقوة والسلطة وبذل الأموال واصطناع المؤيدين.

لقد بذل معاوية الأموال التي كانت متوافرة بكثرة في الشام، وخاصة لبني هاشم، تخفيفاً لما في أنفسهم من النقمة عليه بسبب انتزاعه الخلافة من أيديهم. وعُرف معاوية بالمرونة وهو القائل:

«لو أن بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، فإن شدّوا أرخيت وإن أرخوا شددت».

لذلك تقبّل انتقاد بني هاشم له وتعريضهم باغتصابه الخلافة منهم.

واقتبس معاوية عن الروم مظاهر البذخ والترف وساواهم في أبهة الملك، فأقام الحرس بين يديه بالحراب واعتزل للصلاة. وبنى لنفسه قصراً نصب فيه السرير، وأوقف الحجّاب ببابه، ولبس الثياب الفخمة. وكلّ ذلك بعيدٌ جداً من مفاهيم الخلفاء الراشدين للخلافة.

كما اصطنع معاوية كبار دهاة العرب فعيّنهم ولاة على الأقاليم، وأبرزهم عمرو بن العاص الذي سلّمه ولاية مصر، وزياد بن أبيه، الذي استلحقه بنسبه فسمي «زياد بن أبي سفيان»، والمغيرة بن شعبة. وقد اعتبر هؤلاء الثلاثة، ومعاوية على رأسهم، أكبر دهاة العرب.

في المقابل، كان الإمام علي لا يعرف الاحتيال والمداهنة رغم أنه كان محاطاً

ببعض الذين عُرفوا بالدهاء، كالمغيرة بن شعبة الذي أشار عليه بعدم عزل ولاة عثمان مباشرة بعد تسلّمه الخلافة؛ وكابن عمّه عبدالله بن عبّاس الذي قال له يوماً: «يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع، لست صاحب رأي في الحرب، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحرب خدعة؟». لكن الإمام علي لم يقتنع برأي هؤلاء.

وهكذا انتصر الدهاء والمداهنة على العصامية والاستقامة.

القسم الأول

انتقال الخلافة إلى الأمويين

الفصل الأول
العمليات العسكرية في عهد معاوية بن أبي سفيان

بعد مقتل الإمام علي زال عائق كبير من أمام تثبيت خلافة معاوية الذي كان قد سبق وبايعته بها بلاد الشام في حياة الإمام. إنما، ورغم ذلك، كانت عقبات أخرى تعترض سبيل الخليفة الأموي الأول، وأبرزها مبايعة الإمام الحسن بن علي بالخلافة.

أولاً – مبايعة الإمام الحسن بالخلافة

لما قتل الإمام علي بايع أصحابه ابنه الحسن بالخلافة، وأول المبايعين كان قيس بن سعد الأنصاري الذي قاله له: «ابسط يدك على كتاب الله وسنّة رسوله وقتال الملحدين»، فقال الحسن: «على كتاب الله وسنة رسوله».[1] ثمّ بايعه أهل العراق فكان يشترط عليهم قائلاً: «إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت».

قبل مقتل الإمام علي كان قد عيّن قيساً بن سعد على مقدّمته من أهل العراق، وكانوا أربعين ألفاً بايعوه على الموت.[2] فلما بويع الحسن تحرّك بهذا الجيش من المدائن بهدف مقاتلة معاوية الذي زحف بأهل الشام إلى الكوفة.

وكان معاوية في جيش منسجم ومطيع، أما الحسن فكانت جبهته الداخلية قد تصدّعت بعد مقتل والده، كما اصطنع معاوية البعض من قادة جيشه واستطاع أحد الخوارج جرحه

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٣٦.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٦٤.

جرحاً بليغاً كاد أن يودي بحياته. وقد شغله جرحه عن شجون الحرب وجعله، مع تخلّي بعض قادته عنه وانضمامهم إلى معاوية، أكثر اقتناعاً بعدم جدوى القتال ضد هذا الأخير. لذلك استقرّ رأيه على الصلح.

كتب ابن كثير عن هذه الأحداث ما يلي:[1]

«أن علياً رضي الله عنه لما ضربه ابن ملجم قالوا له: استخلف يا أمير المؤمنين فقال: لا ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله ﷺ - يعني بغير استخلاف - فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم، كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ. فلما توفي وصلّى عليه ابنه الحسن، لأنه أكبر بنيه رضي الله عنهم، ودفن بدار الإمارة على الصحيح من أقوال الناس، فلما فرغ من شأنه كان أول من تقدّم إلى الحسن بن علي رضي الله عنه قيس بن سعد بن عبادة فقال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه. فسكت الحسن فبايعه ثمّ بايعه الناس بعده، وكان ذلك يوم مات علي، وكان موته يوم ضرب على قول وهو يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين. وقيل إنما مات بعد الطعنة بيومين، وقيل مات في العشر الأخير من رمضان، ومن يومئذٍ ولي الحسن بن علي. وكان قيس بن سعد على إمرة أذربيجان، تحت يده أربعون ألف مقاتل، قد بايعوا علياً على الموت، فلما مات عليّ ألحّ قيس بن سعد على الحسن في النفير لقتال أهل الشام، فعزل قيساً عن إمرة أذربيجان، وولّى عبيد الله بن عباس عليها. ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحداً، ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعاً عظيماً لم يسمع بمثله. فأمر الحسن بن علي قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة في اثني عشر ألفاً بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصداً بلاد الشام، ليقاتل معاوية وأهل الشام. فلما اجتاز بالمدائن نزلها وقدّم المقدّمة بين يديه. فبينما هو في المدائن معسكراً بظاهرها، إذ صرخ في الناس صارخ: ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قتل، فثار الناس فانتهبوا أمتعة بعضهم بعضاً حتى انتهبوا سرادق

(1) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٦ - ١٧.

الحسن، حتى نازعوه بساطاً كان جالساً عليه. وطعنه بعضهم حين ركب طعنة أثبتوه وأشوته فكرههم الحسن كراهية شديدة، وركب فدخل القصر الأبيض من المدائن فنزله وهو جريح. وكان عامله على المدائن سعد بن مسعود الثقفي، فلما استقرّ الجيش بالقصر قال المختار بن أبي عبيد قبّحه الله لعمه سعد بن مسعود: هل لك في الشرف والغنى؟ قال: ماذا؟ قال: تأخذ الحسن بن علي فتقيده وتبعثه إلى معاوية. فقال له عمه: قبّحك الله وقبّح ما جئت به، أغدر بابن بنت رسول الله ﷺ؟ ولما رأى الحسن بن علي تفرّق جيشه عليه، مقتهم وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان قد ركب في أهل الشام فنزل مسكن، يراوضه على الصلح بينهما».

ثانياً – مصالحة الحسن مع معاوية

لمّا رأى الإمام الحسن تفرّق جماعته كتب إلى معاوية بالصلح وذكر شروطه الآتية:[1]

– ان يعطيه ما في بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة ملايين، وخراج «دارابجرد» من فارس.

– ان لا يشتم علياً.

كتب الطبري عن طلب الصلح ما يأتي:[2]

«قال زياد بن عبدالله، عن عوانة؛ وذكر نحو حديث المسروقي، عن عثمان بن عبدالرحمن هذا، وزاد فيه: وكتب الحسن إلى معاوية في الصلح، وطلب الأمان، وقال الحسن للحسين ولعبدالله بن جعفر: إني قد كتبت إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان. فقال له الحسين: نشدْتك الله أن تصدّق أحدوثة معاوية، وتكذّب أحدوثة علي! فقال له الحسن: اسكت، فأنا أعلم بالأمر منك. فلمّا انتهى كتاب الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية، أرسل معاوية عبدالله بن عامر وعبد الرحمن بن سَمُرة، فقدما المدائن، وأعطيا الحسن ما أراد. فكتب الحسن إلى قيس بن سعد وهو على مقدّمته في اثني عشر ألفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية، فقام قيس بن سعد في الناس فقال: أيّها

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٧١.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٦٥.

الـنـاس، اخـتـاروا الـدخـول في طـاعـة إمـام ضلالة، أو القتال مع غير إمام؛ قالوا: لا، بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة. فبايعوا لمعاوية، وانصرف عنهم قيس بن سعد، وقد كان صالح الحسنُ معاوية على أن جعل له ما في بيت ماله وخراج دارا بجرد على ألاّ يُشتم عليّ وهو يسمع. فأخذ ما في بيت ماله بالكوفة، وكان فيه خمسة آلاف ألف».

هكذا تنازل الحسن عن الخلافة وسار إلى المدينة مع أهل بيته وحشمهم. ولما قيل له: «ما حملك على ما فعلت؟» قال: «كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحدٌ أبداً إلاّ غُلب، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هواء...».(١)

وكان تنازل الحسن في السنة إحدى وأربعين للهجرة/ ٦٢٢م، وقد سمي هذا العام «عام الجماعة» لاجتماع الكلمة فيه على معاوية.

وبعد عودة الحسن إلى المدينة بمدّة وجيزة مات مسموماً السنة ٤٩هـ على يد زوجته التي كان معاوية قد اشتراها وطلب منها قتل زوجها ووعدها إن فعلت ذلك أن يزوّجها ابنه يزيد.(٢) لكنّ هذه الحادثة ليست مؤكّدة إذ أن العديد من المؤرّخين، ومنهم ابن خلدون، يشككون فيها.(٣)

ثالثاً – معاوية يثبّت خلافته على الأمصار

لما استقرّ الأمر لمعاوية أرسل عماله إلى الأمصار، فعيّن على الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى مصر عمراً بن العاص، وعلى البصرة بسراً بن ارطأة. وكان على فارس من أعمال البصرة زياد بن أبيه. ثمّ عزل بسراً وعيّن عبدالله بن عامر على البصرة ومعها خراسان وسجستان.(٤)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٧٣.

(٢) بيضون وزكار، تاريخ العرب السياسي، دار الفكر، ١٩٧٤، ص ٨١ – ٨٢.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٣٩.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٩ – ١٠.

ثمّ ولّى معاوية السنة اثنتين وأربعين على المدينة مروان بن الحكم، وعلى مكّة خالداً ابن العاص بن هشام.

ولّما وُلّي ابن عامر على البصرة استعمل عبد الرحمن بن سُمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطتها عبّاد بن الحصين وكان أهلها قد كفروا، ففتح أكثرها حتى بلغ كابُل وحاصرها شهراً ونصب عليها المجانيق حتى ثلم سورها وهزم أهلها ودخلها عنوة.[1]

ثمّ سار عبد الرحمن إلى نسف مملكها عنوة، ثمّ إلى حسك التي صالحه أهلها، ثمّ إلى الرجح التي قاتله أهلها فافتتحها عنوة، ثمّ إلى زبلستان ففتحت، وعاد إلى كابُل التي كان أهلها قد نقضوا الصلح، ففتحها عنوة.[2]

واستعمل على ثغر الهند عبدالله بن سوار الذي غزا التيعان. واستعمل على خراسان قيساً بن الهيثم، ثمّ عزله وولى ابن خازم الذي أعاد طخارستان إلى الولاء بعد أن هزم أهلها.

رابعاً – خروج الخوارج على معاوية

كان رجال إحدى فرق الخوارج، وعددهم خمسمائة مقاتل، قد اعتزلوا القتال بقيادة فروة بن نوفل وساروا إلى «شهرزور». فلما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة، خرجوا عن طاعة معاوية السنة ٤١هـ.

كتب الطبري عن خروج الحرورية الخوارج على معاوية:[3]

«حدّثت عن زياد، عن عَوانة، قال: قدم معاوية قبل أن يَبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النُّخَيلة، فقالت الحَرُوريّة الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشَهْرَزور مع فَرْوة بن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شكّ فيه، فسِيروا إلى معاوية فجاهدوه. فأقبلوا وعليهم فَروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام. فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفّوا بوائقَكم؛ فخرج أهل الكوفة إلى

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٩ - ١٠.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٦٩.

الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: وَيْلكم! ما تَبْغون منّا! أليس معاوية عدوّنا وعدوّكم! دعونا حتى نُقاتله، وإن أصبناه كنا قد كَفَيْناكم عدوّكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا. قالوا: لا والله حتى نقاتلكم. فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النّهر، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة. وأخذت أشجع صاحبهم فرْوة بن نوفل، وكان سيّد القوم، واستعملوا عليهم عبدالله بن أبي الحُرّ - رجلاً من طيّىء - فقاتلوهم، فقتلوا».

وهكذا هزم أهل الكوفة الخوارج وطردوهم من بلادهم.

وفي جمادى الآخرة السنة إحدى وأربعين خرجت فرقة من الخوارج على معاوية بقيادة حوثرة بن وداع بن مسعود الأسدي، فسارت من «براز الرور» حتى أتت «النخيلة» وعددها مائة وخمسون رجلاً، وانضمّت إليها فرقة «فل بن أبي الحوساء».

سيّر معاوية إليهم عبدالله بن عوف الأحمر في ألفي مقاتل، فقاتلهم طويلاً، إذ إنهم صبروا على قتاله. وبارز ابن عوف حوثرة وقتله، ثمّ قتل أصحابه باستثناء خمسين رجلاً دخلوا الكوفة.[1]

ولمّا ولي المغيرة بن شعبة الكوفة خرج عليه شبيب الخارجي،[2] فبعث إليه المغيرة قوة من فرسان الكوفة عليها خالد بن عرفطة فاقتتل الجانبان في معركة انجلت عن مقتل شبيب ومقاتليه.

ثمّ خرج أبو مريم الخارجي مولى بني الحارث بن كعب، فوجه إليه المغيرة قوّة مسلمة بقيادة جابر البجليّ الذي قاتله في «بادوريا»[3] وقتله مع أصحابه.

ثمّ خرج أبو ليلي، وهو رجل أسود طويل كان قد «أمسك بعضادتي باب المسجد بالكوفة وفيه عدد من الاشراف، وحكّم بصوت عالٍ فلم يعرض له أحد، فخرج وتبعه ثلاثون رجلاً من الموالي. فبعث المغيرة معقل

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٧٦.

(٢) شبيب كان مع ابن ملجم عند اغتياله للإمام علي.

(٣) بادوريا: في الجانب الغربي من بغداد.

ابن قيس الرياحي فقتله بسواد الكوفة سنة اثنتين وأربعين».[1]

وفي السنة نفسها خرج الخارجي سهم بن غالب الهجيمي على والي البصرة ابن عامر ومعه سبعون رجلاً، فخرج إليهم ابن عامر بنفسه وقاتلهم فقتل العديد منهم وفرّ قسم إلى أجمة[2] وفيهم سهم فأمّنهم ابن عامر فخرجوا إليه. لكن زياداً بن أبيه عاد وقتل سهماً في ما بعد.[3]

وفي السنة نفسها تحرّك الخوارج، وكانوا يجتمعون في منزل حيّان بن ظبيان السلميّ، واستعدوا للخروج وكانوا نحواً من عشرين رجلاً. أرسل المغيرة بن شعبة قائد شرطته قبيصة بن الدمون فأحاط بالمنزل وجاء بهم إلى المغيرة الذي سجنهم حيث بقوا في السجن نحو سنة.[4]

كما أرسل المغيرة بن شعبة معقل بن قيس لتعقّب الخوارج الذين كانوا قد ساروا إلى «بهرسير» وأرادوا العبور إلى المدينة العتيقة التي بها منازل كسرى، فمنعهم سمّاك بن عبيد الازدي العبسي. وسار معقل في ثلاثة آلاف إلى المدائن، ومنها بعث على مقدّمته أبا الرواغ الشاكري في ثلاثمائة فارس فتتبّعهم حتى «المزار».

وفي المزار حملت الخوارج وعددهم ثلاثمائة أيضاً على أبي الرواغ الذي انهزم، لكنه عاد للقتال الذي أصبح سجالاً بين الفريقين في انتظار وصول جيش المغيرة بقيادة معقل بن قيس. وبالفعل أسرع معقل مع سبعمائة من جيشه حتى بلغ المزار حيث بدأت معركة عنيفة بين الجيشين قبل ان يُهزم الخوارج وينسحبون من القتال.[5]

لكن أبا الرواغ لحق بهم في ستمائة فارس حتى جسر ساباط. غير أن الخوارج تحركوا نحو معقل الذي كان في مائتي رجل وحملوا عليهم حملات عدّة من دون ان يتمكّنوا من

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٢) الاجمة: الشجر الكثيف الملتفّ.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٨١.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٧٨ - ١٧٩.
(٥) المرجع نفسه، ص ١٧٨ - ١٩٣.

هزيمته، إذ صمد مع جنوده إلى ان جاءهم أبو الرواغ بالمدد فجرى قتال عنيف بين الجانبين أسفر عن مقتل قائد الخوارج المستورد بن عُلَّفة التميمي وكلّ من معه من الخوارج، ولم ينجُ منهم سوى خمسة أو ستة.(١)

خامساً - معاوية يستلحق زياداً بن أبيه بعائلته

في السنة الرابعة والأربعين استلحق معاوية زياداً بن أبيه بنسبه، وذلك بهدف تأمين موالاته. فمن المعروف أن زياداً كان من عمال الإمام علي، وكان قد اعتصم بولاية فارس ولم يأتِ الشام رغم استدعاء معاوية له، ولم تنفع معه تهديدات معاوية ووعوده.

وبقي الوضع كذلك إلى أن كلّف معاوية المغيرة بن شعبة بلعب دور الناصح لزياد ففعل. واقتنع زياد فقدم إلى الشام وتصالح مع معاوية واستأذنه في نزوله الكوفة فأذن له.

ورواية الاستلحاق أنّ سمية أم زياد كانت لدهقان زندورد بكسكر، فمرض الدهقان فدعا الحارث بن كلدة الطبيب الثقفي الذي عالجه فشفي، فوهبه سمية. وقيل إن أبا سفيان والد معاوية سار في الجاهلية إلى الطائف فعرف سميّة فولدت له زياداً. وهكذا أصبح زياد يدعى زياداً بن أبي سفيان.(٢)

ولاحقاً عيّن معاوية زياداً والياً على البصرة ثمّ ألحق به الكوفة فأصبح أهم شخصية في العالم الإسلامي بعد الخليفة.(٣)

سادساً - غزو المهلّب السند

في السنة الرابعة والأربعين غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر الهند، فبلغ الأهواز وكابل، حيث لاقاه العدو وجرت معركة انتصر فيها المسلمون.

اصطدم المسلمون خلال هذه الغزوة بالترك، إذ إنّ المهلب لقي في بلاد القيقان

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٧٨ - ١٩٣.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٩٩ - ٣٠١.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٩٦ - ١٩٧.

ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعهم.[1]

سابعاً – غزوات أخرى

وفي السنة الرابعة والأربعين أيضاً غزا عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم في جيش من المسلمين وامضوا فصل الشتاء فيها. وفيها غزا بسر بن أرطأة في البحر بلاد الروم.[2]

وفي خلافة معاوية امتدّت الفتوحات العربية حتى بلغت المحيط الأطلسي غرباً وهراة وكابل وبخارى شرقاً.[3] أما على الجبهة البيزنطية فقد استمرّت الحرب من دون انقطاع ضمن مفهوم الصوائف والشواتي،[4] إذ إنها كانت تسيّر خاصة في الصيف، وأحياناً في الشتاء. وأقام معاوية مناطق ثابتة للانطلاق منها في الغزوات ضدّ الروم دعيت «الثغور»، لذلك دعيت هذه الحروب بحرب الثغور.

وفي عهد معاوية أيضاً نشط الأسطول العربي في المتوسّط وراح يتصدّى للأساطيل البيزنطية، إلى أن انتصر عليها في معركة «ذات الصواري» السنة ٣٦هـ والتي سبق الحديث عنها.

وفي السنة السابعة والأربعين وجّه زياد بن أبي سفيان الحكم بن عمرو الغفاري إلى خراسان فسار إلى جبال الغور وغزا مَنْ بها. وكانوا قد ارتدّوا عن الإسلام، فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا.[5]

وفي هذه السنة نفّذ المسلمون غزوة ضد بلاد الروم خلال فصل الشتاء وأمضوا هذا الفصل في تلك البلاد.[6] كما غزا المهلب

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٠٢.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩.
(٣) انظر التفاصيل في الجزء السابق من هذه الموسوعة.
(٤) نسبة إلى الصيف والشتاء.
(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٠٤.
(٦) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٢.

مع الحكم بن عمرو في خراسان بعض جبال الترك، فغنما غنائم كثيرة. إلا أنهما، وأثناء عودتهما، أخذ الترك عليهما الشعاب والطرق. فما كان من المهلب إلاّ أن أسر أحد عظماء الترك وقال له:[1]

«إما أن تخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنك».

فقال له: «أوقد النار حيال طريق من الطرق وسيّر الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق. فبادرهم إلى طريق أخرى فما يدركونهم حتى تخرجوا منه».

ففعل ذلك فَسَلِم الناس بما معهم من الغنائم.

ثامناً – غزوة القسطنطينية[2]

من أهم الحملات التي سيّرها معاوية خلال حكمه، الحملة الشهيرة التي أرسلها في السنة التاسعة والأربعين إلى القسطنطينية لفتحها وجعل عليها سفيان بن عوف، وأمر ابنه يزيداً بالغزو معها. وضمّت الحملة في صفوفها الصحابي أبا أيوب الأنصاري مع عدد من أبناء الصحابة. وجاءت هذه الحملة تمشياً مع سياسة الخليفة الرامية إلى دكّ عاصمة البيزنطيين والاستيلاء عليها، ومن ناحية أخرى تجسيداً لاستراتيجية الصوائف والشواتي التي اعتمدها معاوية منذ كان والياً على الشام.

أوغلت الحملة في بلاد الروم حتى بلغت القسطنطينية وحاصرتها وجرى قتال عنيف حولها استعمل خلاله الروم النار الإغريقية ضد الأسطول العربي.

وتمكّن العرب خلال هذه الحملة من الاستيلاء على أحد المواقع المهمّة في جنوب غربي العاصمة البيزنطية ظلّ في أيديهم أعواماً عديدة. لكن الجيش العربي الإسلامي لم يتمكّن من تنفيذ مهمته الأساسية التي كانت تقضي بالاستيلاء على القسطنطينية لأسباب أهمها:

- قلّة معدات الحصار معه.
- منعة أسوار القسطنطينية ومتانتها.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣١١ – ٣١٢.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣١٤ – ٣١٥.

- استعمال البيزنطيين النار الإغريقية التي فتكت بالسفن.

- استبسال الروم في الدفاع عن عاصمتهم.

- تعرّض الجيش الإسلامي لمرض وجوع شديدين.

وأخيراً رجع يزيد والجيش إلى الشام، بعد ان توفي الصحابي الأنصاري عند القسطنطينية فدفن قرب سورها.

وهكذا فشلت المحاولة الأولى لفتح القسطنطينية.

تاسعاً – غزوات في خلافة معاوية

وخلال السنة نفسها جرت الغزوات الآتية:[١]

- غزوة شتوية لمالك بن هبيرة إلى بلاد الروم.

- غزوة فضالة بن عبيد إلى «جربة» التي افتتحها وبقي فيها فصل الشتاء.

- صائفة عبدالله بن كرز البجلي.

- غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر.

- غزوة عقبة بن نافع إفريقيا بحراً.

وفي السنة الثانية والخمسين للهجرة قام سفيان بن عوف الأسدي بغزو بلاد الروم خلال الشتاء، وقام محمّد بن عبدالله الثقفي بغزوها خلال فصل الصيف. كما ثار زياد بن خراش العجلي في ثلاثمائة فارس فأتى أرض مسكن من السواد، فسيّر إليه زياد بن أبي سفيان فرقة من الفرسان بقيادة سعد بن حذيفة، فقتله مع جميع من معه.[٢]

وخرج على زياد أيضاً رجل من طيئ اسمه «معاذ» في ثلاثين رجلاً، فبعث إليه زياد فرقة من جيشه قتلته وأصحابه.

أ – فتح رودس:

وفي السنة الثالثة والخمسين غزا عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي أرض الروم وأشتى بها.[٣] وفيها فتح المسلمون جزيرة رودس بقيادة جنادة بن أمية الأزدي.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٠٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٤٠.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٣٨.

كتب ابن كثير عن فتح رودس:[١]

«غزا عبد الرحمن ابن أم الحكم بلاد الروم وشتى بها، وافتتح المسلمون وعليهم جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس فأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شيء على الكفار، يعترضون لهم في البحر ويقطعون سبيلهم، وكان معاوية يدر عليهم الأرزاق والأعطيات الجزيلة. وكانوا على حذر شديد من الفرنج، يبيتون في حصن عظيم عنده فيه حوائجهم ودوابهم وحواصلهم، ولهم نواطير على البحر ينذرونهم إن قدم عدو أو كادهم أحد. وما زالوا كذلك حتى كانت إمرة يزيد ابن معاوية، فحوّلهم من تلك الجزيرة، وقد كانت للمسلمين بها أموال كثيرة وزراعات غزيرة».

ب - فتح أرواد:

في السنة الرابعة والخمسين فتح المسلمون جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية بقيادة جنودة بن أبي أمية. فلما توفي معاوية وولي ابنه يزيد أمرهم بالعودة فعادوا.

كتب الطبري عن فتح أرواد:[٢]

«وفيها - فيما زعم الواقديّ - فتح جُنادة ابن أبي أميّة جزيرةً في البحر قريبة من قسطنطينية يقال لها أرواد.

وذكر محمّد بن عمر أنّ المسلمين أقاموا بها دهراً؛ فيما يقال سبع سنين، وكان فيها مجاهد بن جَبْر. قال: وقال تُبَيع ابن امرأة كعب: ترون هذه الدرجة؟ إذا انقلعت جاءت قفلتنا. قال: فهاجَت ريحٌ شديدة فقلعت الدّرجة، وجاء نعي معاوية وكتاب يزيد بالقَفْل فقفَلْنا، فلم تَعْمُرْ بعد ذلك وخَربت، وأمِن الروم».

ج - الشواتي والصوائف والغزوات:

وضمن إطار الشواتي والصوائف سجلت الغزوات الآتية:[٣]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٦٤.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٤١.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٣ - ١٢٤.

- في السنة السادسة والخمسين:

- مشتى جنادة بن أبي أمية بأرض الروم.

- غزوة في البحر ليزيد بن شجرة.

- غزوة في البر لعياض بن حارث.

- في السنة السابعة والخمسين:

- مشتى عبدالله بن قيس بأرض الروم.

- في السنة الثامنة والخمسين:

- غزو مالك بن عبدالله الخثعمي أرض الروم.

- غزو عمرو بن يزيد الجهني في البحر.

- في السنة التاسعة والخمسين:

- مشتى عمرو بن مرة الجهني بأرض الروم في البر.

- غزو جنادة بن أبي أمية في البحر.

- غزو المسلمين لحصن كمخ[1] ومعهم عمير بن الحباب السلمي الذي صعد السور ولم يزل يقاتل عليه وحده حتى كشف الروم، فصعد المسلمون وفتحوا الحصن.

- في السنة الستين:

- غزوة مالك بن عبدالله ودخول جنادة «رودس» وهدمه مدينتها.

وفي هذه السنة توفي معاوية وولي الخلافة ابنه يزيد.

د - العمليات ضد الخوارج:

وفي السنة الثامنة والخمسين خرجت الخوارج على الكوفة التي كان واليها عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان بن ربيعة الثقفي. وكان قائد الخوارج حيان بن ضبيان السلمي. أرسل عبد الرحمن جيشاً بقيادة قائد شرطته زائدة بن قدامة فقتلهم جميعاً.[2]

وفي السنة ذاتها كان قوم من الخوارج بالبصرة يجتمعون إلى رجل اسمه «جدار» فيتحدّثون عنده ضد الخليفة. أرسل ابن زياد قوّة ألقت القبض عليهم، وحبسهم. ثمّ

(١) كمخ: مدينة في بلاد الروم.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٦.

دعاهم وعرض عليهم ان يقتل بعضهم بعضاً، ويخلي سبيل القاتلين. ففعلوا فأطلق الذين بقوا أحياءً.[١]

وكان من الذين بقوا أحياءً رجل اسمه «طواق بن علاق»، فدعا، بعد إطلاقه، أصحابه للخروج والفتك بابن زياد، فبايعوه وكانوا سبعين رجلاً.

ندب ابن زياد شرطته لقتالهم، فقاتلوهم وهزموهم حتى أدخلوهم البصرة، ثمّ لحقوا بهم وقتلوهم جميعاً.[٢]

وفي السنة نفسها أيضاً اشتدّ ابن زياد على الخوارج فقتل عدداً كبيراً منهم، وألحّ في طلبهم فملأ منهم السجن. وهذا ما دفع بمرداس بن أدية إلى الخروج على عبيد الله بن زياد في أربعين رجلاً إلى الأهواز.[٣]

كتب ابن الأثير عن قتال ابن زياد ضد مرداس وعناصره:[٤]

«وأصبح عبيدالله فقتل الخوارج. فلما أحضر مرداس قام السجان، وكان ظِئراً لعبيد الله، فشفع فيه وقصّ عليه قصّته فوهبه له وخلّى سبيله. ثمّ إنه خاف ابن زياد فخرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز فكان إذا اجتاز به مالٌ لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثمّ يردّ الباقي. فلمّا سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشاً عليه أسلم بن زرعة الكلابي سنة ستين، وقيل: أبو حصين التميميّ، وكان الجيش ألفي رجل. فلمّا وصلوا إلى أبي بلال ناشدهم الله أن لا يقاتلوه فلم يفعلوا ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة فقالوا: أتردّوننا إلى ابن زياد الفاسق! فرمى أصحاب أسلم رجلاً من أصحاب أبي بلال فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدأوكم بالقتال. فشدّ الخوارج على أسلم وأصحابه شدّة رجلٍ واحد فهزموهم، فقدموا البصرة فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت في ألفين؟ لا خير فيك. فقال: لأن تلومني وأنا حيّ خيرٌ من أن تثني عليّ وأنا

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٥٩.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٥٩.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٥٦.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٢٢.

ميت. فكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به: أما أبو بلال وراءك. فشكا ذلك إلى ابن زياد فنهاهم فانتهوا».

عاشراً – وفاة الخليفة معاوية

مرض معاوية في السنة الستين للهجرة فدعا ابنه يزيداً وقال له:(١)

«يا بُنيّ إنّي قد كفيتك الشدّ والترحال، ووطّأت لك الأمور، وذلّلت لك الأعداء، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحدٌ. فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلُك، وأكرم مَن قدِم عليك منهم، وتعاهد مَن غاب. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كلّ يوم عاملاً فافعل فإنّ عَزْلَ عامل أيسر مِن أن يُشْهَر عليك مائة ألف سيفٍ. وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن رابك من عدوك شيءٌ فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيّرت أخلاقهم.

وإنّي لست أخاف عليك أن ينازِعك في هذا الأمر إلاّ أربعة نفر من قريش: الحسين ابن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأمّا ابن عمر فإنه رجلٌ قد وقذته العبادة فإذا لم يبق أحدٌ غيره بايعك. وأمّا الحسين بن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه فإنّ له رَحِماً ماسّة، وحقّاً عظيماً، وقرابة من محمّد ﷺ. وأمّا ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له هِمّة إلاّ في النساء واللهو. وأمّا الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير، فإن هو فَعَلَها بك فظفرت به فقطّعْه إرباً إرباً واحقنْ دماءَ قومك ما استطعت».

وقيل إن عبدالرحمن بن أبي بكر توفي قبل معاوية. لذلك فإن ما جاء في شأنه قد أضيف. كما قيل إن يزيداً كان غائباً خلال مرض أبيه وموته، وإن معاوية أحضر الضحّاك بين قيس، ومسلم بن عقبة

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٢٢.

فأمرهما بأن يؤديا عنه هذه الرسالة إلى يزيد ابنه.[1]

إنما، ومهما يكن من أمر، تعتبر هذه الوصية برنامج عمل لزياد الذي أصبح خليفة بعد والده الذي كان قد أخذ له البيعة في حياته.

وتوفي معاوية بدمشق لهلال رجب، وقيل للنصف منه، وقيل لثمان بقين منه، بعد أن ملك تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً منذ بايعه الحسن بن علي.

حادي عشر – الدروس والعبر والنتائج

أ – بعد ان استقرّت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وتنازل الحسن بن علي عنها، نجح معاوية في تثبيت سلطته على الأمصار، فعيّن الولاة الذين أخضعوا المدن العاصية، ففتحوا كابل، التي كان أهلها قد كفروا، ونسف وحسك والرجح وزبلستان وطخارستان. وكلّها مناطق كان أهلها قد انتفضوا على الخليفة الجديد ولم يعترفوا بسلطته، فأعادهم معاوية إلى الطاعة.

ب – لما تنازل الحسن عن الخلافة خرجت فرقة الخوارج الحرورية على الخليفة معاوية الذي نجح في استعادة ولاء أهل الكوفة ودفعهم إلى محاربة الخوارج وطردهم من بلادهم.

ومن الملاحظ أن معاوية استعمل السياسة والدهاء، وليس العنف، في استعادة الخارجين عن سلطته. وضرب البعض من معارضيه بالبعض الأخر كما حصل بين أهل الكوفة، الذين كانوا من أنصار الإمام علي، والخوارج الحرورية. وما يظهر ذلك قول الحرورية لأهل الكوفة:

«ويلكم، ما تبغون منا؟ أليس معاوية عدوّنا وعدوّكم؟ دعونا نقاتله». لكن أهل الكوفة لم يدعوهم يقاتلونه.

ج – تتالت المعارك بين أهل الكوفة والبصرة والخوارج الذين كانوا يُهزمون في كلّ مرة؛ من شبيب إلى أبي مريم فأبي ليلى وجابر البجلي وسهم بن غالب. وكان خطر

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٦٨ – ٣٦٩.

الخوارج أول خطر عسكري حقيقي يواجه الخليفة الجديد بعد مقتل الإمام علي. وقد تمكّن الأمويون من الخروج من غالبية معاركهم ضد الخوارج منتصرين، الأمر الذي أهّلهم لمتابعة الغزوات إلى الخارج وصولاً إلى محاصرة القسطنطينية عاصمة الروم، وإلى فتح جزر عديدة في البحر المتوسّط الشرقي، وإلى إرسال الصوائف والشواتي بصورة منتظمة إلى بلاد الروم.(١)

د - ومن إنجازات معاوية السياسية نذكر قضية استلحاق القائد الكبير والوالي الناجح زياد بن أبيه بالعائلة السفيانية والاعتراف به كأخ غير شقيق للخليفة. وهذا ما دفع زياد، الذي كان سابقاً من ألدّ أعداء معاوية، إلى الولاء له وتحقيق إنجازات كبيرة. في الميادين السياسية والعسكرية لمصلحة البيت الأموي. وقد أصبح زياد أهم شخصية في العالم الإسلامي بعد الخليفة.

وهنا نعود لنؤكّد على قول كلوزويتز إن «الهدف السياسي هو الغاية، فيما الحرب هي الوسيلة، ولا يمكن تصوّر الوسيلة مستقلّة عن الغاية». لذلك، فما يمكن نيله بالسياسة، يجب عدم القتال بشأنه. «فالحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى».

أما وصية معاوية لخليفته يزيد، فإنها تصلح لأن تكون برنامجاً سياسياً عاماً، إذ إن الخليفة ضمّنها كلّ ما يجب على يزيد القيام به طيلة مدة خلافته. وبالفعل، صحّ كلّ ما توقعه معاوية لابنه وذكره في تلك الوصية.

لكلّ ما تقدّم اعتُبر معاوية بن أبي سفيان أبرز رموز التعقّل السياسي، ومدرسة في إدارة الدول والإمبراطوريات، ودبلوماسياً كبيراً في التعامل مع الأنصار والأعداء.

هـ - عسكرياً، شُنّت خلال خلافة معاوية، غزوات، أولها إلى السِّنْد حيث اصطدم المسلمون للمرة الأولى بالترك الذين سيعتنقون في ما بعد الإسلام ويلعبون دوراً مهماً في تاريخ الدولة العباسية، ويتابعون الجهاد العسكري في سبيل الله شمالاً وشرقاً، ويحافظون على استقرار العالم الإسلامي وديمومته.

(١) انظر الملحق رقم ٦ من هذا الجزء.

لقد تمكّنت الجيوش العربية بعهد الخليفة معاوية من تحقيق إنجازات عسكرية كبيرة أبرزها:

- فتح شمال افريقيا وصولاً إلى المحيط الأطلسي غرباً بقيادة القائد الكبير عقبة بن نافع الفهري.

- المتابعة بتسيير الصوائف والشواتي إلى بلاد الروم.

- إقامة مناطق ثابتة للانطلاق منها إلى غزو بلاد الروم دعيت «الثغور».

- إنشاء أسطول عربي كبير تصدى بنجاح للبحرية البيزنطية وصولاً إلى الانتصار عليها في معركة ذات الصواري.

- تسيير حملة عسكرية كبيرة إلى بلاد الروم وتوصُّلها إلى محاصرة القسطنطينية والتهديد بفتحها. وكانت هذه الحملة هي الأولى المكلفة بفتح عاصمة بلاد الروم.

- فتح جزر في البحر المتوسّط: رودس وأرواد وقبرص.

- كبح جماح الخوارج وإخضاعهم وسحق ثوراتهم، الأمر الذي أبعد خطرهم عن مركز الخلافة الأموية.

- استقرار الحكم الأموي وتثبيت أركان العالم الإسلامي وتسليم خلافة مستقرّة ليزيد بن معاوية.

هذه الخلافة كانت قبل معاوية تتجاذبها الصراعات السياسية والعسكرية، ويُهدَّد خلفاؤها الذين مات ثلاثة منهم اغتيالاً.

و - مما لا شك فيه أن الإنجازات التي حققها معاوية جاءت لتكمل الأعمال الكبيرة للخلفاء الراشدين الأربعة الهادفة إلى تثبيت أركان الدولة الإسلامية إثر الفتنة الكبرى التي ألّمت بالعالم الإسلامي. كما جاءت تمهيداً لمتابعة تمدّد هذه الدولة إلى خارج حدود الشرق الأدنى ونشر راية الإسلام في آسيا الصغرى وشرق آسيا وشمالي إفريقيا والأندلس.

الفصل الثاني

العمليات العسكرية في عهد الخليفة يزيد بن معاوية

سبق الحديث عن تأمين ولاية العهد من قبل معاوية لابنه يزيد وذلك خلال خلافة معاوية. فلمّا توفي هذا الأخير السنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م، تولّى ابنه يزيد الخلافة فكتب إلى الامصار بتوليته، فبايعه الجميع باستثناء الحسين بن علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير بن العوام.

وهكذا صحّ حدس معاوية بتحذير ابنه يزيد من الحسين ومن عبدالله وتحققت مخاوفه إذ خرج الحسين فوراً على خلافة يزيد ثمّ تبعه بعد قليل ابن الزبير. لكن يزيداً تمكّن من إخضاع الثورتين، كما أخضع ثورات عديدة للخوارج.

ولّما تولّى يزيد كان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى مكّة عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى الكوفة النعمان بن بشير. وفور تسلّمه، كتب الخليفة الجديد إلى الوليد بن عتبة يخبره بموت والده ويطلب منه أخذ البيعة له من عبدالله بن عمر وابن الزبير.[1]

أولاً – تمنّع الحسين وابن الزبير عن البيعة

استشار الوليد مروان بن الحكم في أخذ البيعة ليزيد.

روى الطبري تفاصيل تمنُّع الحسين وابن الزبير عن بيعة يزيد، فكتب:[2]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٧٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٦٩ – ٢٧٢.

«فلمّا أتاه نَعِيّ معاوية فَظِع به، وكبُر عليه، فبعث إلى مروان بن الحكم فدعاه إليه - وكان الوليد يوم قدم المدينة قَدِمها مروان متكارهاً - فلما رأى ذلك الوليد منه شتمه عند جلسائه، فبلغ ذلك مروان، فجلس عنه وصرَمه، فلم يزل كذلك حتى جاء نعيّ مُعاوية إلى الوليد. فلما عظُم على الوليد هلاك معاوية وما أمر به من أخذ هؤلاء الرّهط بالبيعة، فزع عند ذلك إلى مروان، ودعاه. فلما قرأ عليه كتاب يزيد، استرجع وترحّم عليه، واستشاره الوليد في الأمر وقال: كيف ترى أن نصنع؟ قال: فإني أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدّخول في الطاعة، فإن فعلوا قَبلت منهم، وكففت عنهم، وإن أبَوا قدّمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية. فإنهم إن علموا بموت معاوية وَثَب كلّ امرىء منهم في جانب، وأظهر الخلاف والمنابذة، ودعا إلى نفسه لا أدري. أما ابن عمر فإني لا أراه يرى القتال، ولا يحبّ أنّه يُولّى على الناس، إلاّ أن يُدفَع إليه هذا الأمر عفواً. فأرسل عبدالله بن عمرو بن عثمان - وهو إذ ذاك غلامٌ حَدَث - إليهما يدعوهما، فوجدهما في المسجد وهما جالسان. فأتاهما في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس، ولا يأتيانه في مثلها، فقال: أجيبا، الأمير يدعوكما، فقالا له: انصرف؛ الآن نأتيه. ثمّ أقبل أحدهما على الآخر، فقال عبدالله بن الزبير للحسين: ظُنّ فيما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها! فقال حُسين: قد ظننت، أرى طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر؛ فقال: وأنا ما أظنّ غيره. قال: فما تريد أن تصنع؟ قال: أجمع فِتياني الساعة، ثمّ أمشي إليه، فإذا بلغتُ الباب احتبستهم عليه، ثمّ دخلت عليه. قال: فإني أخافه عليك إذا دخلت؛ قال: لا آتيه إلاّ وأنا على الامتناع قادر. فقام فجمع إليه مواليه وأهل بيته، ثمّ أقبل يمشي حتى انتهى إلى باب الوليد وقال لأصحابه: إني داخلٌ، فإن دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا فاقتحموا علي بأجمعكم، وإلاّ فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم. فدخل فسلّم عليه بالإمرة ومروان جالسٌ عنده، فقال حسين؛ كأنه لا يظنّ من موت معاوية: الصّلة خيرٌ من القطيعة، أصلح الله ذات بينكما! فلم يجيباه في هذا بشيء،

وجاء حتى جلس، فأقرأه الوليد الكتاب، ونعى له معاوية، ودعاه إلى البيعة، فقال حسين: إنا لله وإنا إليه راجعون! ورَحِم الله معاوية، وعظّم لك الأجر! أمّا ما سألتني من البَيعة فإنّ مثلي لا يُعطي بيعته سرّاً، ولا أراك تجتزىء بها مني سرّاً دون أن نُظهرها على رؤوس الناس علانية. قال: أجَل، قال: فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً. فقال له الوليد، وكان يحبّ العافية: فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس. فقال له مروان: والله لئن فارقك الساعة ولم يُبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل، ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه. فوثب عند ذلك الحسين، فقال: يا ابن الزّرقاء، أنت تقتلني أم هو! كذبت والله وأثمت. ثمّ خرج فمرّ بأصحابه، فخرجوا معه حتى أتى منزله. فقال مروان للوليد: عصيتني، لا والله لا يمكنك من مثلها من نفسه بداً؛ قال الوليد: وبّخ غيرك يا مروان، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، والله ما أحبّ أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا ومُلكِها، وأني قتلت حُسيْناً، سبحان الله! أقتل حسيناً أن قال: لا أبايع! والله إني لا أظنّ امرأً يُحاسَب بدم حسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة. فقال له مروان: فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت، يقول هذا له وهو غير الحامد له على رأيه.

وأما ابن الزبير، فقال: الآن آتيكم، ثمّ أتى داره فكمن فيها، فبعث الوليد إليه فوجده مجتمعاً في أصحابه متحرّزاً، فألحّ عليه بكثرة الرّسل والرجال في إثر الرجال. فأما حُسين فقال: كُفّ حتى تنظر وننظر، وترى ونرى. وأما ابن الزّبير فقال: لا تعجلوني فإني آتيكم، أمهلوني.، فألحوا عليهما عشيتهما تلك كلّها وأوّل ليلهما، وكانوا على حسين أشدّ إبقاءً. وبعث الوليد إلى ابن الزبير موالي له فشتموه وصاحوا به: يا ابن الكاهليّة، والله لتأتينّ الأمير أو ليقتلنّك. فلبث بذلك نهاره كلّه وأوّل ليله يقول: الآن أجيء، فإذا استحثّوه قال: والله لقد استربت بكثرة الإرسال، وتتابع هذه الرجال، فلا تُعجلوني حتّى أبعث إلى الأمير مَن يأتيني برأيه وأمره. فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال:

رحمك الله! كفّ عن عبدالله فإنك قد أفزعته وذعرته بكثرة رُسلك، وهو آتيك غداً إن شاء الله، فمُر رُسلك فلينْصرفوا عنّا. فبعث إليهم فانصرفوا، وخرج ابن الزبير من تحت الليل فأخذ طريق الفُرع هو وأخوه جعفر، ليس معهما ثالث، وتجنّب الطريق الأعظم مخافة الطلب، وتوجّه نحو مكّة. فلما أصبح بعث إليه الوليد فوجده قد خرج، فقال مروان: والله إن أخطأ مكة فسرّح في أثره الرجال. فبعث راكباً من موالي بني أميّة في ثمانين راكباً، فطلبوه فلم يقدِروا عليه، فرجعوا، فتشاغلوا عن حسين بطلب عبدالله يومهم ذلك حتى أمسوا. ثمّ بعث الرجال إلى حسين عند المساء فقال: أصبِحوا ثمّ ترون ونرى، فكفّوا عنه تلك الليلة، ولم يُلِحّوا عليه، فخرج حسين من تحت ليلته، وهي ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب سنة ستّين.

وكان مخرج ابن الزبير قبله بليلة، خرج ليلة السبت فأخذ طريق الفُرع.

وأما الحسين فإنه خرج ببنيه وإخوته وبني أخيه وجلّ أهل بيته، إلاّ محمّد بن الحنفيّة فإنه قال له: يا أخي، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم عليّ، ولست أدّخر النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك، تنحّ بتَبَعَتِك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثمّ ابعث رُسُلك إلى النّاس فادعهم إلى نفسك فإن بايَعوا لك حمدتُ الله على ذلك، وإن أجمع النّاس على غَيرك لم يَنقُص الله بذلك دِينَك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك. إني أخاف أن تدخل مِصراً من هذه الأمصار وتأتِي جماعةً من الناس، فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأوّل الأسنّة. فإذا خير هذه الأمّة كلّها نفساً وأباً، وأمّاً أضيَعُها دماً وأذلّها أهلاً. قال له الحسين: فإني ذاهب يا أخي؛ قال: فانزل مكّة فإن اطمأنّت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نَبَت بك لحقت بالرمال، وشعَف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس، وتعرف عند ذلك الرأي. فإنّك أصوَب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكَل منها حين تستدبرها استدباراً. قال: يا أخي، قد نصحت فأشفقت، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موفّقاً».

وهكذا سار الحسين وابن الزبير إلى مكّة وامتنعا عن بيعَة يزيد، فأصبح القتال بينهما وبينه واقعاً لا محالة.

أما عبدالله بن عمر فانه انتظر حتى جاءت البيعة ليزيد من الأمصار، فذهب إلى الوليد وبايع بنفسه يزيداً.(١)

ثانياً - معركة كربلاء

رفض الإمام الحسين بيعة يزيد بن معاوية وتوجّه إلى مكّة المكرّمة حيث أقام في انتظار ما سيحدث، وكان ذلك في السنة الستين للهجرة. وقد أشار عليه كثيرونَ بالبقاء في مكّة وعدم الخروج إلى الكوفة.(٢)

لكن أهل الكوفة أرسلوا كتباً إلى الحسين يدعونه فيها إلى مدينتهم لينصروه ضدّ يزيد ابن معاوية. ومن الذين كتبوا له سليمان بن صُرد الخزاعي والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وشبث بن ربعي وحجّار بن أبجر ويزيد بن الحارث وغيرهم.

أ - كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين:

نقل الطبري تفاصيل الكتب التي أرسلت إلى الإمام الحسين وقراره بإرسال ابن عمّه مسلم بن عقيل لمعرفة أحوال الكوفة، فكتب:(٣)

«فلمّا بلغ أهل الكوفة هلاكُ معاوية أرجف أهل العراق بيزيد، وقالوا: قد امتنع حسين وابن الزبير، ولحِقا بمكّة، فكتب أهل الكوفة إلى حسين، وعليهم النعمان بن بَشير.

قال أبو مخنف: فحدّثني الحجّاج بن علي، عن محمّد بن بشر الهَمدانِيّ، قال: اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صُرد، فذكرنا هلاك معاوية، فحمدنا الله عليه. فقال لنا سليمان بن صُرَد: إنّ معاوية قد هلك، وإنّ حسيناً قد تقبّض على القَوم ببيعته، وقد خرج إلى مكّة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فاكتبوا إليه. وإن خفتم الوهَل والفَشل فلا تغرّوا الرجل من نفسه. قالوا: لا، بل نقاتل

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٨١.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

عدوّه ونقتل أنفسنا دونه؛ قال: فاكتبوا إليه، فكتبوا إليه:

بسم الله الرّحمن الرّحيم. لحسين بن علي من سُليمان بن صُرد والمسيّب بن نَجَبة ورفاعة بن شدّاد وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أمّا بعد، فالحمد لله الذي قَصَم عدوّك الجبّار العنيد الذي انتزى على هذه الزمّة فابتزّها أمرها، وغصبها فَيئها، وتأمّر بغير رضاً منها، ثمّ قتل خيارها، واستبقى شِرارَها، وجعل مال الله دُولة بين جبابرتها وأغنيائها. فبُعداً له كما بعدت ثمود! إنه ليس علينا إمام. فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جُمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغَنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشأم إن شاء الله؛ والسلام ورحمة الله عليك.

قال: ثمّ سرّحنا بالكتاب مع عبدالله بن سَبُع الهمدانيّ وعبدالله بن وال، وأمرناهما بالنّجاء؛ فخرج الرّجلان مسرعَين حتى قدِما على حسين لعشر مضين من شهر رمضان بمكّة. ثمّ لبثنا يومين، ثمّ سرّحنا إليه قَيس ابن مُسهر الصَّيداويّ وعبدالرحمن بن عبدالله بن الكدن الأرحبي وعُمارة بن عبيد السَّلوليّ، فحملوا معهم نحواً من ثلاثة وخمسين صحيفة: الصحيفة من الرّجل والاثنين والأربعة.

قال: ثمّ لبثنا يومَين آخرَين، ثمّ سرّحنا إليه هانىء السّبيعيّ وسعيد بن عبدالله الحنفي، وكتبنا معهما:

بسم الله الرحمن الرّحيم. لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين، أمّا بعد، فحيّهلا، فإنّ النّاس ينتظرونك، ولا رأي لهم في غيرك، فالعجَل العجَل؛ والسلام عليك.

وكتب شَبث بن ربعيّ وحجّار بن أبجر ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رُوَيم وعزرة بن قيس وعَمرو بن الحجّاج الزُّبيديّ ومحمّد بن عُمير التّميميّ:

أمّا بعد، فقد اخضرّ الجَناب، وأينعت الثّمار، وطمَّت الجِمام، فإذا شئت فاقدم على جندٍ لك مجنّد؛ والسلام عليك.

وتلاقت الرسُل كلّها عنده، فقرأ الكتب، وسأل الرسل عن أمر الناس، ثمّ كتب مع

هانیء بن هانیء السَّبیعِيّ وسعید بن عبدالله الحنفي، وكانا آخر الرّسل:

«بسم الله الرّحمن الرّحیم. من حسین ابن علي إلى الملإ من المؤمنین والمسلمین؛ أمّا بعد، فإن هانئاً وسعیداً قدِما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليَّ من رسلكم، وقد فهمت كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جُلِّكم: إنه لیس علینا إمام، فأقبل لعلّ الله أن یجمعنا بك على الهدى والحقّ. وقد بعثت إلیكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بیتي، وأمرته أن یكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأیكم، فإن كتب إليّ أنه قد أجمع رأي مَلِئكم وذوي الفضل والحِجَى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رُسُلكم، وقرأت في كتبكم، أقدم علیكم وشیكاً إن شاء الله. فلعمري ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله. والسلام».

ب - إرسال مسلم بن عقیل إلى الكوفة:

وبالفعل، أرسل الإمام الحسین مسلماً ابن عقیل إلى الكوفة، فسار ومعه دلیلان من قیس، فأقبلا به حتى ضلاّ الطریق، وعطشوا فمات الدلیلان من العطش بعد أن دلاّ مسلماً على طریق الماء. فسار حتى بلغه وكتب إلى الحسین یرید العودة.[1]

أبى الحسین علیه إلا المتابعة بمهمته، فسار مسلم حتى أتى الكوفة ونزل في دار المختار فأقبلت الشیعة تختلف إلیه، فكلّما اجتمعت إلیه جماعة قرأ لهم كتاب الإمام الحسین فیبكون ویعدونه من أنفسهم القتال ونصرة الإمام الحسین.[2]

وكان والي الكوفة النعمان بن بشیر قد علم بقدوم مسلم ومبایعة الشیعة له، لكنه لم یرد مقاتلته قائلاً:[3]

«اني لا أقاتل من لم یقاتلني...»

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٢٧٨.

(٢) ابن الأثیر، مرجع سابق، جزء٣ ، ص ٣٨٦.

(٣) ابن كثیر، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٩.

فما كان من عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرمي، حليف بني أمية، إلاّ ان كتب إلى يزيد يخبره بكلّ ما يجري في الكوفة. ومما قاله في كتابه:(١)

«إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفّذ أمرك ويعمل عملك في عدوّك، فإن النعمان رجل ضعيف أو هو يتضعف».

ثمّ كتب إلى يزيد عمارة بن الوليد بن عقبة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص في المعنى نفسه.

وهكذا عيّن يزيد عبيدالله بن زياد أميراً على الكوفة والبصرة وكلّفه بقتل مسلم بن عقيل أو نفيه، فكتب عبيدالله إلى أهل البصرة قائلاً: «إن أمير المؤمنين قد ولاّني الكوفة، وأنا غادٍ إليها بالغداة، وقد استخلفت عليكم أخي عثمان بن زياد، فإياكم الخلاف والإرجاف، فوالله لئن بلغني عن رجل منكم خلافٌ لأقتلنّه، وعريفه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا».(٢)

ثمّ دخل عبيدالله الكوفة فاعتقده الناس الحسين وراحوا يسلمون عليه كأنه الحسين فيقولون: «مرحبا بك يا ابن رسول الله»(٣) وهو لا يكلّمهم، حتى جاء دار النعمان.

وسمع مسلم بن عقيل بخبر عبيدالله، فخرج من دار المختار وجاء دار هانيء بن عروة الذي آواه فتقاطرت الشيعة إلى دار هانيء. ثمّ انتقل مسلم من دار هانيء إلى دار شريك ابن الأعور بعد أن بلغه أن عبيدالله يريده.(٤)

فلمّا علم مسلم برغبة عبيدالله جمع حوله أربعة آلاف من أهل الكوفة وسار بهم إلى دار ابن زياد بعد أن رتبهم ميمنة وميسرة وقلباً وحاصر الدار. كتب ابن كثير عن هذا الحصار:(٥)

«بادر عبيدالله فدخل القصر ومن معه وأغلقوا عليهم الباب. فلمّا انتهى مسلم إلى

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٨٧.

(٢) الطَبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٨٨.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٦١.

(٥) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ١٦٢.

باب القصر وقف بجيشه هناك، فأشرف أمراء القبائل الذين عند عبيدالله في القصر، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالانصراف، وتهدّدوهم وتوعّدوهم. وأخرج عبيدالله بعض الأمراء وأمرهم أن يركبوا في الكوفة ويخذلون الناس عن مسلم بن عقيل».

ولاحق عبيدالله مسلماً فألقي القبض عليه من قبل شرطة عبيدالله بن زياد.

نقل ابن كثير تفاصيل مقاتلة مسلم لشرطة الكوفة، فكتب:(١)

«وبعث ابن زياد عمرو بن حريث المخزومي، وكان صاحب شرطته ومعه عبدالرحمن ومحمّد بن الأشعث في سبعين أو ثمانين فارساً. فلم يشعر مسلم إلاّ وقد أحيط بالدار التي هو فيها، فدخلوا عليه فقام إليهم بالسيف فأخرجهم من الدار ثلاث مرّات، وأصيبت شفته العليا والسفلى. ثمّ جعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في أطناب القصب فضاق بهم ذرعاً، فخرج إليهم بسيفه فقاتلهم، فأعطاه عبد الرحمن الأمان فأمكنه من يده. وجاؤوا ببغلة فأركبوه عليها وسلبوا عنه سيفه فلم يبق يملك من نفسه شيئاً. فبكى عند ذلك وعرف أنه مقتول، فيئس من نفسه، وقال: إنا لله وإنّا إليه راجعون. فقال بعض من حوله: إن من يطلب مثل الذي تطلب لا يبكي إذ نزل به هذا. قال: أما والله لست أبكي على نفسي، ولكن أبكي على الحسين، وآل الحسين، إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكّة. ثمّ التفت إلى محمّد بن الأشعث فقال: إن استطعت أن تبعث إلى الحسين على لساني تأمره بالرجوع فافعل. فبعث محمّد بن الأشعث إلى الحسين يأمره بالرجوع فلم يصدق الرسول في ذلك، وقال: كلّ ما حم الإله واقع».

أُحضِر مسلم أمام ابن زياد الذي قتله بعد أن طلب مسلم من عمر بن سعد بن أبي وقاص أن يرسل إلى الحسين بأن لا يكمل طريقه إلى الكوفة.

وهكذا قتل رسول الإمام الحسين إلى الكوفة مسلم بن عقيل.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٦٣.

وقتل عبيدالله بن زياد مع مسلم أناساً كثيرين.

ج - مسير الإمـــــام الحسين إلى الكوفة:

نقل كلّ المؤرّخين العرب أخباراً عن النصائح التي وجهت للإمام الحسين لإقناعه بعدم المسير إلى الكوفة.

فالمسعودي كتب حول حواره مع عبدالله ابن عباس:[1]

«فلمّا همّ الحسين بالخروج إلى العراق أتاه ابن العبّاس فقال له: يا ابن عم، قد بلغني أنك تريد العراق، وأنهم أهل غدر، وإنما يدعونك للحرب، فلا تعجل. وإن أبيت إلاّ محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكّة فاشخص إلى اليمن، فإنها في عزلة، ولك فيها أنصار وإخوان، فأقم بها وبث دعاتك، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق فيخرجوا أميرهم. فان قووا على ذلك ونفوه عنها، ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم، وما أنا لغدرهم بآمن. وإن لم يفعلوا أقمت بمكانك إلى أن يأتي الله بأمره، فإن فيها حصوناً وشعابا.

فقال الحسين: يا ابن عم، إنّي لأعلم أنك لي ناصح وعليَّ شفيق. ولكن مسلم بن عقيل كتب إليّ باجتماع أهل المصر على بيعتي ونصرتي، وقد أجمعت على المسير إليهم.

قال: إنّهم من خبرت وجربت وهم أصحاب أبيك وأخيك وقتلتك غداً مع أميرهم. إنك لو قد خرجت فبلغ ابن زياد خروجك استنفرهم إليك، وكان الذين كتبوا إليك أشد من عدوّك. فإن عصيتني وأبيت إلاّ الخروج إلى الكوفة فلا تُخرجنّ نساءك وولدك معك، فوالله اني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه.

فكان الذي ردّ عليه: لأن أقتل والله بمكان كذا أحب إليّ من أن أستحل بمكّة.

فيئس ابن عباس منه».

ابن الأثير، من جهته، نقل رواية عن نصيحة رجل آخر، فكتب:[2]

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، جزء ٣، ص ٦٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٩٩.

«قيل: لمّا أراد الحسين المسير إلى الكوفة بكتب أهل العراق إليه أتاه عمر بن عبدالرّحمن بن الحارث بن هشام وهو بمكّة فقال له: إنّي أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحةً لك، فإن كنت ترى أنّك مستنصحي قلتُها وأدَّيت ما عليّ من الحق فيها. وإن ظننت أنّك لا مستنصحي كففت عما أريد. فقال له: قُل فوالله ما أستَغشك وما أظنُّك بشيءٍ من الهوى.

قال له: قد بلغني أنّك تريد العراق، وإنّي مشفقٌ عليك. إنّك تأتي بلداً فيه عمّاله، وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال. وإنّما الناس عبيد الدينار والدّرهم فلا آمن عليك أن يقاتلك مَن وعدك نصرَه ومَن أنت أحبّ إليه ممّن يقاتلك معه. فقال له الحسين: جزاك الله خيراً يا ابن عم. فقد علمت أنّك مشيت بنصح، وتكلّمت بعقل، ومهما يُقض مِن أمرٍ يكن أخذتُ برأيك أو تركته. فأنت عندي أحمد مشير، وأنصح ناصح».

أمّا ابن خلدون فكتب أيضاً عن رجل آخر:(١)

«لمّا خرج الحسين إلى مكّة لقيه عبدالله بن مطيع وسأله «أين تريد؟» فقال «مكّة! واستخير الله فيما بعد»، فنصحه أن لا يقرب الكوفة، وذكّره قتلهم أباه وخذلانهم أخاه، وان يقيم بمكّة لا يفارق الحرم حتى يتداعى إليه الناس».

ابن كثير أيضاً أورد أن الناس أشفقوا عليه من الخروج إلى الكوفة، وحذروه منه. كتب ابن كثير:(٢)

«لمّا تواترت(٣) الكتب إلى الحسين من جهة أهل العراق وتكرّرت الرّسل بينهم وبينه وجاءه كتاب مسلم بن عقيل بالقدوم عليه بأهله، ثمّ وقع في غبون ذلك ما وقع من قتل مسلم بن عقيل، والحسين لا يعلم بشيء من ذلك، بل قد عزم على المسير إليهم والقدوم عليهم، فاتفق خروجه من مكّة أيّام التروية قبل مقتل مسلم بيوم

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٧.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٦٦.

(٣) توارت: تتابعت.

واحـد، فـإن مسـلمـاً قـتـل يـوم عـرفـة. ولّما استشعر الـناس خروجه أشفقوا عليه من ذلك، وحذّروه منه، وأشار عليه ذوو الرأي مـنـهـم والمحبّة لـه بعدم الخروج إلى العـراق، وأمروه بالمقام بمكّة، وذكروا ما جرى لأبيه وأخيـه معـهـم. قال سفيان بن عيينة عن إبـراهـيـم بـن مـيسـرة عـن طـاوس عـن ابـن عباس. قال: استشارني الحسين بن علي في الخروج فقلت: لولا أن يزري[1] بي وبك الناس لنشبت يدي في رأسك فلم أتركك تذهب. فكان الذي ردّ عليّ أن قال: لأن أقتل في مكان كذا وكذا أحبّ إليّ من أن أقتل بمكّة».

كما ذكر ابن كثير تشجيع ابن الزبير الحسين عـلـى الخروج مـن مكّـة ليسـتقـلّ بـهـا، وهـذا مـا حصـل فـعـلاً. كـتـب ابـن كثير:[2]

«ودخل ابن الزبير فقال له: ما أدري ما تركنا لهؤلاء القوم ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم. أخبرني ما تريد أن تصـنـع؟ فـقـال الحسين: والله لـقـد حـدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إليّ شيعتي بها وأشرافها بالقدوم عليهم وأستخير الله. فقال ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها. فلمّا خرج من عنده قال الحسين: قد علم ابن الزبير أنه ليس له من الأمر معي شيء، وأن الناس لم يعدلوا بي غيري، فود أني خرجت لتخلو له».

وهـكـذا خـرج الإمـام الحسين مـن مـكّـة قاصداً الكوفة مع عائلته وأصحابه، فاعترضه عـمـرو بـن سـعـيـد بـن الـعـاص، وكـان والي الحجاز لـيـزيـد بـن مـعـاوية، وأراد منعه من مـتـابـعـة طـريـقـة. لـكـن الحسين أبـى وتـابـع مسيرته، فـلـمّـا بـلغ الصفاح لقيه الفرزدق الشاعر، فقال له الحسين: بَيِّن لي خبر الناس خلفك. قال: «الخبير سألت. قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أميّة، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء».[3]

ثمّ أدرك الحسين كتاب عبدالله بن جعفر مع ابـنـيـه عـون ومحمّـد، وفيـه «إني مشفق

(١) يزري: يستخف.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٦٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٠١.

عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك».[1]

رغم ذلك تابع الحسين مسيرته نحو الكوفة.

د - التحضير للمعركة:

لمّا بلغ عبيدالله بن زياد مسير الحسين إلى الكوفة بعث الحصين بن نمير التميمي صاحب شرطته فنزل القادسية ونظّم الخيل ما بين القادسية وخفان وما بين القادسية والقطقطانة وصولاً إلى جبل لعلع.

ولّما بلغ الإمام الحسين «الحاجر» كتب إلى أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداوي يعرّفهم بقدومه ويأمرهم بالجدّ في أمرهم. فلمّا وصل قيس إلى القادسيّة ألقى الحصين القبض عليه وأرسله إلى ابن زياد الذي قتله.

نقل الطبري رواية عن رغبة الحسين بالعودة ومنعه عن ذلك من قبل إخوة مسلم ابن عقيل، فكتب:[2]

«حتى إذا كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال، لقيَه الحُرّ بن يزيد التميمي، فقال له: أين تريد؟ قال: أريد هذا المِصر؛ قال له: ارجع فإني لم أدْع لك خلفي خيراً أرجوه. فهمّ أن يرجع، وكان معه إخوة مسلم بن عقيل، فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نُقتَل؛ فقال: لا خير في الحياة بعدكم! فسار فلقيته أوائِل خيل عُبيدالله. فلمّا رأى ذلك عدل إلى كربَلاء فأسند ظهره إلى قصباء وخلاّ كيلا يقاتل إلاّ من وجه واحد».

أكمل ابن الأثير رواية مسيرة الحسين فكتب:[3]

«ثمّ ارتحلوا فانتهوا إلى زبالة، وكان لا يمرّ بماء[4] إلاّ أتبعه مَن عليه، حتى انتهى إلى زبالة فأتاه خبر مَقتل أخيه من الرّضاعة «عبدالله بن بقطر»، وكان سرحه إلى مسلم ابن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله فأخذته خَيل الحصين فسيّره من القادسيّة

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، جزء ٣، ص ٤٠٢.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٩٨.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.
(٤) أي بأهل ماء.

إلى ابن زياد فقال له: اصعد فَوق القصر والعن الكَذَّاب ابن الكذَّاب ثمّ انزل حتى أرى فيك رأيي. فصعد فأعلم الناس بقدوم الحسين، ولعن ابن زياد وأباه، فألقاه من القصر فتكسّرت عظامه وبقي به رَمَق. فأتاه رجل يقال له: عبد الملك بن عمير اللخميّ فذبحه. فلمّا عيب ذلك عليه قال: إنّما أردت أن أُريحه. قال بعضهم: لم يكن الذي ذبحه عبد الملك بن عمير ولكنه رجل يشبه عبد الملك.

فلمّا أتى الحسين خبر قتل أخيه بالرّضاعة، ومسلم بن عقيل أعلم الناس ذلك وقال: قد خذلنا شيعَتُنا فمن أحبّ أن ينصرف فلينصرف ليس عليه مِنّا ذِمام. فتفرّقوا يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من مكّة. وإنّما فعل ذلك لأنّه عَلِم أنّ الأعراب ظنّوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله فأراد أن يعلموا على ما يُقدمون عليه.

ثمّ سار حتى نزل بطن العقبة.فلقيَه رجل من العرب فقال له: أنشدك الله لما انصرفت فوالله ما تقدم إلاّ على الأسنة وحدّ السيوف. إنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كَفُوك مؤنة القتال ووطّأوا لك الأشياء فقدِمت عليهم لكان ذلك رأياً، فأما على هذه الحال التي تذكرها فلا أرى [لك] أن تفعل. فقال: إنّه لا يخفى عليّ ما ذكرت ولكنّ والله عزّ وجلّ لا يغلب على أمره. ثمّ ارتحل منها».

هـ - المعركة:

ونقل ابن كثير ملاقاة جيش الكوفة، الذي أرسله عبيدالله بن زياد، للإمام الحسين ومن معه، فكتب:[١]

«حدّثنا أبو بكر الحميدي عن رجل من قومه: قال: كنت في الجيش الذي بعثهم ابن زياد إلى الحسين، وكانوا أربعة الاف يريدون قتال الديلم، فعينهم ابن زياد وصرفهم إلى قتال الحسين. فلقيت حسيناً فرأيته أسود الرأس واللّحية، فقلت له: السلام عليك أبا عبدالله، فقال: وعليك السلام - وكانت فيه غنة[٢] - فقال: لقد باتت فيكم سلّة منذ الليلة - يعني سرافاً - قال شهاب: فحدثت

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٧٧.

(٢) الغنة: جريان الكلام.

به زيد ابن علي فأعجبه وكانت فيه غنة - قال سفيان ابن عيينة: وهي في الحسينيين.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدّثني حجاج بن محمّد عن أبي معشر عن بعض مشيخته. قال: قال الحسين حين نزلوا كربلاء: ما اسم هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: كرب وبلاء. وبعث عبيدالله بن زياد عمر بن سعد لقتالهم، فقال له الحسين: يا عمر اختر لي إحدى ثلاث خصال، إما أن تتركني أرجع كما جئت، فإن أبيت هذه فسيِّرني إلى يزيد فأضع يدي في يده فيحكم فيّ ما رأى، فإن أبيت هذه فسيرني إلى الترك فأقاتلهم حتى أموت. فأرسل إلى ابن زياد بذلك، فهمّ أن يسيره إلى يزيد، فقال شمر ابن ذي الجوشن: لا! إلاّ أن ينزل على حكمك. فأرسل إلى الحسين بذلك فقال الحسين: والله لا أفعل. وأبطأ عمر عن قتاله فأرسل ابن زياد شمر بن ذي الجوشن، وقال له: إن تقدم عمر فقاتل وإلا فاقتله وكن [أنت مكانه]، فقد وليتك الإمرة. وكان مع عمر قريب من ثلاثين رجلاً من أعيان أهل الكوفة، فقالوا له: يعرض عليكم ابن بنت رسول الله ﷺ ثلاث خصال فلا تقبلوا منها شيئاً؟ فتحوّلوا مع الحسين يقاتلون معه.

وقال أبو زرعة: حدّثنا سعيد بن سليمان ثنا عباد بن العوام عن حصين. قال: أدركت من مقتل الحسين قال: فحدثني سعد بن عبيدة قال: فرأيت الحسين وعليه جبة برود، ورماه رجل يقال له عمرو بن خالد الطهوي بسهم، فنظرت إلى السهم معلقاً بجبته».

أكمل الطبري رواية مقتل الحسين فكتب:(1)

«فلمّا أبوا عليه رجع إلى مصافه، وإني لأنظر إليهم، وإنهم لقريب من مائة رجل، فيهم لصُلب علي بن أبي طالب عليه السلام خمسة، ومن بني هاشم ستة عشر، ورجل من بني سُلَيم حليف لهم، ورجل من بني كنانة حليف لهم، وابن عمر بن زياد.

قال: وحدّثني سعد بن عبيدة، قال: إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد، إذ أتاه رجل فسارّه وقال له: قد بعث إليك ابن زياد جُوَيرية بن بدر التميميّ، وأمره إن لم تقاتل

---

(1) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٣٠٠.

القوم أن يضرب عنقك. قال: فوثب إلى فرسه فركبه، ثمّ دعا سلاحه فلبسه، وإنه على فرسه، فنهض بالناس إليهم فقاتلوهم، فجيء برأس الحسين إلى ابن زياد، فوضع بين يديه، فجعل ينكت بقضيبه، ويقول: إنّ أبا عبدالله قد كان شمِط. قال: وجيء بنسائه وبناته وأهله، وكان أحسن شيء صنعه أن أمر لهنّ بمنزل في مكان معتزل، وأجرى عليهنّ رزقاً، وأمر لهنّ بنفقة وكسوة. قال: فانطلق غلامان منهم لعبدالله بن جعفر - أو ابن ابن جعفر - فأتيا رجلاً من طيّىء فلجأ إليه، فضرب أعناقهما، وجاء برؤوسهما حتى وضعهما بين يدي ابن زياد؛ قال: فهمّ بضرب عنقه، وأمر بداره فهدمت.

قال: وحدّثني مولًى لمعاوية بن أبي سُفيان قال: لمّا أُتِيَ يزيد برأس الحسين فوضع بين يديه، قال: رأيته يبكي، وقال: لو كان بينه وبينه رحِم ما فعل هذا.

قال حصين: فلمّا قتِل الحسين قلنا: هذا الذي كنا نتحدّث. قال: وكنت بعد ذلك إذا مررت بذلك المكان أسير ولا أركض.

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: حدّثني علي بن محمّد، عن جعفر بن سليمان الضّبَعيّ قال: قال الحسين: والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلَقة من جَوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فَرَم الأمّة. فقدِمَ للعراق فقُتِل بنينَوى يوم عاشوراء سنة إحدى وستين.

قال الحارث: قال ابن سعد: أخبرنا محمّد بن عمر، قال: قُتل الحسين بن علي عليه السّلام في صفر سنة إحدى وستين وهو يومئذ ابن خمس وخمسين».

كما أورد المسعودي لائحة بالذين استشهدوا مع الإمام الحسين فكتب:[1]

«ثمّ سار حتى لقي خيل عبيدالله بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبي وقاص، فعدل إلى كربلاء، وهو في مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة رجل.

فلمّا كثرت العساكر على الحسين أيقن أنه لا محيص له فقال: اللهمّ احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا ثمّ هم يقتلوننا.

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٧٥ - ٧٧.

فلم يزل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه، وكان الذي تولّى قتله رجل من مذبح واحتزّ رأسه، وانطلق به إلى ابن زياد.

فبعث به ابن زياد إلى يزيد بن معاوية ومعه الرأس، فدخل إلى يزيد وعنده أبو برزة الأسلمي فوضع الرأس بين يديه، فأقبل ينكت بالقضيب فيه.

فقال أبو برزة: ارفع قضيبك فطالما والله ما رأيت رسول الله ﷺ يضع فمه على فمه يلثمه.

من قتل مع الحسين؟

وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر وحاربه وتولّى قتله من أهل الكوفة خاصّة، لم يحضرهم شامي، وكان جميع من قتل مع الحسين في يوم عاشوراء بكربلاء سبعة وثمانين، ومنهم ابنه علي بن الحسين الأكبر.

وقتل من ولد أخيه الحسن بن علي: عبدالله بن الحسن، والقاسم بن الحسن وأبو بكر بن الحسن.

ومن إخوته العبّاس بن علي، وعبدالله بن علي، وجعفر بن علي، وعثمان بن علي، ومحمّد بن علي.

ومن ولد جعفر بن أبي طالب: محمّد بن عبدالله بن جعفر، وعون بن عبدالله بن جعفر.

ومن ولد عقيل بن أبي طالب: عبدالله بن عقيل، وعبدالله بن مسلم بن عقيل.

وذلك لعشر خلون من المحرم سنة إحدى وستين.

وقتل الحسين وهو ابن خمس وخمسين سنة، وقيل: ابن تسع وخمسين سنة، وقيل غير ذلك.

ووجد بالحسين يوم قتل ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة، ضرب زرعة ابن شريك التميمي كفّه اليسرى، وطعنه سنان بن أنس النخعي، ثمّ نزل فاحتز رأسه.

وقتل معه من الأنصار أربعة، وباقي من قتل معه من أصحابه - على ما قدمنا من العدّة - من سائر العرب».

أمّا عن قتال اليوم الأخير وتعبئة الجيشين للقتال في يوم عاشوراء، فان أفضل من وصفها كان ابن كثير.(١)

---

(١) انظر ملحق رقم ١.

و - الدّروس والعبر والنتائج:

١ - صحّ ما توقّعه معاوية من رفض الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة، الأمر الذي أدى إلى نتيجتين:

الأولى: وقوع معركة كربلاء ومقتل الحسين وانقسام المسلمين إلى عالَمَيْن، عالم السنّة وعالم الشيعة. قاد العالم السنّي الخلفاء الذين تناوبوا على الخلافتين الأمويّة والعبّاسيّة، في ما دأب الشيعة على القيام بثورات متتالية على الحكمين الأموي والعبّاسي مطالبين بحقّهم في الخلافة.

وقد تمكّن الشيعة من إقامة دول قوية في الشرق وشمال افريقيا والأندلس توّجت بقيام الخلافة الفاطميّة التي لعبت دوراً عسكرياً مهمّاً في شمال أفريقيا ومصر وحوض البحر الأبيض المتوسّط، وفي الصراع ضد الفرنجة في الغرب والشرق.

الثانية: قيام ثورة ابن الزبير في مكّة المكرّمة التي هزّت دعائم الحكم الأموي ودامت نيفاً وثلاثين سنة، وجرى خلالها قصف مكّة والكعبة المكرّمتين بالمنجنيق بأمر من قائد الجيش الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي.

وهنا لا بدّ من السؤال: لو بايع الحسين ابن علي يزيداً بن معاوية، فهل كان الانقسام سيقع في العالم الإسلامي؟

ربّما كلا، إذ إن الثورات التي حصلت بعد ثورة الإمام الحسين لم تعمل للانشقاق الكبير في هذا العالم. فقيام الشيعة وثوراتهم التي قمعت بعنف من قبل الأمويين، جاءت بغالبيتها رداً على استشهاد الإمام الحسين في كربلاء.

٢ - يرى المؤرّخون أن موقف أهل الكوفة من الإمام الحسين وحماسهم في سبيل نصرة قضيته وكتبهم إليه، هي التي دفعته إلى الخروج من مكّة المكرّمة والتوجّه إلى العراق. لكن أهل الكوفة عادوا وغدروا به وامتنعوا عن نصرته ومؤازرته في قتاله ضد والي المدينة.

فالإمام الحسين خرج من مكّة رغم النصائح العديدة التي وجهت إليه بعدم خروجه منها. فلو أنه بقي في مكّة، لكانت الأمور قد تبدّلت في الحجاز حيث كان عبدالله بن الزبير يشجعه على الانتقال إلى العراق كي تخلو له الساحة فيعلن ثورته الكبرى على الحكم الأموي.

٣ - رغم الكتب العديدة التي أرسلت إليه من زعماء الشيعة في الكوفة، بقي الإمام الحسين على حذره ولم ينتقل بنفسه إلى العراق، بل أرسل إليه ابن عمّه مسلم بن عقيل لاستطلاع حال المدينة وأهلها، وفي هذا تصرّف حكيم. إلاّ انه عاد وترك مكّة وخرج إلى العراق قبل وصول أخبار ابن عقيل إليه.

نقل ابن كثير أن ابن عقيل، وبعد توقيفه من قبل والي الكوفة، أرسل رسولاً إلى الإمام الحسين يحثّه على العودة إلى الحجاز. لكن الإمام لم يقبل ورضي بحكم الله.

وهكذا، تمرّ في تاريخ الشعوب أحداث تغيّر مجرى هذا التاريخ في لحظات قليلة. فماذا لو أن الإمام الحسين كان قد قبل وعاد إلى الحجاز؟

وماذا لو أن عبيدالله بن زياد لم يأمر بقتله؟

ممّا لا شكّ فيه أن الانشقاق الكبير الذي حصل في العالم الإسلامي بعد مأساة كربلاء أدى إلى إضعافه وتشتت قواه وقيام صراع طويل بين مذاهبه لم يكن لمصلحته ولا لمصلحة الدولة الأموية. كما لم يكن لمصلحة الدولة العباسيّة التي قامت ثورات شيعيّة عدّة بوجهها ساهمت في تأخير مسيرتها الجهاديّة وإضعاف قوّتها، ولاحقاً في تحكّم الضباط الأتراك والبويهيين والسلاجقة والزنكيين بأمور الخلافة.

٤ - أما الخليفة يزيد بن معاوية، فلما بلغه تردّد والي الكوفة النعمان بن بشير في قتال ابن عقيل، استبدله بوالٍ آخر مصمم على الصراع ضدّ الشيعة كما سبق وفعل والده، هو عبيدالله بن زياد. لقد تشدّد عبيدالله في معاملة الحسين خلافاً لرأي الخليفة الذي كان ربّما يفضّل بقاءه على قيد الحياة، كما ذكر المؤرّخون العرب الذين عالجوا هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي.

٥ - كان بإمكان الإمام الحسين البقاء في مكّة والاعتصام بها، أو عدم اصطحاب أهله معه كما أشار عبدالله بن عبّاس، أو التوجّه إلى اليمن حيث ينضمّ إليه أنصاره، فإن تمكّن أهل الكوفة من هزيمة واليها، يعود ويقصدها.

فهل ان نصيحة عبدالله بن الزبير هي التي دفعته إلى الخروج من مكّة؟ أو ربما أنه اقتنع بعدم جدوى البقاء في الحجاز، إذ إن الأمويين سيقصدون قتاله هناك؟

أو ربّما لاقتناعه بحكم الله وقدره؟

أو ربّما لكلّ ذلك؟

فهو، وأثناء توجّهه إلى الكوفة، لقيه واليها الأموي عمر بن سعيد بن العاص ونصحه بعدم المتابعة، فرفض. كما وجّهت إليه نصائح مماثلة خلال الطريق من قبل الشاعر الفرزدق وعبدالله بن جعفر.

لكنّه، وعندما بلغه مقتل مسلم بن عقيل، أراد العودة وفق الطبري، فمنعه إخوة مسلم، فامتنع. ثمّ سرّح من أراد من مرافقيه بعد أن تأكّد من خيانة أهل الكوفة.

٦ - طبّق الإمام الحسين، أثناء القتال في كربلاء، مبادىء الحرب، فقسم جيشه الصغير بين ميمنة وميسرة، وجعل النساء وراء ظهور المقاتلين، وحفر خندقاً وراء مقاتليه ووضع فيه حطباً وخشباً وأضرم فيه النار كي لا يتمكّن العدو من مهاجمته من الخلف.

وهكذا أحسن في تطبيق مبدأ الحرب الثاني، أي حرّية العمل.

أمّا مبدأ الحرب الأوّل أي نسبية الأهداف للوسائل، فكان يميل بشكل واضح إلى جيش خصمه الذي يفوق جيشه بعشرات الأضعاف.

٧ - من الناحية النفسية والمعنويّة، حاول الإمام دفع أهل الكوفة للالتحاق به وترك جيش ابن زياد. وكان هؤلاء من الذين سبق وكتبوا إليه ودعوه إلى مدينتهم. وبالفعل، تحوّل إلى جيشه حوالى ثلاثين رجلاً فقط، فبقيت الكفّة راجحة جداً إلى جهة الجيش الأموي.

وفي المبارزات الفرديّة، رجحت كفّة مقاتلي الإمام الحسين نظراً لحماسهم وشدّة حوافزهم في وقت كان جيش عمر بن سعد في وضع لا يحسد عليه إذ انه يقاتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وينقص مقاتليه الحماس، باستثناء بعضهم كعمر بن سعد وشمّر بن ذي الجوشن الذي لعب دوراً كبيراً في وقوع المأساة.

أخيراً، أشار بعض أخصاء عمر بعدم المتابعة بالمبارزات الفرديّة وإصدار الأمر للجيش للقيام بهجوم عام حيث تضيع المسؤوليّة عن مقتل أحد أحفاد النبيّ ﷺ وأهل بيته.

وبالفعل، مكث الحسين نهاراً كاملاً وحده لا يقصده أحد إلاّ رجع عنه ولم يقاتله تهيّباً من نسبه ومن قرابته لرسول الله ﷺ. إنما، وأمام إصرار شمّر على جنوده، أقدموا على قتل الإمام الحسين (رضي الله عنه).

ملحق رقم ١

تفاصيل القتال في كربلاء

كتب ابن كثير:[١]

«قالوا: فلمّا صلّى عمر بن سعد الصبح بأصحابه يوم الجمعة وقيل يوم السبت - وكان يوم عاشوراء - انتصب للقتال، وصلّى الحسين أيضاً بأصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون رجلاً. ثمّ انصرف فصفّهم فجعل على ميمنته زهير بن القين، وعلى الميسرة حبيب بن مظاهر، وأعطى رايته العبّاس بن علي أخاه. وجعلوا البيوت بما فيها من الحرم وراء ظهورهم، وقد أمر الحسين من الليل فحفروا وراء بيوتهم خندقاً وقذفوا فيه حطباً وخشباً وقصباً، ثمّ أضرمت فيه النار لئلاّ يخلص أحد إلى بيوتهم من ورائها. وجعل عمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى الميسرة شمر ابن ذي الجوشن - واسم ذي الجوشن شرحبيل بن الأعور بن عمرو بن معاوية من بني الضباب بن كلاب - وعلى الخيل عزره بن قيس الأحمسي، وعلى الرجالة شبث بن ربعي، وأعطى الراية لوردان مولاه.

ثمّ ركب الحسين فرسه وأخذ مصحفاً فوضعه بين يديه، ثمّ استقبل القوم رافعاً يديه يدعو: «اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب ورجائي في كلّ شدّة، إلى آخره...» ثمّ شرع يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدرته وشرفه... الخ.

ثمّ نادى: «يا شبث بن ربعي، يا حجار بن أبجر، يا قيس ابن الأشعث، يا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا لي انه قد أينعت

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٨٥ ١٩٤.

الثمار واخضرّ الجنان[1]، فاقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة؟» قالوا له: «لم نفعل»، ....

قال: واقبلوا يزحفون نحوه وقد تحيّز إلى جيش الحسين من أولئك طائفة قريبة من ثلاثين فارس فيما قيل...

قال: فتقدّم عمر بن سعد وقال لمولاه: «يا دريد ادنِ رايتك»، فأدناها. ثمّ شمّر عمر عن ساعده ورمى بسهم وقال: اشهدوا أني أوّل من رمى القوم، قال: فترامى الناس بالنبال...

قال: وكثرت المبارزة يومئذٍ بين الفريقين والنصر في ذلك لأصحاب الحسين لقوّة بأسهم وانهم مستميتون لا عاصم لهم إلاّ سيوفهم. فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة، وحمل عمرو بن الحجاج أمير ميمنة جيش ابن زياد... وقد قتل في هذه الحملة مسلم بن عوسجة، وكان أول من قتل من أصحاب الحسين...

قالوا: ثمّ حمل شمّر بن ذي الجوشن بالميسرة وقصدوا نحو الحسين فدافعت عنه الفرسان من أصحابه دفاعاً عظيماً، فأرسلوا يطلبون من عمر بن سعد طائفة من الرماة الرجالة، فبعث إليهم نحواً من خمسمائة، فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلّها حتى بقي جميعهم رجالة.

ويقال ان عمر بن سعد أمر بتقويض تلك الأبنية التي تمنع من القتال من أتى ناحيتها، فجعل أصحاب الحسين يقتلون من يتعاطى ذلك، فأمر بتحريقها....

وجاء شمّر بن ذي الجوشن إلى فسطاط الحسين فطعنه برمحه، (أي الفسطاط)، ... وشدّ زهير بن القين في رجال من أصحاب الحسين على شمر فأزالوه عن موقفه...

ثمّ صلّى الحسين بأصحابه الظهر صلاة الخوف، ثمّ اقتتلوا بعدها قتالاً شديداً، ودافع عن الحسين صناديد الرجال...

ثمّ أتى شمّر فحمل على أصحاب الحسين وتكاثر معه الناس حتى كادوا أن يصلوا إلى الحسين. فلما رأى أصحاب الحسين أنهم قد كثروا عليهم، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا الحسين ولا أنفسهم، تنافسوا أن يُقتلوا بين يديه...

---

(١) الجنان: الغناء.

ثمّ أتاه أصحابه مثنى وفرادى يقاتلون بين يديه وهو يدعو لهم ويقول: «جزاكم الله أحسن جزاء المتقين»، فجعلوا يسلّمون على الحسين ويقاتلون حتى يُقتلوا...

ثمّ قاتل أصحاب الحسين بين يديه حتى تفانوا ولم يبق معه أحد إلاّ سويد بن عمرو ابن أبي مطاع الخثعمي. وكان أوّل قتيل قتل من أهل الحسين من بني أبي طالب علي الأكبر بن الحسين بن علي، وأمه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي...

قالوا: فمكث الحسين نهاراً طويلاً وحده لا يأتي أحد إليه إلاّ رجع عنه، لا يحب أن يلي قتله، حتى جاءه رجل من بني بدّاء يقال له مالك بن البشير، فضرب الحسين ابن علي على رأسه بالسيف فأدمى رأسه...

قال: ثمّ إن الحسين أعيا فقعد على باب فسطاطه... وقد اشتدّ عطش الحسين فحاول أن يصل إلى أن يشرب من ماء الفرات فما قدر، بل مانعوه عنه. فخلص إلى شربة منه، فرماه رجل يقال له حصين بن تميم بسهم في حنكه فأثبته، فانتزعه الحسين من حنكه ففار الدم فتلقّاه بيديه ثمّ رفعهما إلى السماء وهما مملوءتان دماً، ثمّ رمى به إلى السماء وقال: «اللهمّ احصهم عدداً واقتلهم بدداً».(١)

ثمّ ان شمّر بن ذي الجوشن أقبل في نحو من عشرة من رجال الكوفة قبل منزل الحسين الذي فيه ثقله وعياله، فمشى نحوهم فحالوا بينه وبين رحله، فقال لهم الحسين: «ويلكم... امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالهم». فقال له شمر ذلك لك يا ابن فاطمة. ثمّ أحاطوا به فجعل شمّر يحرضهم على قتله...

ثمّ جاء شمر ومعه جماعة من الشجعان حتى أحاطوا بالحسين وهو عند فسطاطه ولم يبقَ معه أحد يحول بينهم وبينه...

ثمّ حمل على الحسين الرجال من كلّ جانب وهو يجول فيهم بالسيف يميناً وشمالاً، فيتنافرون عنه كتنافر المعزى عن السبع، .... ثمّ جعل لا يقدم أحد على قتله، حتى نادى شمر: ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل؟ فاقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملت الرجال من كلّ جانب على الحسين وضربه

---

(١) بدداً: متباعدين.

زرعة بن شريك التميمي على كتفه اليسرى، وحزب على عاتقه، ثمّ انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو. ثمّ جاء إليه سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع، ثمّ نزل فذبحه وحز رأسه... وقيل ان الذي قتله شمر بن ذي الجوشن».

هكذا قتل الإمام الحسين (رضي الله عنه).

ملحق رقم ٢

سيرة الإمام الحسين بن علي[1] (رضي اللّه عنه)

«هو الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم أبو عبدالله القرشي الهاشمي، السبط الشهيد بكربلاء ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء وريحانته من الدنيا. ولد بعد أخيه الحسن، وكان مولد الحسن في سنة ثلاث من الهجرة. وقال بعضهم: إنما كان بينهما طهر واحد ومُدّة الحمل، ووُلد لخمس ليال خلون من شعبان سنة أربع. وقال قتادة: وُلد الحسين لست سنين وخمسة أشهر ونصف من التاريخ، وقتل يوم الجمعة يوم عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين، وله أربع وخمسون سنة وستة أشهر ونصف، رضي الله عنه. وروي عن النبيّ ﷺ أنه حنكه وتفل في فيه ودعا له وسمّاه حسيناً، وقد كان سماه أبوه قبل ذلك حرباً، وقيل جعفراً، وقيل: إنما سمّاه يوم سابعة وعق[2] عنه. وقال جماعة عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانىء عن عليّ رضي الله عنه قال: الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه به ما بين أسفل من ذلك. وقال الزبير ابن بكار: حدّثني محمّد الضحاك الحزامي، قال: كان وجه الحسن يشبه وجه رسول الله وكان جسد الحسين يشبه جسد رسول الله ﷺ. وروى محمّد بن سيرين وأخته حفصة، عن أنس، قال: كنت عند ابن زياد فجيء برأس الحسين فجعل ينكت بقضيب في أنفه ويقول: ما رأيت مثل هذا

---

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) عق - العقيقة: الشاة تذبح عند خلق شعر الولد.

حسناً. فقلت له: إنه كان من أشبههم برسول الله ﷺ. وقال سفيان: قلت لعبيدالله ابن أبي زياد: رأيت الحسين؟ قال: نعم أسود الرأس واللحية إلاّ شعرات ههنا في مقدم لحيته، فلا أدري أخضب وترك ذلك المكان تشبهاً برسول الله ﷺ، أو لم يكن شاب منه غير ذلك؟ وقال ابن جريج: سمعت عمر بن عطاء قال: رأيت الحسين بن علي يصبغ بالوشمة، أما هو فكان ابن ستين سنة، وكان رأسه ولحيته شديدي السواد. فأما الحديث الذي روي من طريقين ضعيفين؛ أن فاطمة سألت رسول الله ﷺ في مرض الموت أن يَنحَل وَلديها شيئاً فقال: «أمّا الحَسَن فَلَه هَيبَتِي وسُؤدَدِي، وأمَّا الحُسَين فلَه جُرأتِي وَجُودِي» فليس بصحيح، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكتب المعتبرة. وقد أدرك الحسين من حياة النبي ﷺ خمس سنين أو نحوها، وروى عنه أحاديث. وقال مسلم بن الحجاج: له رؤية من النبيّ ﷺ. وقد روى صالح بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال في الحسن بن علي: إنه تابعي ثقة، وهذا غريب فلأن يقول في الحسين إنه تابعي بطريق الأولى.

وسنذكر ما كان رسول الله ﷺ يُكرمهما به، وما كان يظهر من محبتهما والحنو عليهما. والمقصود أن الحسين عاصر رسول الله ﷺ وصحبه إلى أن توفي وهو عنه راض، ولكنه كان صغيراً. ثمّ كان الصدّيق يكرمه ويعظمه، وكذلك عمر وعثمان. وصحب إياه وروى عنه، وكان معه في مغازيه كلّها، في الجمل وصفين، وكان معظماً موقراً، ولم يزل في طاعة أبيه حتى قتل. فلمّا آلت الخلافة إلى أخيه وأراد أن يصالح شقّ ذلك عليه ولم يسدد رأي أخيه في ذلك، بل حثّه على قتال أهل الشام، فقال له أخوه: والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطبق عليك بابه حتى أفرغ من هذا الشأن ثمّ أخرجك. فلمّا رأى الحسين ذلك سكت وسلّم. فلمّا استقرّت الخلافة لمعاوية كان الحسين يتردّد إليه مع أخيه الحسن فيكرمهما معاوية إكراماً زائداً، ويقول لهما: مرحباً وأهلاً، ويعطيهما عطاءً جزيلاً. وقد أطلق لهما في يوم واحد مائتي ألف، وقال: خذاها وأنا ابن هند، والله لا يعطيكماها أحد قبلي ولا بعدي. فقال الحسين: والله لن تعطي أنت ولا أحد قبلك ولا بعدك رجلاً أفضل منه. ولما توفي الحسن

كان الحسين يفد إلى معاوية في كلّ عام فيعطيه ويكرمه، وقد كان في الجيش الذي غزا القسطنطينيّة مع ابن معاوية يزيد، في سنة إحدى وخمسين. ولمّا أخذت البيعة ليزيد في حياة معاوية كان الحسين ممن امتنع من مبايعته هو وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن عباس. ثمّ مات ابن أبي بكر وهو مصمّم على ذلك. فلمّا مات معاوية سنة ستين وبويع ليزيد، بايع ابن عمر وابن عباس، وصمّم على المخالفة الحسين وابن الزبير، وخرجا من المدينة فارّين إلى مكّة فأقاما بها. فعكف الناس على الحسين يفدون إليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، حين سمعوا بموت معاوية وخلافة يزيد. وأما ابن الزبير فإنه لزم مصلاه عند الكعبة، وجعل يتردّد في غبون ذلك إلى الحسين في جملة الناس، ولا يمكنه أن يتحرّك بشيء مما في نفسه مع وجود الحسين، لما يعلم من تعظيم الناس له وتقديمهم إياه عليه. غير أنه قد تعينت السرايا والبعوث إلى مكّة بسببه، ولكن أظفره الله بهم كما تقدّم ذلك آنفاً، فانقشعت السرايا عن مكّة مغلولين وانتصر عبدالله بن الزبير على من أراد هلاكه من اليزيديين، وضرب أخاه عمراً وسجنه واقتص منه وأهانه. وعظم شأن ابن الزبير عند ذلك ببلاد الحجاز، واشتهر أمره وبُعد صيته، ومع هذا كلّه ليس هو معظماً عند الناس مثل الحسين، بل الناس إنما ميلهم إلى الحسين لأنه السيّد الكبير، وابن بنت رسول الله ﷺ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلّها تناوئه».

القسم الثاني

الثورات ضدّ الحكم الأموي

الفصل الثالث
الثورات الشيعيّة في بداية الحكم الأموي

انتهى أوّل تحرّك معارض ضدّ الحكم الأموي في عهد الخليفة يزيد بن معاوية إلى الفشل. إلاّ أن الثورات ضدّ هذا الحكم ستتتابع رغم ذلك من جهات ثلاث.

أولاً - أولاد الصحابة، خاصّة عبدالله بن الزبير الذي استقلّ بمكّة ودامت ثورته أعواماً عديدة وهزّت دعائم الحكم الأموي وكادت أن تسقطه.

ثانياً - ثورات الشيعة التي دامت طوال الحكم الأموي، وكانت تهدأ أحياناً وتشتعل أحياناً أخرى، بدءاً بثورة التوّابين التي جاءت كأوّل ردّة فعل مباشرة قام بها شيعة الكوفة على ما حصل في كربلاء.

ثالثاً - ثورات الخوارج الذين رفضوا التحكيم ورفضوا خلافة معاوية ويزيد، والذين تحرّكوا في العراق والأقاليم الشرقية تحرّكات تختلف قوّة وضعفاً باختلاف وضع الخلافة الأموية.

في هذا الفصل سنتكلّم عن هذه الثورات بدءاً بثورة المدينة ضد الخليفة يزيد بن معاوية.

أولاً - ثورة المدينة ووقعة الحرّة

تمثل ثورة المدينة إحدى صُوَر الصراع بين الخلافة الأمويّة والأقاليم وخاصّة الحجاز. كما أنها ردّة فعل على انتقال الخلافة من الحجاز إلى الشام، وردة فعل أيضاً على مقتل الإمام الحسين بن علي. وهي كانت ثورة هدفها دكّ

أصول الحكم الأموي، وليس فقط إبدال خليفة بآخر. أما لماذا حصلت في عهد يزيد وليس في عهد معاوية، فلذلك أسباب عديدة أهمّها:

- قوّة شخصية معاوية وثبات حكمه في مقابل تزعزع حكم يزيد وميله إلى اللهو والشّعر والقيان.

- مقتل الإمام الحسين الذي يعتبر أهل الحجاز أنه كان خليفتهم وأنه كان يريد إبقاء الحكم في الحجاز.

- اعتماد معاوية مفهوم الوراثة الذي يرفضه أهل الحجاز ويريدون العودة إلى الشورى في اختيار الخلفاء.

وبالفعل، كانت جذور الثورة متأجّجة في نفوس أهل المدينة منذ معركة صفين، لكنها لم تنفجر إلاّ في السنة الثالثة والستين للهجرة.

أما الذريعة التي فجّرت الثورة فكانت ذهاب وفد من أهل المدينة، بأمر من عاملها، إلى دمشق لمقابلة يزيد. وضمّ الوفد بعض المؤيّدين لابن الزبير، وكان في غالبيّته من المعارضين للبيت الأموي. ورغم استقبال يزيد للوفد استقبالاً حسناً وإعطائهم الهدايا، فإن أفراده راحوا يشتمونه بعد عودتهم من دمشق ويظهرون عيوبه.[1]

وإثر عودة الوفد، عقد أهل المدينة مؤتمراً في المسجد، قرروا خلاله خلع يزيد ومبايعة أحد أعضاء الوفد عبدالله بن حنظلة. وقام الثوار بإخراج عامل يزيد على المدينة عثمان ابن محمّد بن أبي سفيان.[2]

كتب الطبري عن بداية الثورة ما يلي:[3]

«فمن ذلك ما كان من إخراج أهل المدينة عامل يزيد بن معاوية عثمان بن محمّد بن أبي سفيان من المدينة، وإظهارهم خلع يزيد ابن معاوية، وحصارهم من كان بها من بني أميّة. ذكر هشام بن محمّد، عن أبي مخنف، عن عبدالملك بن نوفل بن مساحق، عن حبيب بن كُرّة، أنّ أهل المدينة لمّا بايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد ابن معاوية، وثبوا على عثمان بن محمّد بن

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٤٩ - ٣٥١.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥٥.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٥٢.

أبي سفيان ومن بالمدينة من بني أميّة ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش، فكانوا نحواً من ألف رجل. فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم، فحاصرهم الناس فيها حصاراً ضعيفاً. قال: فدعت بنو أميّة حبيب بن كرّة، وكان الذي بعث إليه منهم مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان، وكان مروان هو يدبّر أمرهم. فأمّا عثمان بن محمّد بن أبي سفيان فإنّما كان غلاماً حَدَثاً لم يكن له رأي. قال عبدالملك ابن نوفل: فحدّثني حبيب بن كرة، قال: كنت مع مروان، فكتب معي هو وجماعة من بني أميّة كتاباً إلى يزيد بن معاوية، فأخذ الكتاب عبدالملك بن مروان حتى خرج معي إلى ثنيّة الوداع، فدفع إليَّ الكتاب وقال: قد أجّلتك اثنتي عشرة ليلةً ذاهباً واثنتي عشرة ليلةً مُقبِلاً، فوافِنِي لأربع وعشرين ليلة في هذا المكان تجدني إن شاء الله في هذه الساعة جالساً أنتظرك. وكان الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم: أمّا بعد، فإنه قد حُصرنا في دار مروان بن الحكم، ومُنعنا العذْب، ورُمينا بالجَبوب، فياغَوْثاه يا غَوْثاه!».

فلمّا وصل الكتاب إلى الخليفة يزيد سأل:[1]

«أما يكون في بني أميّة ومواليهم ألف رجل في المدينة؟

قيل له: بلى، والله وأكثر.

فقال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار؟

ثمّ أرسل الخليفة إلى عمرو بن سعيد بان يسير إلى المدينة لقمع ثورتها، فاعتذر عن إراقة دم أهل قريش. عاد الخليفة وعيّن عبيدالله بن زياد أميراً على الجيش المزمع إرساله إلى المدينة وكلّفه بمحاصرة ابن الزبير في مكّة فقال عبيدالله:[2]

«والله لا جمعتهما للفاسق. قتل ابن رسول الله، وغزو الكعبة».

ثمّ أرسل إليه يعتذر.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

فبعث يزيد إلى مسلم بن عقبة المرِّي وطلب منه أن يخرج بالناس إلى المدينة لنجدة بني أميّة، فنادى مسلم بالمسير إلى الحجاز وأمر المقاتلين أن يأخذوا عطاءهم ومعونة مائه دينار لكلّ منهم، فانتُدب لذلك اثنا عشر ألفاً.

نقل ابن الأثير رواية سير الجيش الأموي إلى المدينة وإخراج بني أميّة من المدينة من قبل الثوار، فكتب:[1]

«وسار الجيش وعليهم مسلم فقال له يزيد: إن حدث بك حدث فاستخلف الحصين بن نمير السكوني. وقال له: ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فكلّ ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند. فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر علي ابن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتاني كتابه. وقد كان مروان بن الحكم كلّم ابن عمر لما أخرج أهل المدينة عامل يزيد وبني أميّة في أن يغيب أهله عنده فلم يفعل. فكلم علي بن الحسين فقال: إن لي حرماً وحرمي يكون مع حرمك. فقال: أفعل. فبعث بامرأته وهي عائشة ابنة عثمان بن عفان وحرمه إلى علي ابن الحسين فخرج علي بحرمه وحرم مروان إلى ينبع. وقيل: بل أرسل حرم مروان وأرسل معهم ابنه عبدالله بن علي إلى الطائف. ولمّا سمع عبدالملك بن مروان أن يزيد قد سيّر الجنود إلى المدينة قال: ليت السماء وقعت على الأرض إعظاماً لذلك.

وأمّا مسلم فإنه أقبل بالجيش فبلغ أهل المدينة خبرهم فاشتدّ حصارهم لبني أميّة بدار مروان وقالوا: والله لا نكفّ عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه أن لا تبغونا غائلة ولا تدلوا لنا على عورة ولا تظاهروا علينا عدوّاً، فنكف عنكم ونخرجكم عنا. فعاهدوهم على ذلك فأخرجوهم من المدينة. وكان أهل المدينة قد جعلوا في كلّ منهل بينهم وبين الشام زقاً من قطران فأرسل الله السماء عليهم فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة. فلما أخرج أهل المدينة بني أميّة ساروا بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى». ثمّ انتقل مسلم إلى الحرّة.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

واستشار مسلم معاونية فأشاروا عليه أن يجيء القوم صباحاً من الشرق فتكون الشمس في أعينهم، فجاءهم من الشرق. ثمّ دعاهم وقال لهم:(١)

«ان أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل، وإني أكره إراقة دمائكم، وإني اؤجّلكم ثلاثاً، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه، وانصرفت عنكم، وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكّة، وإن أبيتم كنا قد اعذرنا إليكم».

وكان ذلك في ذي الحجة من سنة ثلاث وستين للهجرة.

رفض أهل المدينة الإنذار، وكانوا قد شقوا خندقاً في جانب المدينة ونزله جمع منهم. وقسّم أهل المدينة جندهم أربعة أرباع عليها عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف وعبدالله ابن مطيع ومعقل بن سنان الأشجعي، وأمير الجماعة عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري.(٢)

أمّا مسلم فقد نادى أهل الشام ان قاتلوا عن أميركم، فجعلوا لا يقصدون ربعاً من تلك الأرباع إلاّ هزموه. ثمّ وجّه مسلم فرسانه باتجاه عبدالله بن حنظلة ففشلوا أمامه. وحمل إبن حنظلة فكشفهم حتى وصلت فرسانه إلى مسلم الذي نادى بالرجال فقاتلوا قتالاً شديداً.

نقل الطبري تفاصيل قتال الحرّة، فكتب:(٣)

«قال هشام، عن أبي محنف: قال عبدالملك بن نوفل: وصمد مسلم بن عُقبة بجميع من معه، فأقبل من قِبل الحَرّة حتى ضرب فسطاطه على طريق الكوفة، ثمّ وجّه الخيل نحو ابن الغسيل. فحمل ابن الغسيل على الخيل في الرجال الذين معه حتى كشف الخيل، حتى انتهوا إلى مسلم بن عقبة، فنهض في وجوههم بالرّجال، وصاح بهم، فانصرفوا فقاتلوا قتالاً شديداً. ثمّ إن الفضل بن عَباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى عبدالله بن حنظلة الغسيل فقاتل في نحو من عشرين فارساً قتالاً شديداً حسناً. ثمّ قال لعبدالله: مُر من

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٥٤.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥٧ - ٤٥٨.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٥٥.

معك فارساً فليأتني فليقف معي، فإذا حملت فليحملوا، فوالله لاأنتهي حتى أبلغ مسلماً، فإمّا أن أقتله، وإما أن أقتل دونه. فقال عبدالله بن حنظلة لعبدالله بن الضحاك من بني عبدالأشهل من الأنصار: نادِ في الخيل فلتقف مع الفضل بن العباس، فنادى فيهم فجمعهم إلى الفضل. فلمّا اجتمعت الخيل إليه حمل على أهل الشام فانكشفوا، فقال لأصحابه: ألا ترونهم كُشفاً لئاماً! احملوا أخرى جُعلت فداكم! فوالله لئن عاينت أميرهم، لأقتلنه أو لأُقتلَّن دونه، إنّ صبر ساعة مُعقب سرور أبد، إنه ليس بعد لصبرنا إلاّ النصر. ثمّ حمل أصحابه معه فانفرجت خيل أهل الشام عن مسلم بن عقبة في نحو من خمسمائة راجل جُثاة على الرُّكب، مشرعي الأسنة نحو القوم. ومضى كما هو نحو رايته حتى يضرب رأس صاحب الراية، وإنّ عليه لمغفراً، فقطّ المغفر، وفلق هامته فخرّ ميتاً. فقال: خذها منّي وأنا ابن عبد المطلب! فظنّ أنه قَتَل مسلماً، فقال: قتلت طاغية القوم وربّ الكعبة. فقال مسلم: أخطأت استُك الحُفرة! وإنّما كان ذلك غلاماً له، يقال له: رومي، وكان شجاعاً. فأخذ مسلم رايته ونادى: يا أهل الشأم، أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يُعزّوا به نصر إمامهم! قبّح الله قتالكم منذ اليوم! ما أوجعه لقلبي، وأغيظه لنفسي، أما والله ما جزاؤكم عليه إلاّ تُحرَموا العطاء، وأن تجمّروا في أقاصي الثغور. شدّوا مع هذه الراية، ترّح الله وجوهكم إن لم تُعتِبوا! فمشى برايته، وشدّت تلك الرّجال أمام الراية، فصُرع الفضل بن عبّاس، فقُتل وما بينه وبين أطناب مسلم بن عقبة إلاّ نحو من عشر أذرع، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف، وقُتل معه إبراهيم بن نُعيم العدويّ، في رجال من أهل المدينة كثير».

ثمّ أخذ أهل الشام يرمون أهل المدينة بالنبال. ثمّ دنا المقاتلون من بعضهم فاقتتلوا أشدّ قتال. وأخذ ابن حنظلة يقدم بنيه واحداً واحداً حتى قتلوا أمامه، ثمّ قتل وقتل معه أخوه قبل أن ينهزم أهل المدينة وفيهم محمّد بن سعد بن أبي وقاص الذي أبلى بلاءًا حسناً.[1]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥٩.

وأباح مسلم المدينة ثلاثة أيام يقتل جنده فيها الناس ويأخذون المتاع والأموال.

نقل ابن الأثير رواية أخرى عن نهاية القتال، فكتب:(١)

«وقيل: إن مسلماً لما نزل بأهل المدينة خرج إليه أهلها بجموع كثيرة وهيئة حسنة، فهابهم أهل الشام وكرهوا أن يقاتلوهم. فلمّا رآهم مسلم، وكان شديد الوجع سبّهم وذمهم وحرّضهم، فقاتلوهم. فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا تكبيراً من خلفهم في جوف المدينة، وكان سببه أن بني حارثة أدخلوا أهل الشام المدينة فانهزم الناس، فكان من أصيب في الخندق أكثر ممن قتل. ودعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء. فمن امتنع من ذلك قتله، وطلب الأمان ليزيد بن عبدالله بن ربيعة بن الأسود، ولمحمّد ابن أبي الجهم بن حذيفة، ولمعقل بن سنان الأشجعي فأتى بهم بعد الوقعة بيوم فقال: بايعوا على الشرط. فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، فضرب أعناقهما. فقال مروان: سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا بأمان؟ فطعن بخاصرته بالقضيب فقال: وأنت والله لو قلت بمقالتهما لقتلتك».

الدروس والعبر:

١ - كانت حملة مسلم بن عقبة أوّل حملة على المدينة المنوّرة منذ فتح مكّة المكرّمة من قبل رسول الله ﷺ. وستتبع هذه الحملة حملة أكثر دمويّة على مكّة بقيادة الحجاج بن يوسف الذي قصف الكعبة بالمنجنيق.

٢ - أباح يزيد بن معاوية المدينة لجنده طيلة أيام ثلاث.

٣ - وفي قتال الحرّة، أحسن معاونو مسلم بالإشارة عليه ببدء المعركة فيما الشمس في أعين أعدائهم.

٤ - أما أهل المدينة فقد أحسنوا استعمال الأرض فشقّوا خندقاً ليحميهم من جيش مسلم، وقسّموا جيشهم إلى أربعة أقسام.

ردّاً على هذه الخطّة طبّق مسلم استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية،

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، جزء ٣، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

فهاجم كلّ قسم من جيش المدينة على حدة قبل أن ينتقل إلى القسم الثاني فانتصر في جميع هجماته.

ثانياً - ثورة التوّابين

كانت ثورة التوّابين أوّل ردّة فعل على مقتل الحسين بن علي، وذلك من قبل شيعة الكوفة الذين سبق وكتبوا إليه كي يتولّى أمورهم، فلمّا قدم إليهم تركوه لمصيره ولم ينصروه كما وعدوا بذلك. لذلك، وعندما بلغهم ما حصل في كربلاء، أعلنوا توبتهم وسمّوا أنفسهم بـ«التوّابين» وطالبوا بدم الإمام الحسين مؤكّدين أنه لا يغسل عنهم الجرم إلاّ قتل من قتله.

وتزعّم هذه الحركة خمسة من قادة الشيعة هم سليمان بن صرد الخزاعي وعبدالله بن سعد الازدي ورفاعة بن شداد البجلي وعبدالله بن وال التميمي والمسيب ابن نجبة الفزاري.[١]

وبدأت دعوة هؤلاء سرّاً بعد مقتل الإمام الحسين، فاجتمعوا في منزل سليمان ابن صرد، وكانوا من أفضل أصحاب علي، ومعهم جماعات من الشيعة. وتناوبوا على الكلام الواحد بعد الآخر مؤكّدين عزمهم على الأخذ بثأر الإمام الحسين مهما كلّف الأمر، وانتخبوا ابن صرد قائداً لثورتهم.[٢]

ثمّ أخذ التوّابون يتصلون بالناس ويحرضوهم على الانتقام للحسين والاستعداد للقتال. فلما توفي يزيد بن معاوية قرروا التحرّك فتوجّهوا أولاً إلى قبر الحسين ثمّ أخذوا طريق الشام.

وكانوا يهدفون من توجههم إلى الشام محاسبة النظام الأموي بكامله. أما والي الكوفة خلال هذه الحقبة فقد كان يتبع لعبدالله بن الزبير الثائر، هو بدوره، على الحكم الأموي. لذلك لم يتصدَّ والي الكوفة للحركة، بل شجعها بهدف استنفاد طاقة أعدائه الأمويين.[٣]

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١١١.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٩٠ - ٣٩١.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٣ ، ص ٤٨٩.

وكان في الكوفة أيضاً ثائر آخر هو المختار ابن أبي عبيد الثقفي الذي راح يبثّ دعوته بين أبناء الكوفة الذين لم يستجيبوا لها بل آثروا البقاء تحت قيادة التوابين، فراح المختار ينتظر كونه كان يرى في حركة التوابين قصر النظر وعدم التبصّر بالأمور.(١)

كتب ابن الأثير يصف حال الكوفة خلال هذه المرحلة:(٢)

«ثمّ إن أهل الكوفة أخرجوا عمرو بن حريث وبايعوا لابن الزبير، وسليمان وأصحابه يدعون الناس. فلمّا مضت ستة أشهر بعد هلاك يزيد قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة في النصف من رمضان، وقدم عبدالله ابن يزيد الأنصاري أميراً على الكوفة من قبل ابن الزبير لثمان بقين من رمضان، وقدم إبراهيم بن محمّد بن طلحة معه على خراج الكوفة. فأخذ المختار يدعو الناس إلى قتال قتلة الحسين ويقول: جئتكم من عند المهدي محمّد بن الحنفية وزيراً أميناً فرجع إليه طائفة من الشيعة وكان يقول: إنما يريد سليمان أن يخرج فيقتل نفسه - ومن معه وليس له بصرة بالحرب».

كما كتب ابن كثير عن الأعداد التي اجتمعت إلى سليمان بن صرد عندما خرج إلى النخيلة:(٣)

«فيما اجتمع إلى سليمان بن صرد نحو من سبعة عشر ألفاً، كلّهم يطلبون الأخذ بثأر الحسين ممن قتله. قال الواقدي: لما خرج الناس إلى النخيلة كانوا قليلاً، فلم تعجب سليمان قلتهم، فأرسل حكيم بن منقذ فنادى في الكوفة بأعلى صوته: يا ثأرات الحسين. فلم يزل ينادي حتى بلغ المسجد الأعظم، فسمع الناس فخرجوا إلى النخيلة وخرج أشراف الكوفة فكانوا قريباً من عشرين ألفاً أو يزيدون، في ديوان سليمان بن صرد. فلمّا عزم على المسير بهم لم يصف معه منهم سوى أربعة آلاف، فقال المسيب ابن نجبة لسليمان: إنه لا ينفعك الكاره، ولا

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٨٩.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٦٠.

يقاتل معك إلاّ من أخرجته النية، وباع نفسه لله عزّ وجلّ، فلا تنتظرن أحداً وامض لأمرك في جهاد عدوّك واستعن بالله عليهم. فقام سليمان في أصحابه وقال: يا أيها الناس! من كان إنما خرج لوجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه، ومن كان خروجه معنا للدنيا فليس منا ولا يصحبنا. فقال الباقون معه: ما للدنيا خرجنا، ولا لها طلبنا. فقيل له: أنسير إلى قتلة الحسين بالشام وقتلته عندنا بالكوفة كلّهم مثل عمر بن سعد وغيره؟ فقال سليمان: إن ابن زياد هو الذي جهز الجيش إليه وفعل به ما فعل، فإذا فرغنا منه عدنا إلى أعدائه بالكوفة. ولو قاتلتوهم أولاً، وهم أهل مصركم ما عدم الرجل منكم أن يرى رجلاً قد قتل أباه، قد قتل أخاه أو حميمه، فيقع التخاذل، فإذا فرغتم من الفاسق ابن زياد حصل لكم المراد. فقالوا: صدقت. فنادى فيهم: سيروا على اسم الله تعالى، فساروا عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الأول. في السنة الخامسة والستين للهجرة».

أ - موقعة عين الوردة:

وهكذا خرج سليمان بن صرد السنة ٦٥هـ/ ٦٨٥م مع أربعة آلاف من أصحابه إلى الأنبار، ومنها إلى قرقيسياء[١] حيث رحّب به عامل ابن الزبير زفر بن الحارث الكلابي وقدّم له المؤن.

وفيما التوابون في طريقهم إلى القتال وصلت الأخبار عن وفاة مروان بن الحكم ومبايعة ابنه عبدالملك الذي أعطى أوامره لقائد الحملة الأمويّة عبيدالله بن زياد، بعد أن أقرّه على قيادته، بالاستمرار في الحملة. وكان ابن زياد قد توجّه من الشام الى حربهم في ثلاثين ألفاً وفصل على مقدّمته خمسة أمراء، هم الحصين بن نمير السكوني وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري وأدهم بن محرز الباهلي وربيعة بن المخارق الغنوي وجبلة بن عبدالله الخثعمي.[٢]

وصف المسعودي القتال في عين الوردة، فكتب:[٣]

---

(١) حالياً البصيرة في سوريا.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١١٣.

(٣) المسعودي، المرجع نفسه، ص ١١٣.

«... حتى إذا صاروا إلى عين الوردة التقى الأقوام.

وقد كان قبل ذلك لهم مناوشات في الطلائع، فاستشهد سليمان بن صرد الخزاعي، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة، وأبلى وحثّ وحرّض، ورماه يزيد بن الحصين بن نمير بسهم فقتله.

فأخذ الراية المسيب بن نجبة الفرازي، وكان من وجوه أصحاب علي رضي الله عنه، وكرّ على القوم، فقاتل حتى قُتل، فاستقتل الترابيون، وكسروا أجفان السيوف، وسالت عليهم عساكر أهل الشام بالليل، ينادون الجنة الجنة إلى البقية من أصحاب أبي تراب[1] الجنة الجنة إلى الترابية.

وأخذ راية الترابيين عبدالله بن سعد بن نفيل، وأتاهم إخوانهم يحثّون السير خلفهم من أهل البصرة وأهل المدائن في نحو من خمسمائة فارس عليهم المثنى بن مخرمة، وسعد بن حذيفة، وهم يقولون: أقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا.

فقيل لعبدالله بن سعد بن نفيل وهو في القتال: إن اخواننا قد لحقونا من البصرة والمدائن.

فقال: ذاك لو جاؤوا ونحن أحياء.

فكان أول من استشهد في ذلك من لحقهم من أهل المدائن كثير بن عمر المدني، وطعن سعد بن أبي سعد الحنفي، وعبدالله ابن الخطل الطائي، وقتل عبدالله بن سعد ابن نفيل.

فلمّا علم من بقي من الترابيين أن لا طاقة لهم بمن بإزائهم من أهل الشام، انحازوا عنهم، وارتحلوا وعليهم رفاعة بن شداد البجلي».

ب - أسباب فشل الثورة:

وهكذا فشلت ثورة الشيعة «التوّابين». أما أسباب فشلها فعديدة أبرزها:

- كانت تفتقر إلى التنظيم واعتماد برنامج سياسي واضح أسوة بباقي الثورات.
- كانت حركة انتحارية تحرّكها فقط الرغبة بالانتقام لمقتل الإمام الحسين.

(١) أبو تراب: لقب الإمام علي، أطلقه عليه النبي ﷺ.

- قلة عدد الجند الذين شاركوا من جانب التوابين بالقتال في عين الوردة.
- جاءت هذه الثورة في زمن خليفة من أهم خلفاء بني أميّة وهو الوليد بن عبدالملك الذي كلّف أبرز القادة وهو عبيدالله بن زياد بإخضاعها.
- عدم مساعدة حركة التوابين من قبل ابن الزبير والمختار الثقفي رغم انهما يتلاقيان معها في المطالب بالانتقام من بني أميّة.

لكلّ هذه الأسباب كانت حركة التوابين مكتوباً لها الفشل، وهذا ما حصل بالفعل.

ثالثاً - ثورة المختار الثقفي

كان المختار بن أبي عبيد الثقفي من أبرز القادة الذين كانوا سيعاونون الإمام الحسين في تحرّكه ضد الأمويين. كما ارتبط اسم المختار بالنشاط الشيعي منذ بدايته وذلك كونه قد ترعرع في بيئة مشبعة بمحبّة الإمام علي وأبنائه. لكن عبيدالله بن زياد قبض عليه مع الزعماء الشيعة وأودعه السجن، لذلك لم يشترك بثورة الإمام الحسين.

كتب الطبريّ عن سجن المختار في الكوفة خلال تحرّك الإمام الحسين ومطالبته بالخلافة:(1)

«قال هشام بن محمّد الكلبي: قال أبو مخنف: قال النضر بن صالح: كانت الشيعة تشتُم المختار وتُعتبه لما كان منه في أمر الحسن بن علي يوم طُعن في مُظلِم ساباط. فحُمل إلى أبيض المدائن، حتى إذا كان زمن الحسين، وبعث الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة، نزل دار المختار، وهي دار سَلْم بن المسيّب، فبايعه المختار بن أبي عُبيد فيمن بايعه من أهل الكوفة، وناصَحه. ودعا إليه من أطاعه، حتى خرج ابن عقيل يوم خرج والمختار في قرية له بخُطَرنِيَة تُدعى لقفا، فجاءه خبر ابن عقيل عند الظهر أنه قد ظهر بالكوفة، فلم يكن خروجه يوم خرج على ميعاد من أصحابه، إنما خرج حين قيل له: إنّ هانيء بن عروة المراديّ قد ضُرِب وحُبس. فأقبل المختار في موالٍ له حتى انتهى إلى باب الفيل بعد الغروب، وقد عَقَد عبيدالله بن زياد لعمرو بن حُرَيث راية على جميع الناس، وأمره أن يقعد لهم في المسجد. فلمّا

(1) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٠٠ - ٤٠١.

كان المختار وقف على باب الفيل مرّ به هانىء ابن أبي حيّة الوادعيّ، فقال للمختار: ما وقوفك ها هنا! لا أنت مع الناس، ولا أنت في رَحلك؛ قال: أصبح رأيي مرتجّاً لعُظم خطيئتكم؛ فقال له: أظنّك والله قاتلاً نفسَك. ثمّ دخل على عمرو بن حُرَيث فأخبره بما قال للمختار وما ردّ عليه المختار.

قال أبو مخنف: فأخبرني النضر بن صالح، عن عبدالرحمن بن أبي عمير الثقفي؛ قال: كنت جالساً عند عمرو بن حريث حين بلّغه هانىء بن أبي حيّة عن المختار هذه المقالة، فقال لي: قم إلى ابن عمّك فأخبره أن صاحبه لا يدري أين هو! فلا يجعلنّ على نفسه سبيلاً. فقمت لآتيه، ووثب إليه زائدة بن قدامة بن مسعود، فقال له: يأتيك على أنه آمن؟ فقال له عمرو بن حُرَيث: أمّا منّي فهو آمن، وإن رُقّي إلى الأمير عبيدالله بن زياد شيء من أمره أقمت به بمحضره الشهادة، وشفَعت له أحسن الشفاعة. فقال له زائدة ابن قدامة: لا يكوننّ مع هذا إن شاء الله إلاّ خير.

قال عبدالرحمن: فخرجت، وخرج معي زائدة إلى المختار، فأخبرناه بمقالة ابن أبي حيّة وبمقالة عمرو بن حُرَيث، وناشدناه بالله ألاّ يجعل على نفسه سبيلاً. فنزل إلى ابن حريث، فسلّم عليه، وجلس تحت رايته حتى أصبح، وتذاكر الناس أمر المختار وفعله. فمشى عُمارة بن عقبة بن أبي مُعيط بذلك إلى عبيدالله بن زياد، فذكر له، فلمّا ارتفع النهار فُتِح باب عبيدالله بن زياد وأذِن للناس، فدخل المختار فيمن دخل، فدعاه عبيدالله، فقال له: أنت المقبل في الجموع لتنصُر ابن عقيل! فقال له: لم أفعل، ولكني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو بن حُرَيث، وبتّ معه وأصبحت. فقال له عمرو: صدَق أصلحك الله! قال: فرفع القضيب، فاعترض به وجه المختار فخبط به عينه فشترها وقال: أولى لك! أما والله لولا شهادة عمرو لك لضربت عنقك؛ انطلقوا به إلى السجن فانطلقوا به إلى السجن فحُبس فيه فلم يزل في السجن حتى قُتل الحسين. ثمّ أنّ المختار بعث إلى زائدة بن قدامة، فسأله أن يسير إلى عبيدالله بن عمر بالمدينة فيسأله أن يكتب له

(١) تمهدت الأعذار: بسطت.

إلى يزيد بن معاوية، فيكتب إلى عبيدالله بن زياد بتخلية سبيله. فركب زائدة إلى عبدالله ابن عمر فقدم عليه، فبلّغه رسالة المختار، وعلمت صفيّة أخت المختار بحبس أخيها وهي تحت عبدالله بن عمر، فبكت وجزعت. فلمّا رأى ذلك عبدالله بن عمر كتب مع زائدة إلى يزيد بن معاوية: أمّا بعد، فإنّ عبيدالله بن زياد حبس المختار، وهو صهري، وأنا أحبّ أن يعافى ويُصلَح من حاله، فإن رأيت رحمنا الله، وإيّاك أن تكتب إلى ابن زياد فتأمرَه بتخليته فعلت. والسلام عليك.

فمضى زائدة على رواحله بالكتاب حتى قدم به على يزيد بالشام، فلما قرأه ضحك ثمّ قال: يشفّع أبو عبدالرحمن، وأهل ذلك هو. فكتب له إلى ابن زياد: أمّا بعد فخلّ سبيل المختار بن أبي عُبَيد حين تنظر في كتابي، والسلام عليك.

فأقبل به زائدة حتى دفعه، فدعا ابن زياد بالمختار، فأخرجه، ثمّ قال له قد أجّلتك ثلاثاً، فإن أدركتُك بالكوفة بعدها قد برئت منك الذمّة. فخرج إلى رحله».

أ - التحاقه بابن الزبير:

خرج المختار من الكوفة إلى الحجاز، حيث كان عبدالله بن الزبير يقاتل الجيش الأموي الذي يحاصر مكّة بقيادة الحصين بن نمير، فالتحق بابن الزبير وأصبح من أبرز أعوانه في ثورته على الأمويين.

لكن الانسجام لم يدم طويلاً بين الثائرَين، إذ كان لكلّ منهما حساباته وأحلامه وطموحاته إلى السلطة والنفوذ.

كتب ابن الأثير عن هذا الموضوع ما يلي:[1]

«ثمّ قدم المختار على ابن الزبير، فكتم عنه ابن الزبير أمره، ففارقه وغاب عنه سنة. ثمّ سأل عنه ابن الزبير فقيل: إنه بالطائف وإنه يزعم أنه صاحب الغضب ومسير الجبارين، فقال ابن الزبير: ما له قاتله الله لقد انبعث كذاباً متكهناً، ان يهلك الله الجبارين يكن المختار أوّلهم...

ثمّ حضر المختار عند ابن الزبير بعد العتمّة فقال: أبايعك على أن لا تقضي الأمور دوني...

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٣، ص ٤٩٣ - ٤٩٤.

وأقام عنده وشهد معه قتال الحصين بن نمير وأبلى أحسن بلاء، وقاتل أشدّ قتال، وكان أشدّ الناس على أهل الشام. فلما هلك يزيد بن معاوية وأطاع أهل العراق ابن الزبير أقام عنده خمسة أشهر. فلمّا رآه لا يستعمله جعل لا يقدم عليه أحد من أهل الكوفة إلاّ سأله عن حال الناس. فأخبره هانيء بن جبة الوداعي باتساق أهل الكوفة على طاعة ابن الزبير، إلاّ أن طائفة من الناس هم عدد أهلها لو كان لهم من يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما. فقال المختار: أنا أبو إسحاق أنا والله لهم أن أجمعهم على الحق، وألقى بهم ركبان الباطل وأهلك بهم كلّ جبّار عنيد. ثمّ ركب راحلته نحو الكوفة فوصل إلى نهر الحيرة يوم الجمعة فاغتسل ولبس ثيابه ثمّ ركب، فمرّ بمسجد السكون وجبّانة كندة لا يمرّ على مجلس إلاّ سلم على أهله وقال: ابشروا بالنصرة والفلج، أتاكم ما تحبّون».

ب - سيطرته على الكوفة:

حاول المختار تزعّم أهل الكوفة، لكنهم كانوا مرتبطين بولائهم لزعيم آخر هو سليمان ابن صرد. غير أن حلم المختار بتزعّم شيعة الكوفة ما لبث ان تحقّق بعد هزيمة «التوابين» ومقتل سليمان بن صرد. لذلك جاء المختار إلى مسجد الكوفة حيث صلّى مع الناس ثمّ انصرف إلى داره فتقاطرت جماعات الشيعة إليه.

وقد ادّعى المختار أمام وفود الشيعة أنه مرسل من قبل محمّد بن الحنفية إلى أهل الكوفة للأخذ بثأر أخيه الحسين.

كتب الطبري عن هذا الادّعاء:[١]

«ثمّ قال المختار: أمّا بعد، فان المهدي ابن الوصي، محمّد بن علي، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً، وأمرني بقتال الملحدين، والطلب بدماء أهل بيته والدفع عن الضعفاء...

فوالله ما زال بهذا القول ونحوه حتى استمال طائفة من الشيعة، وكانوا يختلفون إليه ويعظمونه...

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٠٥ - ٤٠٦.

فسليمان بن صرد أثقل خلق الله على المختار، وهو يريد الخروج والمختار لا يريد أن يتحرّك ولا أن يهيّج أمراً حتى ينظر إلى ما يصير إليه أمر سليمان، رجاء ان يستجمع له أمر الشيعة، فيكون أقوى له على درك ما يطلب...».

لكن أمر المختار لم يُخفَ على شيعة الكوفة الذين أرسلوا إلى محمّد بن الحنفية وسألوه عنه فعرفوا حقيقته فقاموا بتكبيله وأودعوه السجن.(١)

أخيراً، أخرج المختار من السجن والتفّت حوله جماعات الشيعة، خاصة بعد مقتل سليمان بن صرد، وتعزّز وضعه بانضمام ابراهيم بن الأشتر إليه، وكان قائداً كبيراً عرف بعدائه الشديد للأمويين. كما أن ابن الزبير لم يستطع تأليب شيعة الكوفة حوله، لأن أسلوب عماله في العراق لم يختلف عن أسلوب العمال الأمويين فيه.

وهكذا سار المختار إلى قصر الإمارة في الكوفة ودخله وجاءته الوفود مبايعة، ما جعله بطلاً شعبياً في نظرهم، إذ إنه حقق لهم ما كانوا يصبون إليه منذ صفّين، وهو الاستقلال عن السلطة الأموية.

ج - معركة نهر الخازر ضد الجيش الأموي:

بعد سيطرته على الكوفة وإخراج عبدالله ابن مطيع عامل ابن الزبير منها، أصبح على المختار ان يفي بتعهّداته أمام أهل الكوفة وينتقم من قتلة الإمام الحسين.

وكان الخليفة الأموي مروان بن الحكم قد أرسل جيشاً إلى العراق بقيادة عبيدالله بن زياد لإعادته إلى الطاعة. وقد سبق الحديث عن معركة هذا الجيش ضدّ التوابين ونهبه الكوفة. وبقي هذا الجيش في العراق نحواً من سنة، حيث كان في المرحلة التي سيطر فيها المختار على الكوفة، قد دخل الموصل فكتب عبدالرحمن بن سعيد بن قيس عامل المختار عليها إلى المختار:(٢)

«أما بعد، فاني أخبرك أيها الأمير أن عبيدالله بن زياد قد دخل أرض الموصل، وقد وجه قِبَلي خيله ورجاله، واني انحزت

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٩٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥١.

إلى تكريت حتى يأتيني رأيك وأمرك، والسلام عليك».

وكان المختار قد وجّه رئيس شرطته على رأس ألف رجل لتعقّب كلّ من كانت له يد في مقتل الحسين، حتى إذا سمع باقتراب جيش ابن زياد وجه إليه جيشاً آخر بقيادة يزيد بن أنس قوامه ثلاثة آلاف فارس.

وعندما علم ابن زياد بتحرّك جيش المختار دعا ربيعة بن المخارق وعبدالله بن حملة وأرسلهما طلاقاته في ثلاثة آلاف كلّ منهما، فالتقى الجيشان في «بنات تلى».[1]

وكان يزيد بن أنس قد جعل على ميمنته عبدالله بن خمرة العذري، وعلى ميسرته سِعر بن أبي سعر، وعلى الخيل ورقاء بن عازب الأسدي، وذالك في ذي الحجة يوم عرفة السنة ستاً وستين للهجرة.[2]

في بداية المعركة حملت ميسرة المختار على ميمنة الأمويين واشتدّ القتال. ثمّ حملت ميسرة الأمويين على ميمنة المختار فهزمتها، فحملت خيل المختار على قلب الجيش الأموي فهزمته.

وكانت نتيجة المعركة هزيمة للجيش الأموي ومقتل ربيعة بن المخارق وأسر ثلاثمائة منهم قتلوا بعد المعركة.

إثر هذا القتال تراجع جيش المختار بعد أن بلغه تحرّك جيش ابن زياد وعدده ثمانون ألفاً. وهذا ما دفع المختار إلى تعزيزه بجيش من سبعة آلاف رجل بقيادة أبرز قادته ابراهيم ابن الأشتر الذي كلّفه بقيادة الجيشين بعد مصرع يزيد بن أنس.

وصف ابن الأثير المعركة بين جيش المختار بقيادة ابراهيم بن الأشتر والجيش الأموي بقيادة عبيدالله بن زياد والتي انتصر فيها ابن الأشتر وقتل ابن زياد، فكتب:[3]

«ولمّا سار ابراهيم بن الأشتر من الكوفة أسرع السير ليلقوا ابن زياد قبل أن يدخل أرض العراق. وكان ابن زياد قد سار في عسكر عظيم من الشام فبلغ الموصل

(١) قرية بالعراق.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص ٤٥٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٦٠ - ٦٢.

وملكها. فسار إبراهيم وخلف أرض العراق وأوغل في أرض الموصل وجعل على مقدّمته الطفيل بن لقيط النخعي وكان شجاعاً. فلمّا دنا من ابن زياد عبّى أصحابه ولم يسر إلاّ على تعبية واجتماع، إلاّ أنه يبعث الطفيل على الطلائع حتى يبلغ نهر الخازر من بلاد الموصل. فنزل بقرية بارشيا وأقبل ابن زياد إليه حتى نزل قريباً منهم على شاطىء الخازر وأرسل عمير بن الحباب السلمي وهو من أصحاب ابن زياد إلى ابن الأشتر أن القني.

وأذكى ابن الأشتر ضرسه ولم يدخل عينه غمض حتى إذا كان السحر الأول عبّى أصحابه وكتّب كتائبه وأمّر أمراءه، فجعل سفيان بن يزيد الأزدي على ميمنته، وعلي ابن مالك الجشمي على ميسرته وهو أخو أبي الأحوص. وجعل عبد الرحمن بن عبدالله وهو أخو إبراهيم بن الأشتر لأمه على الخيل وكانت خيله قليلة. وجعل الطفيل بن لقيط على الرجالة، وكانت رايته مع مزاحم بن مالك. فلمّا انفجر الفجر صلّى الصبح بغلس ثمّ خرج فصف أصحابه وألحق كلّ أمير بمكانه ونزل إبراهيم يمشي ويحرض الناس ويمنيهم الظفر. وسار بهم رويداً فأشرف على تلّ عظيم مشرف على القوم فجلس عليه وإذ أولئك القوم لم يتحرّك منهم أحد. فأرسل عبدالله بن زهير السلولي ليأتيه بخبر القوم فعاد إليه وقال له: قد خرج القوم على دهش وفشل. لقيني رجل منهم وليس له كلام: ألا يا شيعة أبي تراب يا شيعة المختار الكذاب. قال: فقلت له الذي بيننا أجلّ من الشتم. وركب إبراهيم وسار على الرايات يحثّهم ويذكر لهم فعل ابن زياد بالحسين وأصحابه وأهل بيته من السبي والقتل ومنع الماء وحرّضهم على قتله. وتقدّم القوم إليه وقد جعل ابن زياد على ميمنته الحصين بن نمير السكوني، وعلى ميسرته عمير بن الحباب السلمي، وعلى الخيل شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري. فلما تدانى الصفان حمل الحصين بن نمير في ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم فثبت له علي بن مالك الجشمي فقتل. ثمّ أخذ رايته قرة بن علي فقتل في رجال من أهل البأس وانهزمت الميسرة فأخذ الراية عبدالله بن ورقاء بن جنادة السلولي ابن أخي حبشي بن جنادة صاحب رسول الله ﷺ فاستقبل المنهزمين

فقال: إلي يا شرطة الله فأقبل إليه أكثرهم فقال: هذا أميركم يقاتل ابن زياد ارجعوا بنا إليه. فرجعوا وإذا إبراهيم كاشف رأسه ينادي إليّ شرطة الله أنا ابن الأشتر إن خير فراركم كراركم ليس مسيئاً من أعتب، فرجع إليه أصحابه. وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد وهم يرجون أن ينهزم عمير بن الحباب كما زعم فقاتلهم عمير قتالاً شديداً وأنف من الفرار. فلمّا رأى ذلك إبراهيم قال لأصحابه: اقصدوا هذا السواد الأعظم فوالله لئن هزمناه لا نجفل من ترون يمنة ويسرة انجفال طير ذعرت. فمشى أصحابه إليهم فتطاعنوا ثمّ صاروا إلى السيوف والعمد فاضربوا بها ملياً وكان صوت الضرب بالحديد كصوت القصارين. وكان إبراهيم يقول لصاحب رايته انغمس برايتك فيهم، فيقول: ليس لي متقدّم، فيقول: بلى فإذا تقدّم شد إبراهيم بسيفه فلا يضرب رجلاً إلاّ صرعه. وكرّ إبراهيم والرجالة بين يديه كأنهم الحملان وحمل أصحابه حملة رجل واحد واشتدّ القتال فانهزم أصحاب ابن زياد وقتل من الفريقين قتلى كثيرة. وقيل: إن عمير بن الحباب أوّل من انهزم وإنما كان قتاله أولاً تعذيراً. فلمّا انهزموا قال إبراهيم: إني قد قتلت رجلاً تحت راية منفردة على شاطىء نهر الخازر فالتمسوه فإني شممت منه رائحة المسك شرقت يداه وغربت رجلاه. فالتمسوه فإذا هو ابن زياد قتيلاً بضربة إبراهيم فقد قدته بنصفين وسقط كما ذكر إبراهيم فأخذ رأسه وأحرقت جثته. وحمل شريك بن جدير التغلبي على الحصين بن نمير السكوني وهو يظنّه عبيدالله بن زياد فاعتنق كلّ واحد منهما صاحبه فنادى التغلبي اقتلوني وابن الزانية فقتلوا الحصين.

ولّما انهزم أصحاب ابن زياد تبعهم أصحاب ابراهيم فكان من غرق أكثر ممن قتل، وأصابوا عسكرهم وفيه من كلّ شيء، وأرسل إبراهيم البشارة إلى المختار وهو بالمدائن».

وهكذا انتصر جيش المختار بقيادة قائده إبراهيم بن الأشتر وقتل عبيدالله بن زياد الذي قطع رأسه ورؤوس قادته وأرسلوا إلى المختار.

وأرسل إبراهيم عمّاله فبعث أخاه عبدالرحمن إلى نصيبين فانتصر على سنجار ودارا ومن والاهما في أرض الجزيرة. وبعث

زفراً بن الحارث إلى قرقيسيا، وحاتماً بن النعمان الباهلي إلى حرّان والرها وسميساط، وعميراً بن الحباب السلمي إلى كفرتونا وطور عبدين، وأقام هو بالموصل.[1]

د - ولاية مصعب بن الزبير البصرة ومقتل المختار

بعدما سيطر المختار على البصرة والكوفة والجزيرة وقرقيسيا وما جاورها هزم أهل الكوفة وأقام فيها، فهرب أشرافها وعلى رأسهم شبث ابن ربعي وكانوا موالين لابن الزبير. وهكذا أصبح على ابن الزبير إنهاء ثورة المختار لتعارضها مع مخططاته وذلك على مراحل.

ففي المرحلة الأولى عزل الحرث بن أبي ربيعة عن البصرة وعيّن أخاه مصعباً مكانه. نقل الطبري رواية عن قدوم مصعب إلى البصرة متخفّياً، فكتب:[2]

«في السنة السابعة والستين عمل عبدالله بن الزبير القُباع عن البصرة، وبعث عليها أخاه مصعب بن الزبير. فحدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثني علي بن محمّد، قال: حدّثنا الشّعبي، قال: حدّثني وافد ابن أبي ياسر، قال: كان عمرو بن سرح مولَى الزبير يأتينا فيحدّثنا، قال: كنت والله في الرّهط الّذين قدِموا مع المصعب بن الزبير من مكّة إلى البصرة؛ قال: فقدم متلثّماً حتى أناخ على باب المسجد، ثمّ دخل فصعد المنبر، فقال الناس أمير أمير. قال: وجاء الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة - وهو أميرها قبله - فسفر المصعب فعرفوه، وقالوا: مصعب بن الزبير! فقال: للحارث: اظهر اظهر، فصعد حتى جلس تحته من المنبر درجة».

وقدم على مصعب بن الزبير شبث بن ربعي مع أشراف الكوفة، فسألوه النصر والمسير إلى المختار معهم. وقدم عليه أيضاً محمّد بن الأشعث واستحثّه على المسير فأدناه مصعب وأكرمه.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٨٢.
- ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٦٣.
يمكننا ملاحظة اتساع المنطقة التي سيطر عليها المختار خلال ثورته.
(٣) الطبري، المرجع نفسه، ص ٤٨٣.

وتحضيراً للمعركة مع المختار، استدعى مصعب المهلّب بن أبي صفرة الذي قدم البصرة في جموع كثيرة ومعه أموال عظيمة. كما أرسل عبدالرحمن بن مخنف إلى الكوفة وأمره بان يثبط الناس عن المختار ويدعوهم إلى بيعة عبدالله بن الزبير سراً.[1]

ثمّ سار مصعب إلى الكوفة فقدّم أمامه عباد بن الحصين الحطمي التميمي، وجعل على ميمنته عمراً بن عبدالله بن معمّر، وعلى ميسرته المهلب، وعلى بكر مالكاً بن المنذر، وعلى تميم الأحنف بن قيس، وعلى الأزد زياداً بن عمرو العتكي، وعلى أهل العالية قيساً بن الهيثم.[2]

وصف ابن كثير تفاصيل المعركة بين مصعب بن الزبير والمختار، والتي هزم فيها المختار، ثمّ هربه إلى قصره بالكوفة والقتال في الكوفة وصولاً إلى مقتله، فكتب:[3]

«فلمّا انتهى مصعب إلى قريب الكوفة لقيتهم الكتائب المختارية فحملت عليهم الفرسان الزبيرية، فما لبثت المختارية إلاّ يسيراً حتى هربوا على حمية، وقد قتل منهم جماعة من الأمراء، وخلق من القراء وطائفة كثيرة من الشيعة. ثمّ انتهت الهزيمة إلى المختار.

وقال الواقدي: لما انتهت مقدمة المختار إليه جاء مصعب فقطع الدجلة إلى الكوفة وقد حصّن المختار القصر واستعمل عليه عبدالله بن شداد وخرج المختار بمن بقي معه فنزل حروراء. فلما قرب جيش مصعب منه جهز إلى كلّ قبيلة كردوساً، فبعث إلى بكر ابن وائل سعيد بن منقذ، وإلى عبد القيس مالك بن منذر، وإلى العالية عبدالله بن جعدة، وإلى الأزد مسافر بن سعيد، وإلى بني تميم سليم بن يزيد الكندي، وإلى محمّد بن الأشعث السائب بن مالك. ووقف المختار في بقية أصحابه فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى الليل فقتل أعيان أصحاب المختار

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٨٤.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

وقتل تلك الليلة محمّد بن الأشعث وعمير ابن علي بن أبي طالب، وتفرّق عن المختار باقي أصحابه. فقيل له القصر القصر، فقال: والله ما خرجت منه وأنا أريد أن أعود إليه، ولكن هذا حكم الله. ثمّ ساروا إلى القصر فدخل وجاءه مصعب ففرّق القبائل في نواحي الكوفة، واقتسموا المحال، وخلصوا إلى القصر، وقد منعوا المختار المادة والماء، وكان المختار يخرج فيقاتلهم ثمّ يعود إلى القصر. ولمّا اشتدّ عليه الحصار قال لأصحابه: إن الحصار لا يزيدنا إلاّ ضعفاً، فانزلوا بنا حتى نقاتل حتى الليل حتى نموت كراماً، فوهنوا، فقال أما فوالله لا أعطي بيدي. ثمّ اغتسل وتطيّب وتحنّط وخرج فقاتل هو ومن معه حتى قتلوا.

وقيل بل أشار عليه جماعة من أساورته بأن يدخل القصر دار إمارته، فدخله وهو ملوم مذموم، وعن قريب ينفذ فيه القدر المحتوم. فحاصره مصعب فيه وجميع أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم، وضيّق عليهم المسالك والمقاصد، وانسدّت عليهم أبواب الحيل، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم. ثمّ جعل المختار يجيل فكرته، ويكرّر رؤيته في الأمر الذي قد حلّ به، واستشار من عنده في هذا السبب السيىء الذي قد اتصل سببه بسببه من الموالي والعبيد. ثمّ قوى عزمه قوّة الشجاعة المركبة فيه، على أن أخرجته من بين من كان يحالفه ويواليه، ورأى أن يموت على فرسه، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه. فنزل حمية وغضباً، وشجاعة وكلباً، وهو مع ذلك لا يجد مناصاً ولا مفراً ولا مهرباً، وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر، ولعلّه إن كان قد استمرّ على ما عاش عليه أن لا يفارقه التسعة عشر الموكولون بسقر. ولمّا خرج من القصر سأل أن يخلى سبيله فيذهب في أرض الله فقالوا له: إلاّ على حكم الأمير. والمقصود أنه لما خرج من القصر تقدّم إليه رجلان شقيقان أخوان، وهما طرفة وطراف ابنا عبدالله بن دجاجة من بني حنيفة، فقتلاه بمكان الزياتين من الكوفة واحتزا رأسه وأتيا به إلى مصعب بن الزبير، وقد دخل قصر الإمارة فوضع بين يديه، كما وضع رأس ابن زياد بين يدي المختار، وكما وضع رأس الحسين بين يدي ابن زياد، وكما سيوضع رأس مصعب بين يدي عبدالملك

ابن مروان. فلما وضع رأس المختار بين يدي مصعب أمر لهما بثلاثين ألفاً.

وقد قتل مصعب جماعة من المختارية، وأسر منهم خمسمائة أسير، فضرب أعناقهم عن آخرهم في يوم واحد، وقد قتل من أصحاب مصعب في الوقعة محمّد بن الأشعث بن قيس».

وهكذا انتهت ثورة المختار بالفشل وعادت السيادة على مختلف مناطق بلاد ما بين النهرين إلى ابن الزبير.

هـ - أسباب فشل ثورة المختار:

أما العوامل التي ساهمت في فشل ثورة المختار فنوجزها في الآتي:

١ - قيام ثورة أخرى منافسة لها ويخوضها أحد أبناء الصحابة الكبار ومركزها مكّة المكرّمة نفسها، وهي ثورة ابن الزبير.

٢ - اتكال المختار على أهل الكوفة الذين ظهر أنهم لا يوالون سوى القوي، وعندما يضعف يتفرّقون عنه. هذا ما حصل مع الإمامين علي والحسين.

٣ - أغضب المختار رؤساء القبائل العربية في الكوفة، كونه أبعدهم عن مراكز النفوذ وعاملهم كما يعامل الموالي، لذلك انقلبوا عليه ووقفوا إلى جانب ابن الزبير وكان لهم النفوذ الكبير والأهمية العظمى في مجتمعهم.

٤ - انضمام عدد من قادة المختار إلى مصعب ابن الزبير وأبرزهم إبراهيم بن الأشتر. كما أن مصعباً ألّب حوله عدداً من القادة البارزين في العراق وخاصة المهلّب بن أبي صفرة ومحمّد بن الأشعث.

٥ - كذب المختار على شيعة العراق عندما ادعى أنه مرسل من قبل محمّد بن الحنفية، فتبيّن عدم صدقه. لذلك، ورغم انضمام قاعدة الشيعة الشعبيّة إلى صفوفه بعد تصفيته الذين اشتركوا بقتل الإمام الحسين، فان هذه القاعدة بدأت تبتعد عنه بسرعة، لا سيما بعدما ظهرت مطامعه الشخصية وابتعد عنه زعماء الشيعة.

٦ - لم تكن ثورته حركة سياسيّة شاملة تستهدف قلب النظام الأموي، بقدر ما كانت حركة محلية مغلفة بإطار ديني مصطنع. لذلك عندما برز ذلك للعلن، تخلّى عنه الذين أيدوه.

إنما، ورغم ذلك، هزت ثورة المختار دعائم الحكم الأموي في العراق وشكّلت تحدّياً قوياً له.

و - الدروس والعبر:

أمّا الدروس والعبر من هذه الثورة، فنوجزها بالآتي:

١ - في القتال ضدّ المختار الثقفي، أحسن مصعب بن الزبير بتعبئة الجموع في الكوفة والبصرة وتأليبها حوله، وفيها قادة كبار كالمهلب بن أبي صفرة ومحمّد بن الأشعث. وهكذا تمكّن من تحقيق مبدأ الحرب الأول «نسبية الأهداف للوسائل». وفي سيره لقتال المختار وزع جيشه في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة محققاً بذلك التعبئة الكاملة للجند. وهكذا، وفور التقاء وحداته بجيش خصمه، حملت فرسانه على كتائب المختار فهزمتها وقتلت جماعة من أمرائها.

٢ - لجأ المختار إلى قصره داخل الكوفة رغم سيطرة مصعب عليها فاحتمى به واستغلّ أسواره لحمايته. لكنه، وأمام الحصار الذي طال أمده مانعاً عنه المادة والماء، عاد وتخلّى عن حماية الأسوار وخرج من القصر فاقداً بذلك حرية عمله أمام عدوٍّ يفوقه بأضعاف مضاعفة، الأمر الذي أدى إلى مصرعه وانتهاء ثورته.

٣ - لمّا قتل المختار وضع رأسه أمام مصعب ابن الزبير فاكتملت سلسلة رؤوس المسلمين المقطوعة بأيدٍ مسلمة. فرأس الحسين بن علي وضع أمام عبيدالله بن زياد الذي وُضع رأسه أمام المختار الثقفي. ووضع رأس المختار أمام مصعب ابن الزبير الذي قتل لاحقاً ووضع رأسه بين يدي عبدالملك بن مروان، فصحّ القول المأثور: «لو دامت لغيرك ما وصلت إليك».

ملحق رقم ٣

سيرة المختار بن أبي عبيد الثقفي

كتب ابن كثير:[١]

«هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عفرة بن عميرة بن عوف بن ثقيف الثقفي. أسلم أبوه في حياة النبي ﷺ، ولم يره، فلهذا لم يذكره أكثر الناس في الصحابة، وإنما ذكره ابن الأثير في «الغابة». وقد كان عمر بعثه في جيش كثيف في قتال الفرس سنة ثلاث عشرة، فقتل يومئذٍ شهيداً وقتل معه نحو من أربعة آلاف من المسلمين. وعرف ذلك الجسر به، وهو جسر على دجلة فيقال له إلى اليوم جسر أبي عبيد، وكان له من الولد صفية بنت أبي عبيد، وكانت من الصالحات العابدات. وهي زوجة عبدالله ابن عمر بن الخطاب، وكان عبدالله لها مكرماً ومحبّاً [وماتت] في حياته. وأما أخوها المختار هذا فإنه كان أولاً ناصبياً يبغض عليّاً بغضاً شديداً، وكان عند عمّه في المدائن، وكان عمّه نائبها، فلما دخلها الحسن بن علي خذله أهل العراق وهو سائر إلى الشام لقتال معاوية بعد مقتل أبيه. فلمّا أحسّ الحسن منهم بالغدر فرّ منهم إلى المدائن في جيش قليل، فقال المختار لعمّه: لو أخذت الحسن فبعثته إلى معاوية لاتخذت عنده اليد البيضاء أبداً. فقال له عمّه: بئس ما تأمرني به يا ابن أخي. فما زالت الشيعة تبغضه حتى كان من أمر مسلم بن عقيل بن أبي طالب ما كان، وكان المختار من الأمراء بالكوفة، فجعل يقول: أما لأنصرنه. فبلغ ابن زياد ذلك

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٩٧ - ٣٠٠.

فحبسه بعد ضربه مائة جلدة، فأرسل ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يتشفّع فيه، فأرسل يزيد إلى ابن زياد فأطلقه وسيّره إلى الحجاز في عباءة، فصار إلى ابن الزبير بمكّة فقاتل معه حين حصره أهل الشام قتالاً شديداً. ثمّ بلغ المختار ما قال أهل العراق فيه من التخبيط[1]، فسار إليهم وترك ابن الزبير. ويقال إنه سأل ابن الزبير أن يكتب له كتاباً إلى ابن مطيع نائب الكوفة ففعل، فسار إليها، وكان يظهر مدح ابن الزبير في العلانية ويسبّه في السر، ويمدح محمّد ابن الحنفية ويدعو إليه، وما زال حتى استحوذ على الكوفة بطريق التشيّع وإظهار الأخذ بثأر الحسين. وبسبب ذلك التفّت عليه جماعات كثيرة من الشيعة وأخرج عامل ابن الزبير منها، واستقرّ ملك المختار بها. ثمّ كتب إلى إبن الزبير يعتذر إليه ويخبره أن ابن مطيع كان مداهناً لبني أميّة، وقد خرج من الكوفة، وأنا ومن بها في طاعتك. فصدّقه ابن الزبير لأنه كان يدعو إليه على المنبر يوم الجمعة على رؤوس الناس، ويظهر طاعته. ثمّ شرع في تتبّع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وظفر برؤوس كبار منهم، كعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين، وشمر بن ذي الجوشن أمير الألف الذين ولّوا قتل الحسين، وسنان بن أبي أنس، وخولي بن يزيد الأصبحي، وخلق غير هؤلاء. وما زال حتى بعث سيف نقمته إبراهيم بن الأشتر في عشرين ألفاً إلى ابن زياد، وكان ابن زياد حين التقاه في جيش أعظم من جيشه - في أضعاف مضاعفة - كانوا ثمانين ألفاً، وقيل ستين ألفاً. فقتل ابن الأشتر ابن زياد وكسر جيشه، واحتاز ما في معسكره، ثمّ بعث برأس ابن زياد ورؤوس أصحابه مع البشارة إلى المختار، ففرح بذلك فرحاً شديداً. ثمّ إن المختار بعث برأس ابن زياد ورأس حصين بن نمير ومن معهما إلى ابن الزبير بمكّة. فأمر ابن الزبير بها فنصبت على عقبة الحجون.

وقد كانوا نصبوها بالمدينة، وطابت نفس المختار بالملك، وظنّ أنه لم يبق له عدوّ ولا

---

(١) التخبيط: الفساد.

منازع. فلمّا تبيّن ابن الزبير خداعه ومكره وسوء مذهبه، بعث أخاه مصعباً أميراً على العراق، فسار إلى البصرة فجمع العساكر فما تمّ سرور المختار حتى سار إليه مصعب بن الزبير من البصرة في جيش هائل فقتله واحتزّ رأسه وأمر بصلب كفّه على باب المسجد. وبعث مصعب برأس المختار مع رجل من الشرطة على البريد، إلى أخيه عبدالله بن الزبير، فوصل مكّة بعد العشاء فوجد عبدالله يتنفّل. فما زال يصلّي حتى أسحر ولم يلتفت إلى البريد الذي جاء بالرأس. فلما كان قريب الفجر قال: ما جاء بك؟ فألقى إليه الكتاب فقرأه، فقال: يا أمير المؤمنين معي الرأس، فقال: ألقه على باب المسجد، فألقاه ثمّ جاء فقال: جائزتي يا أمير المؤمنين، فقال: جائزتك الرأس الذي جئت به تأخذه معك إلى العراق.

ثمّ زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها، وذلك لأن الرجل لم يكن في نفسه صادقاً، بل كان كاذباً يزعم أن الوحي يأتيه على يد جبريل».

الفصل الرابع

ثورة عبدالله ابن الزبير

كان ثلاثة من أولاد الصحابة قد تحدّوا معاوية رافضين بيعة يزيد بولاية العهد هم الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير الذي وصفه معاوية خلال وصيته لابنه يزيد قائلاً:(١)

«أما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير».

وبالفعل، صحّ حدس معاوية إذ انّ ابن الزبير رفض بيعة يزيد فيما بايعه ابن عمر. وكان والي المدينة عندما تسلّم يزيد الحكم الوليد بن عقبة، فكتب إليه يزيد:(٢)

«أمّا بعد، فخذ حسيناً وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخصة حتى يبايعوا والسلام».(٣)

رغم ذلك لم يبايع الحسين وابن الزبير، وكان ذلك في السنة ستين للهجرة، فأصبح القتال بينهما وبين الأمويين واقعاً لا محالة.

وهكذا أصبح عبدالله بن الزبير ثائراً على الحكم الأموي، لكنه لم يعلن ذلك في انتظار خروج الحسين إلى العراق وإعلان حركته ضدّ هذا الحكم. وهذا ما حصل بالفعل.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٥٦.
انظر الفصل الأول من هذا الجزء.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٤.

(٣) انظر تفاصيل رفض البيعة من قبل الحسين وابن الزبير في الفصل الثاني من هذا الجزء.

وكان موقف ابن الزبير في غاية الذكاء، إذ إنه أعلن تأييده للحسين بن علي ووقف إلى جانبه، حتى انه سعى إلى توليته الحجاز لأنه كان يعرف تمام المعرفة صعوبة مجابهة الإمام الحسين، لذلك انحنى أمامه وشجّعه على الخروج من الحجاز إلى العراق.

أولاً – ابن الزبير يستقلّ بمكّة

فلمّا خرج الحسين إلى العراق خلا الجو لابن الزبير، الذي أصبح سيّد الموقف في الحجاز فاستقلّ في مكّة وخلع طاعة يزيد بن معاوية متخذاً لنفسه لقب أمير المؤمنين.

عند هذا الحدّ عزل يزيد الوليد بن عتبة عن المدينة وأضافها إلى عمرو بن سعيد بن العاص نائبه على مكّة، وكلّفه بانهاء مشكلة ابن الزبير.[1]

استعمل ابن سعيد على شرطته عمرو بن الزبير لما كان بينه وبين أخيه عبدالله من البغضاء وكلّفه بمحاربة شقيقه.[2]

كتب ابن كثير عن القتال بين عمرو وعبدالله بن الزبير وانتصار هذا الأخير وسيطرته على مكّة:[3]

«قال الواقدي: ولّى عمرو بن سعيد شرطة المدينة عمرو بن الزبير فتتبّع أصحاب أخيه ومن يهوى هواه، فضربهم ضرباً شديداً حت ضرب من جملة من ضرب أخاه المنذر ابن الزبير. وأنه لا بدّ أن يأخذ أخاه عبدالله في جامعة من فضة حتى يقدم به على الخليفة، فضرب المنذر بن الزبير، وابنه محمّد بن المنذر، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وعثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام، وخبيب بن عبدالله بن الزبير، ومحمّد ابن عمّار بن ياسر وغيرهم، ضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين جلدة. وفرّ منه عبد الرحمن بن عثمان التيمي، وعبدالرحمن بن عمرو بن سهل في أناس من مكّة. ثمّ جاء العزم من يزيد إلى عمرو بن سعيد في تطلب ابن الزبير، وأنه لا يقبل منه وإن بايع حتى يؤتى به إليّ في جامعة من

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٧٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٨٠.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٦ – ١٥٧.

ذهب أو من فضة تحت برنسه، فلا ترى إلاّ أنه يسمع صوتها. وكان ابن الزبير قد منع الحارث بن خالد المخزومي من أن يصلّي بأهل مكّة، وكان نائب عمرو بن سعيد عليها. فحينئذ صمّم عمرو على تجهيز سرية إلى مكّة بسبب ابن الزبير، فاستشار عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير: من يصلح أن نبعثه إلى مكّة لأجل قتاله؟ فقال له عمرو بن الزبير: إنك لا تبعث إليه من هو أنكى مني. فعيّنه على تلك السرية وجعل على مقدّمته أنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة مقاتل. وقال الواقدي: إنما عينهما يزيد بن معاوية نفسه، وبعث بذلك إلى عمرو بن سعيد، فعسكر أنيس بالجرف. وأشار مروان بن الحكم على عمرو بن سعيد أن لا يغزو مكّة وأن يترك ابن الزبير بها، فإنه عما قليل إن لم يقتل يمت. فقال أخوه عمرو بن الزبير: والله لنغزونّه ولو في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم. فقال مروان: والله إن ذلك ليسرّني. فسار أنيس واتبعه عمرو بن الزبير في بقية الجيش - وكانوا ألفين - حتى نزل بالأبطح، وقيل بداره عند الصفا، ونزل أنيس بذي طوى. فكان عمرو بن الزبير يصلّي بالناس، ويصلّي وراءه أخوه عبدالله بن الزبير. وأرسل عمرو إلى أخيه يقول له: برّ يمين الخليفة، وأتِهِ وفي عنقك جامعة من ذهب أو فضّة، ولا تدع الناس يضرب بعضهم بعضاً، واتق الله فإنك في بلد حرام. فأرسل عبدالله يقول لأخيه: موعدك المسجد. وبعث عبدالله بن الزبير عبدالله بن صفوان بن أمية في سرية فاقتتلوا مع عمرو بن أنيس الأسلمي فهزموا أنيساً هزيمة قبيحة، وتفرّق عن عمرو بن الزبير أصحابه وهرب عمرو. إلى دار ابن علقمة، [ودخله]. فأجاره أخوه عبيدة بن الزبير، فلامه أخوه عبدالله ابن الزبير وقال: تجير من في عنقه حقوق الناس؟ ثمّ ضربه بكلّ من ضربه بالمدينة إلاّ المنذر بن الزبير وابنه فإنهما أبيَا أن يستقيدا من عمرو، وسجنه ومعه عارم، فسمي سجن عارم، وقد قيل إن عمرو بن الزبير مات تحت السياط والله أعلم».

وهكذا سيطر ابن الزبير على مكّة، وقويت هذه السيطرة بعد معركة كربلاء التي قتل فيها الإمام الحسين وراح ابن الزبير يستغلّها لتأليب القبائل الموالية للشيعة لمصلحته.

ولمّا علم الخليفة يزيد بن معاوية بخروج الحجاز عليه، وبعد أن أيّدت المدينة ابن الزبير، أرسل جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة فاخضع المدينة[1] وتابع زحفه نحو مكّة. لكن مسلماً توفي بعد أيام قليلة بعد أن اشتدّ عليه المرض فخلفه في قيادة الجيش الأموي الحصين بن نمير السكوني الذي حاصر مكّة وضرب الكعبة بالمنجنيق السنة ٦٤ هجرية من دون ان يتمكّن من اختراق أسوار المدينة.

ثانياً – مهاجمة مكّة من قبل جيش الشام

كان مسلم بن عقبة قد سار بجيش الشام لمقاتلة ابن الزبير. فاشتدّ عليه المرض فعيّن الخليفة الحصين بن نمير قائد الجيش الأموي، فأوصاه مسلم قبل وفاته بقوله:[2]

«لا تردّن أهل الشام عن عدوّهم، ولا تقيمنّ إلاّ ثلاثاً حتى تناجز ابن الزبير الفاسق».

وبالفعل سار الحصين إلى مكّة وحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيق وكاد أن ينهي ثورة ابن الزبير لولا وفاة الخليفة يزيد.

كتب الطبري عن حصار ابن الزبير وقتاله مع جيش الشام:[3]

«قال: وقدم عليه – يعني ابن الزبير – كلّ أهل المدينة، وقد قدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في أناس من الخوارج يمنعون البيت. فقال لأخيه المنذر: ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك – وأخوه المنذر ممن شهد الحرّة، ثمّ لحق به – فجرّد إليهم أخاه في الناس، فقاتلهم ساعةً قتالاً شديداً. ثمّ إنّ رجلاً من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة – قال: والشاميّ على بغلة له – فخرج إليه المنذر، فضرب كلّ واحد منهما صاحبه ضربة خرّ صاحبه لها ميتاً. فجثا عبدالله بن الزّبير على ركبتيه وهو يقول: يا ربّ أبرها من أصلها ولا تشدّها، وهو يدعو على الذي بارز أخاه. ثمّ إنّ أهل الشام شدُّوا عليه شدّة منكرة،

(١) انظر تفاصيل إخضاع المدينة في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص.٣٦٠.

(٣) الطبري، المرجع نفسه، ص ٣٦١.

وانكشف أصحابه انكشافة، وعثرت بغلته فقال: تعساً! ثمّ نزل وصاح بأصحابه: إليّ؛ فأقبل إليه المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة، ومصعب بن عبدالرحمن بن عوف الزّهريّ، فقاتلوا حتى قُتلوا جميعاً، وصابرَهم ابن الزبير يجالدهم حتى الليل، ثمّ انصرفوا عنه؛ وهذا في الحصار الأول. ثمّ إنهم أقاموا عليه يقاتلونه بقيّة المحرّم وصفر كله، حتى إذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول يوم السبت سنة أربع وستين قذفوا البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنار.

وقال الواقدي: سار الحصين بن نمير حين دُفن مسلم بن عُقبة بالمشلّل لسبعٍ بقين من المحرّم، وقدم مكّة لأربع بقين من المحرّم، فحاصر ابن الزبير أربعاً وستين يوماً حتّى جاءهم نعي يزيد بن معاوية لهلال ربيع الآخر.

وفي هذه السنة حُرقت الكعبة.

ذكر السبب في إحراقها:

قال محمد بن عمر: أحرقت الكعبة يوم السبت لثلاث ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين قبل أن يأتي نعي يزيد بن معاوية بتسعة وعشرين يوماً، وجاء نعيه لهلال ربيع الآخر ليلة الثلاثاء.

قال محمّد بن عمر: حدّثنا رياح بن مسلم، عن أبيه، قال: كانوا يوقدون حول الكعبة. فأقبلت شَرَرة هبّت بها الريح، فاحترقت ثياب الكعبة، واحترق خشب البيت يوم السبت لثلاث ليال خلَون من ربيع الأوّل.

ولّما هلك يزيد بن معاوية مكث الحُصَين ابن نُمير وأهل الشام يقاتلون ابن الزّبير وأصحابه بمكّة - فيما ذكر هشام عن عوانة - أربعين يوماً، قد حصروهم حصاراً شديداً، وضيّقوا عليهم. ثمّ بلغ موته ابن الزّبير».

الحصين يدعو ابن الزبير إلى الخلافة:

تابع الطبري روايته فكتب:[١]

«قال: لّما بلغ ابن الزبير موت يزيد - وأهل الشام لا يعلمون بذلك، قد حصروه حصاراً شديداً وضيّقوا عليه - أخذ يناديهم هو وأهل مكّة: علام تقاتلون؟ قد هلك

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٣٦٣.

طاغيتكم. وأخذوا لا يصدّقونه حتى قدم ثابت بن قيس بن المُنقَع النخعيّ من أهل الكوفة في رؤوس أهل العراق، فمرّ بالحصين ابن نمير - وكان له صديقاً، وكان بينهما صِهْر، وكان يراه عند معاوية، فكان يعرف فضله وإسلامه وشرفه - فسأل عن الخبر، فأخبره بهلاك يزيد. فبعث الحصين بن نُمير إلى عبدالله بن الزبير، فقال: موعد ما بيننا وبينك الليلة «الأبطح»، فالتقيا، فقال له الحصين: إن يَكن هذا الرجل قد هلك فأنت أحقّ الناس بهذا الأمر؛ هلمّ فنبايعك، ثمّ اخرج معي إلى الشام، فإنّ هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفُرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمّن الناس وتهدر هذه الدّماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرَّة. فكان سعيد بن عمرو يقول: ما منعه أن يبايعهم ويخرج إلى الشام إلاّ تطيّر، لأنّ مكّة التي منعه الله بها؛ وكان ذلك من جند مروان، وإن عبدالله والله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه منهم اثنان. فزعم بعض قريش أنه قال: أنا أهدر تلك الدماء! أما والله لا أرضى أن أقتل بكلّ رجل منهم عشرة. وأخذ الحصين يكلّمه سرّاً، وهو يجهر جهراً، وأخذ يقول: لا والله لا أفعل، فقال له الحصين بن نمير: قبح الله من يعدّك بعد هذه داهياً قطّ أو أديباً! قد كنت أظنّ أنّ لك رأياً. ألا أراني أكلّمك سرّاً وتكلّمني جهراً، وأدعوك إلى الخلافة، وتعدُني القتل والهَلَكة!».

وهكذا فاوض قائد جيش الشام ابن الزبير حول فكّ الحصار والبيعة له، شرط اصطحابه إلى الشام لإعلانه خليفة هناك. رفض ابن الزبير التوجّه إلى الشام فتركه الحصين قائد جيش الشام يرمّم بناء الكعبة وانسحب بجيشه إلى الشام فنجا ابن الزبير السنة ستاً وستين من هزيمة كانت مؤكّدة.

ونقل ابن الأثير ان مروان بن الحكم كان يريد ان يسير إلى ابن الزبير في الحجاز ويبايعه بالخلافة.[1]

من جهة أخرى قوي موقف ابن الزبير بمبايعة القيسية له بقيادة الضحّاك بن قيس، لا سيما أن موقف بني أمية في دمشق كان

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٧٧.

مضطرباً بسبب وفاة الخليفة يزيد ومبايعة ابنه الفتي معاوية بن يزيد الذي لم يحكم سوى أربعين يوماً توفي بعدها فشغر منصب الخليفة. كما بايع ابن الزبير زفراً بن الحارث أحد زعماء القيسية أيضاً في شمالي الجزيرة وقنّسرين وقرقيسياء.

وهكذا أضحى ابن الزبير أقوى شخصية إسلامية بعد انضمام القيسية إليه في الشام والعراق وخراسان، وانضمام مصر إليه، فيما ضعف شأن الأمويين وتراجع تأثيرهم حتى في بلاد الشام. ويرى المؤرّخون أنه، لو استغلّ ابن الزبير هذا الوضع أفضل استغلال، لكان الخليفة المرتجى.

ثالثاً – بيعة مروان بن الحكم

ثمّ لم يلبث أن انقلب الوضع بعد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة وانتصاره على القيسية في وقعة مرج راهط في السنة الرابعة والستين للهجرة. وكان سبب هذه المبايعة ان رؤساء القبائل اليمانية وأهل الحكم من بني أميّة أدركوا الخطر المحدق بمصالحهم في حال انتقال الخلافة من الشام إلى الحجاز. فعقدوا مؤتمراً عاماً في الجابية بجوار دمشق درسوا فيه شؤون الخلافة والانقسام في البيت الأموي، وخلصوا إلى الاتفاق على استبعاد خالد بن يزيد بسبب صغر سنّه وتسمية مروان من الحكم، وهو أحد وجهاء بني أمية، خليفة في ذي العقدة السنة ٦٤هـ/ ٦٨٤م. وهكذا انتقلت الخلافة إلى الفرع المرواني الذي ثبّتها، فتراجعت حظوظ ابن الزبير بالخلافة.

كتب ابن كثير عن مبايعة مروان بن الحكم ما يلي:[(١)]

«وعند ذلك اجتمع بنو أميّة ومن اتبعهم بالأردن واجتمع إليهم من هنالك قوم حسان بن مالك من بني كلب. ولما رأى مروان بن الحكم ما انتظم من البيعة لابن الزبير، وما استوثق له من الملك، عزم على الرحيل إليه لمبايعته وليأخذ منه أماناً لبني أمية. فسار حتى بلغ أذرعات فلقيه ابن زياد مقبلاً من العراق فصدّه عن ذلك وهجّن

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٤٩ – ٢٥٠.

رأيه[1]. واجتمع إليه عمرو بن سعيد بن العاص، وحصين بن نمير، وابن زياد، وأهل اليمن وخلق، فقالوا لمروان: أنت كبير قريش ورئيسها، وخالد بن يزيد غلام، وعبدالله بن الزبير كهل، فإنّما يقرع الحديد بعضه ببعض، فلا تناوئه بهذا الغلام، وارم بنحرك في نحره، ونحن نبايعك، ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه بالجابية في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين».

رابعاً – فراق الخوارج عبدالله بن الزبير

كان الخوارج الأزارقة قد انضمّوا إلى ابن الزبير في قتاله ضدّ الأمويين وقاتلوا معه. إنما، وبعد انتها معركة مكّة وتراجع جيش الشام، تفرّق هؤلاء عن ابن الزبير بعد ان سألوه عن موقفه من مقتل عثمان فقال: [2]

«أنا اشهدكم ومن حضرني اني وليّ لابن عفان وعدوّ أعدائه».

خامساً – خروج محمّد بن الحنفية إلى الشام

دعا ابن الزبير محمّداً بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وشيعته للمبايعة فأبوا، فسجنهم في زمزم وتوعّدهم بالقتل والإحراق. فبعث ابن الحنفية يستنجد بالمختار الثقفي الذي أنجده بالمقاتلين والأموال، فاجتمع إلى ابن الحنفية أربعة آلاف رجل بعد ان خلّصوه من السجن فاجتمعوا في الشعب لمحاربة ابن الزبير الذي هابهم.[3]

إلاّ أن مقتل المختار الثقفي جعلهم ينفضّون عن ابن الحنفية الذي هدّده ابن الزبير بضرورة البيعة له. فبلغ ذلك الخليفة عبدالملك فكتب إليه يعلمه أنه إن قدم عليه

(١) هجن رأيه: عابه في رأيه.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٩١.
(٤) المرجع نفسه، جزء ٤، ص ٥٣ – ٥٤.

أحسن إليه وأنه ينزل إلى الشام إن اراد حتى يستقيم أمر الناس. فخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام.

سادساً – عبدالملك بن مروان يسترجع العراق

وفي السنة الإحدى والسبعين للهجرة، وبعد أن عزّز عبدالملك بن مروان موقعه في الشام، قرّر السير إلى العراق لمحاربة مصعب ابن الزبير. فسار في جيش عظيم وبعث أمامه السرايا فدخل بعض من أرسلهم إلى البصرة فدعا أهلها لمبايعة عبدالملك سراً، فاستجاب له بعضهم. لكن مصعباً بن الزبير أنّب أهل البصرة وشتمهم على مبايعة اولئك لعبدالملك، وهدم دور بعضهم.(١)

وهكذا سار عبدالملك وجعل على مقدّمته محمّداً بن مروان، وعلى ميمنته عبدالله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالداً بن يزيد بن معاوية. وبعث عبدالملك كتباً إلى قادة جيش مصعب يدعوهم فيه لمبايعته ويعدهم بالولايات.(٢)

ثمّ تواجه الجيشان، فحمل ابراهيم بن الأشتر، وكان أمير المقدمة العراقية، على محمّد بن مروان فأزاله عن موضعه. ثمّ عزّز مروان مقدّمته بعبدالله بن يزيد فحملت على مقدّمة مصعب فأزالتها من الوجود وقتل ابراهيم بن الأشتر وجماعة من الأمراء وهربت جماعة أخرى إلى عبدالملك.

نقل ابن كثير تفاصيل المعركة، فكتب:(٣)

«وجعل مصعب بن الزبير وهو واقف في القلب ينهض أصحاب الرايات ويحثّ الشجعان والأبطال أن يتقدّموا إلى أمام القوم، فلا يتحرّك أحد. فجعل يقول: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم. وتفاقم الأمر واشتدّ القتال، وتخاذلت الرجال، وضاق الحال، وكثر النزال. قال المدائني: أرسل عبدالملك أخاه

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٢٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٤ ، ص ١٠٤.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٢٢ – ٣٢٣.

إلى مصعب يعطيه الأمان فأبى وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلاّ غالباً أو مغلوباً. قالوا: فنادى محمّد بن مروان عيسى بن مصعب فقال: يا ابن أخي لا تقتل نفسك، لك الأمان، فقال له مصعب: قد أمنك عمّك فامض إليه، فقال: لا يتحدّث نساء قريش أني أسلمتك للقتل، فقال له: يا بني فاركب خيل السبق فالحق بعمّك فأخبره بما صنع أهل العراق فإني مقتول ههنا. فقال: والله إني لا أخبر عنك أحداً أبداً. ولا أخبر نساء قريش بصرعك، ولا أُقتل إلاّ معك ولكن إن شئت ركبت خيلك وسرنا إلى البصرة فإنهم على الجماعة. فقال: والله لا يتحدّث قريش بأني فررت من القتال، فقال لابنه: تقدّم بين يديّ حتى احتسبك، فتقدّم ابنه فقاتل حتى قُتل. وأُثخن مصعب بالرمي فنظر إليه زائدة بن قدامة وهو كذلك، فحمل عليه فطعنه وهو يقول: يا ثارات المختار. ونزل إليه رجل يقال له عبيدالله بن زياد بن ظبيان التميمي فقتله وحزّ رأسه وأتى به عبدالملك بن مروان».

ثمّ سار عبدالملك إلى الكوفة فنزل النخيلة فوفدت عليه الوفود من رؤساء القبائل وسادات العرب فبايعه أهل العراق الذي عاد إقليمياً أموياً، فولّى عليه الخليفة شقيقه بشراً بن مروان.

وهكذا أصبح على الخليفة إنهاء تمرّد عبدالله بن الزبير في عقر داره، أي في الحجاز نفسه. لذلك، وعندما عاد إلى الشام، راح يفكّر طويلاً في القائد الذي سيعينه لهذه المهمّة الصعبة، فوقع اختياره على رجل حازم كان ما يزال مغموراً سياسياً، وقد تولّى مؤخّرة الجيش الذي قاده عبدالملك إلى العراق للقضاء على مصعب بن الزبير، ألا وهو الحجاج بن يوسف الثقفي.(١)

سابعاً – مقتل ابن الزبير وإخضاع الحجاز

في السنة الثانية والسبعين للهجرة وجّه عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف إلى مكّة لقتال عبدالله بن الزبير. أما سبب هذا

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٣٠.

الاختيار فقد أورد الطبري عنه الرواية التالية:[١]

«إن عبدالملك لمّا أراد الرجوع إلى الشام، قام إليه الحجاج بن يوسف فقال: يا أمير المؤمنين، إني رأيت في منامي أني أخذت عبدالله بن الزبير فسلخته، فابعثني إليه، وولني قتاله. فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام».

كتب ابن الأثير عن توجّه الحجاج إلى الحجاز:[٢]

«فلمّا قَتَلَ عبدالملك مصعباً وأتى الكوفة وجّه منها الحجاج بن يوسف الثقفي في ألفين، وقيل: في ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال عبدالله بن الزبير. وكان السبب في تسييره دون غيره أنه قال لعبدالملك: قد رأيت في المنام أني أخذت عبدالله بن الزبير فسلخته فابعثني إليه وولّيني قتاله، فبعثه وكتب معه أماناً لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا. فسار في جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ولم يعرض للمدينة ونزل الطائف. وكان يبعث الخيل إلى عرفة ويبعث ابن الزبير أيضاً فيقتتلون بعرفة فتنهزم خيل ابن الزبير في كلّ ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر.

ثمّ كتب الحجاج إلى عبدالملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرُّق أصحابه ويستمدّه. فكتب عبدالملك إلى طارق يأمره باللحاق بالحجاج فقَدِمِ المدينة في ذي العقدة سنة اثنتين وسبعين وأخرج عامل ابن الزبير عنها وجعل عليها رجلاً من أهل الشام اسمه ثعلبة. فكان ثعلبة يُخرِج المخ وهو على منبر النبيّ ﷺ ثمّ يأكله ويأكل عليه التمر ليغبط أهل المدينة وكان مع ذلك شديداً على أهل الزبير. وقدم طارق على الحجاج بمكة في سلخ ذي الحجة في خمسة آلاف. وأما الحجاج فإنه قدم مكّة في ذي القعدة وقد أحرم بحجة فنزل بئر ميمون. وحجّ بالناس تلك السنة الحجاج إلاّ أنه لم يَطُف بالكعبة ولا سعى بين الصفا والمروة، منعه ابن الزبير من ذلك، فكان يلبس السلاح ولا يقرب النساء ولا الطيب إلى أن قتل ابن الزبير. ولم يحج ابن الزبير

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

ولا أصحابه لأنهم لم يقفوا بعرفة ولم يرموا الجمار. ونحر ابن الزبير بُدنَه بمكّة».

أمّا ابن كثير فذكر تفاصيل الحصار والقتال إذ كتب:[١]

«فلمّا استهلّت هذه السنة استهلّت وأهل الشام محاصرون أهل مكّة، وقد نصب الحجاج المنجنيق على مكّة ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبدالملك بن مروان. وكان مع الحجاج الحبشة، فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقاً كثيراً وكان معه خمس مجانيق فألحّ عليها بالرمي من كلّ مكان، وحبس عنهم الميرة والماء، فكانوا يشربون من ماء زمزم. وجعلت الحجارة تقع في الكعبة، والحجاج يصيح بأصحابه: يا أهل الشام الله في الطاعة، فكانوا يحملون على ابن الزبير حتى يقال إنهم آخذوه في هذه الشدّة، فيشدّ عليهم ابن الزبير وليس معه أحد حتى يخرجهم من باب بني شيبة. ثمّ يكرون عليه فيشدّ عليهم، فعل ذلك مراراً. وقتل يومئذ جماعة منهم وهو يقول: خذها وأنا ابن الحواري. وقيل لابن الزبير ألا تكلمهم في الصلح!! فقال: والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً. والله لا أسألهم صلحاً أبداً.

وذكر غير واحد أنهم لما رموا بالمنجنيق جاءت الصواعق والبروق والرعود حتى جعلت تعلو أصواتها على صوت المنجنيق. ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثني عشر رجلاً فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة. فلم يزل الحجاج يشجّعهم ويقول: إني خبير بهذه البلاد، هذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها، وإن القوم يصيبهم مثل الذي يصيبكم. وجاءت صاعقة من الغد فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعة كثيرة أيضاً، فجعل الحجاج يقول: ألم أقل لكم إنهم يصابون مثلكم وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة. وكان أهل الشام يرتجزون وهم يرمون بالمنجنيق ويقولون:

خطارة مثل الفنيق المزبد
نرمي بها أعواد هذا المسجد

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٣٧ - ٣٣٩.

فنزلت صاعقة على المنجنيق فأحرقته، فتوقّف أهل الشام عن الرمي والمحاصرة فخطبهم الحجاج فقال: ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته، فعادوا إلى المحاصرة.

وما زال أهل مكّة يخرجون إلى الحجاج بالأمان ويتركون ابن الزبير حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف، فأمّنهم وقلّ أصحاب ابن الزبير جداً، حتى خرج إلى الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبدالله بن الزبير، فأخذا لأنفسهما أماناً من الحجاج فأمّنهما. ودخل عبدالله بن الزبير على أمّه فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلاّ اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حقّ وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أميّة. وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت؟ أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك. وإن كنت على حق فما وهن الدين وإلى كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فدنا منها فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ثمّ قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها. قالوا: وكان يخرج من باب المسجد الحرام وهناك خمسمائة فارس وراجل فيحمل عليهم فيتفرّقون عنه يميناً وشمالاً.

وكانت أبواب الحرم قد قلّ من يحرسها من أصحاب ابن الزبير. وكان لأهل حمص حصار الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كلّ باب قائد ومعه أهل تلك البلاد. وكان الحجاج وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح. وكان ابن الزبير لا يخرج على أهل باب إلاّ فرّقهم وبدّد شملهم، وهو غير ملبس حتى يخرجهم إلى الأبطح ثمّ يصيح لو كان قرني واحداً كفيته، فيقول ابن صفوان وأهل الشام أيضاً: إي والله وألف رجل. ولقد كان حجر المنجنيق يقع على طرف ثوبه فلا

ينزعج بذلك، ثمّ يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسد ضار، حتى جعل الناس يتعجّبون من إقدامه وشجاعته. فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة بات ابن الزبير يصلّي طول ليلته ثمّ جلس فاحتبى[1] بحميلة سيفه فأغفى ثمّ انتبه مع الفجر على عادته. ثمّ قال: أذّن يا سعد، فأذّن عند المقام، وتوضّأ ابن الزبير ثمّ صلّى ركعتي الفجر، ثمّ أقيمت الصلاة فصلّى الفجر، ثمّ سلّم فحمد الله وأثنى عليه. ثمّ قال: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم، فكشفوا وجوههم وعليهم المغافر، فحرّضهم وحثّهم على القتال والصبر، ثمّ نهض ثمّ حمل وحملوا حتى كشفوهم إلى الحجون فجاءته آجرة فأصابته في وجهه فارتعش لها.

ثمّ سقط إلى الأرض فأسرعوا إليه فقتلوه رضي الله عنه.

ثمّ كتب الحجاج إلى عبدالملك بما وقع، وبعث برأس ابن الزبير مع رأس عبدالله بن صفوان وعمارة بن حزم إلى عبدالملك. ثمّ أمرهم إذا مروا بالمدينة أن ينصبوا الرؤوس بها، ثمّ يسيروا بها إلى الشام، ففعلوا ما أمرهم به. وأرسل بالرؤوس مع رجل من الأزد فأعطاه عبدالملك خمسمائة دينار. ثمّ دعا بمقراض فأخذ من ناصيته ونواصي أولاده فرحاً بمقتل ابن الزبير، عليهم من الله ما يستحقّون. ثمّ أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصُلبت على ثنية كذا عند الحجون، يقال منكسة. فما زالت مصلوبة، حتى مرّ به عبدالله بن عمر فقال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج فأنزله عن الجذع ودفن هناك».

ودخل الحجاج إلى مكّة فأخذ البيعة من أهلها لعبدالملك بن مروان.

هكذا انتهت ثورة ابن الزبير بعد ان دامت نيّفاً وثلاثين سنة، وهزّت دعائم البيت الأموي وكادت ان تنهي حكمة.

ثامناً – الدروس والعبر والنتائج

أ – خطّط والي الحجاز عمر بن سعيد بن العاص لضرب آل الزبير ببعضهم البعض فكلّف عمرو بن الزبير بمحاربة شقيقه عبدالله. وفي هذا التدبير دهاء كبير تمشياً مع

---

(١) احتبى: اشتمل.

القول المأثور: «فرّق تسد». وقد حاول عمرو منع أخيه من الخروج عن طاعة الخليفة، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل وأعطت نتائج معكوسة إذ إن عبدالله بن الزبير سيطر بعد ذلك على مكّة وراح يستغلّها لتأليب القبائل الموالية للشيعة لمصلحته.

ب - لم يحترم الجيش الأموي مدينة مكّة بل قصفها بالمنجنيق دون ان يتمكّن من اختراق أسوارها رغم محاصرتها طوال أربعاً وستين يوماً. وبعد ان جاءه خبر وفاة الخليفة يزيد، دعا قائد جيش الشام عبدالله بن الزبير إلى إعلان نفسه خليفة للمسلمين ومرافقة هذا الجيش إلى دمشق. لكن ابن الزبير رفض العرض.

ج - وهكذا نجا ابن الزبير من هزيمة مؤكّدة، لكنه لم يحسن استغلال ظروف وفاة يزيد ليعلن نفسه خليفة. وقد تساءل مؤرّخون عما كان سيحصل لو قبل ابن الزبير بإعلان نفسه خليفة؟ لا سيما وأنه كان قد أصبح يومذاك أقوى شخصية في العالم الإسلامي؟

لقد كان من الممكن انتقال الخلافة إلى آل الزبير لأسباب أهمها:

* سيطرة عبدالله بن الزبير على الحجاز.
* انضمام مصر إليه.
* مبايعة القيسية له.
* رغبة مروان بن الحكم، الذي أصبح خليفة فيما بعد، بمبايعته، وفق ابن الأثير.
* ضعف شأن بني أمية في الشام بعد وفاة يزيد واستخلاف ابنه الصغير.
* قوّة شخصية ابن الزبير وقرابته للنبيّ ﷺ وتاريخ والده الزبير بن العوّام المليء بالإنجازات الكبرى في سبيل العالم الإسلامي.

هذه الحقيقة اكتشفها بنو أميّة فسارعوا إلى مبايعة مروان بن الحكم فتراجعت حظوظ ابن الزبير بالخلافة وتابع في قيادة ثورته ضدّ الحكم الأموي.

د - ارتكب ابن الزبير أخطاءً سياسية واستراتيجية أضعفت ثورته، نذكر منها:

* عدم قبوله بإعلان نفسه خليفة.
* الإشادة بعثمان بن عفان أمام الخوارج الازارقة الذين تفرّقوا عنه إثر ذلك.
* سجن محمّد بن الحنفية وأهل بيته وتوعّدهم بالقتل، الأمر الذي ألّب الشيعة ضدّه ودفع ابن الحنفية إلى مغادرة

الحجاز إلى الشام حيث بقي تحت رعاية الخليفة عبدالملك بن مروان.

* ثقته بأهل العراق وخوض شقيقه مصعب القتال معهم ضدّ جيش الخليفة مروان بن الحكم. فقد تخاذل هؤلاء خلال المواجهة فانهزم مصعب وقتل.

هـ - أما الخليفة عبدالملك بن مروان فانه، وبعد ان قرّر إخضاع ثورة ابن الزبير، أحسن في تطبيق مبادىء الحرب وقواعدها وذلك من خلال:

* تطبيقه استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية بنجاح وإخضاعه العراق أولاً ثمّ الانتقال إلى الحجاز لإنهاء الثورة فيه.
* قيادته بنفسه الجيش المتوجّه إلى العراق لخوض أهم معركة بالنسبة للخليفة الجديد، الأمر الذي رفع معنويات جنوده وحفّزهم للقتال والجهاد في سبيل أمير المؤمنين.
* حسن إدارته للمعركة ضدّ مصعب وذلك من خلال احتفاظه باحتياط عزّز به مقدّمته بعد تراجعها أمام هجوم ابراهيم بن الأشتر. وهكذا انتقلت مقدّمة مروان من الدفاع إلى الهجوم فأمنت الانتصار الكامل للجيش الأموي.
* حسن اختيار القائد الذي عيّنه لقيادة الحملة إلى الحجاز المكلفة بإخضاعه، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي. كما أحسن بتعزيز جيش الحجاج في الحجاز بفرقة شامية، الأمر الذي حقق لجيش الشام مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل، إذ أصبح متفوّقاً على مجموعات عبدالله بن الزبير.

وحقّق الحجاج لجيشه مبدأ الحرب الثاني أي حرية العمل، إذ إنه أخضع الطائف والمدينة وحاصر إبن الزبير في مكة المكرّمة وقطع عنها الطعام والماء. أما مبدأ الحرب الثالث أي الحصيل الأقصى للوسائل، فقد عمل الحجاج على تطبيقه من خلال استعمال منجنيقات خمس للرمي على جميع أنحاء مكّة المكرّمة وصولاً إلى الكعبة المقدّسة، الأمر الذي دفع بجماعات من أهل مكّة إلى الخروج منها والالتحاق بالجيش الشامي وإعلان ولائهم للخليفة الأموي.

و - إن حسن تطبيق الحجاج لمبادىء وقواعد الحرب مكّنه من الانتصار في القتال ضدّ ابن الزبير وإعادة إخضاع الحجاز وإعادته إلى ظلال الخلافة الأموية.

ملحق رقم ٤

سيرة عبدالله بن الزبير

كتب ابن كثير:[١]

«هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو بكر ويقال له أبو حبيب القرشي الأسدي،أول مولود ولد بعد الهجرة بالمدينة من المهاجرين. وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين هاجرت وهي حامل به ثمّ ولدته بقبا أوّل مقدمهم المدينة وقيل إنما ولدته في شوّال سنة اثنتين من الهجرة. قاله الواقدي ومصعب الزبيري وغيرهما، والأول أصح لما رواه أحمد عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن أسماء أنها حملت بعبدالله بمكّة. قالت: فخرجت به وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت بقبا فولدته، ثمّ أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثمّ دعا بتمرة فمضغها ثمّ تفل في فيه، فكان أوّل ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ. قالت: ثمّ حنّكه ثمّ دعا له وتبرّك عليه، فكان أوّل مولود ولد في الإسلام. وهو صحابي جليل، روى عن النبيّ ﷺ أحاديث، وروى عن أبيه وعمر وعثمان وغيرهم. وعنه جماعة من التابعين. وشهد الجمل، مع أبيه وهو صغير، وحضر خطبة عمر بالجابية، ورواها عنه بطولها ثبت ذلك من غير وجه. وقدم دمشق لغزو القسطنطينية أيام معاوية، ثمّ قدمها مرّة أخرى. وبويع بالخلافة أيام يزيد بن معاوية لما مات معاوية بن يزيد فكان على الحجاز واليمن والعراقين ومصر وخراسان وسائر بلاد الشام إلاّ دمشق.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٣٤٠ - ٣٥٢.

وتمت البيعة له سنة أربع وستين وكان الناس بخير في زمانه. وثبت من غير وجه عن هشام عن أبيه عن أسماء أنها خرجت بعبدالله من مكّة مهاجرة وهي حبلى به فولدته بقبا أول مقدمهم المدينة، فأتت به رسول الله ﷺ فحنّكه وسمّاه عبدالله ودعا له. وفرح المسلمون به لأنه كانت اليهود قد زعموا أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يولد لهم في المدينة، فلمّا ولد ابن الزبير كبّر المسلمون. وقد سمع عبدالله بن عمر جيش الشام حين كبّروا عند قتله، فقال: أما والله للذين كبّروا عند مولده خير من هؤلاء الذين كبّروا عند قتله. وأذّن الصديق في أذنه حين ولد رضي الله عنهما، ومن قال إن الصدّيق طاف به حول الكعبة وهو في خرقة فهو واهم والله أعلم. وإنما طاف الصدّيق به في المدينة ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود. وقال مصعب الزبيري: كان عارضا[1] عبدالله خفيفين، وما اتصلت لحيته حتى بلغ ستين سنة. وقال الزبير بن بكار: حدثني علي بن صالح عن عامر بن صالح عن سالم بن عبدالله بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ كلم في غلمة ترعرعوا منهم عبدالله بن جعفر، وعبدالله بن الزبير، وعمر بن أبي سلمة، فقيل يا رسول الله لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر، فأتي بهم إليه فكأنهم تكعكعوا واقتحم عبدالله بن الزبير، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّهُ ابْنُ أَبِيه» وبايَعَه. وقد روي من غير وجه أن عبدالله بن الزبير شرب من دم النبيّ ﷺ: «كَانَ النبيّ ﷺ قد احتجم في طست فأعطاه عبدالله بن الزبير ليريقه فشربه فقال له: «لا تَمَسُّكَ النَّارُ إلاَّ تَحِلَّةَ القَسَم، وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاس وَوَيلٌ لِلنَّاس مِنْكَ». وفي رواية أنه قال له: «يا عَبْدَ الله بِهذَا اذْهَبْ بِهذَا الدَّم فَأَهْرِيقَهُ حَيثُ لا يَرَاكَ أَحَدٌ»، فَلَمَّا بعد عمد إلى ذلك الدم فشربه، فلمّا رجع قال: «ما صَنَعْتَ بالدَّم؟» قال: إنّي شربته لأزداد به علماً وإيماناً، وليكون شيء من جسد رسول الله ﷺ في جسدي، وجسدي أولى به من الأرض. فقال: «أَبْشِر لا تَمَسُّكَ النَّارُ أبَداً. وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاس وَوَيْلٌ للنَّاس مِنْكَ».

---

(١) العارض: صفحة الخد.

وقال الحميدي عن سفيان بن عيينة عن هشام بن عروة عن ابن المنكدر قال: لو رأيت ابن الزبير يصلّي كأنّه غصن شجرة يصفقها الريح، والمنجنيق يقع ها هنا وها هنا. قال سفيان: كأنه لا يبالي به ولا يعده شيئاً. وحكى بعضهم لعمر بن عبد العزيز أن حجراً من المنجنيق وقع على شرفة المسجد فطارت فلقة منه فمرت بين لحية ابن الزبير وحلقه، فما زال عن مقامه ولا عرف ذلك في صورته، فقال عمر بن عبد العزيز: لا إله إلاّ الله، جاء ما وصفت. وقال عمر بن عبد العزيز يوماً لابن أبي مليكة: صف لنا عبدالله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلداً قط ركب على لحم ولا لحماً على عصب ولا عصباً على عظم مثله، ولا رأيت نفساً ركبت بين جنبين مثل نفسه. ولقد مرّت آجرة من رمي المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع ولا قطع لها قراءته، ولا ركع دون ما كان يركع، وكان إذا دخل في الصلاة خرج من كلّ شيء إليها. ولقد كان يركع فيكاد الرخم[١] أن يقع على ظهره ويسجد فكأنه ثوب مطروح.

فلمّا مات يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد من بعده قريباً، استفحل أمر عبدالله بن الزبير جداً، وبويع له بالخلافة في جميع البلاد الإسلامية، وبايع له الضحاك بن قيس بدمشق وأعمالها. ولكن عارضه مروان بن الحكم في ذلك وأخذ الشام ومصر من نواب ابن الزبير، ثمّ جهّز السرايا إلى العراق ومات وتولّى بعده عبدالملك بن مروان فقتل مصعب بن الزبير بالعراق وأخذها، ثمّ بعث إلى الحجاج فحاصر ابن الزبير بمكّة قريباً من سبعة أشهر حتى ظفر به في يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين.

وكانت ولاية ابن الزبير في سنة أربع وستين، وحج بالناس فيها كلّها، وبنى الكعبة في أيام ولايته كما تقدّم، وكساها الحرير، وكانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع[٢] والمسوح.[٣] وكان ابن الزبير عالماً عابداً

---

(١) الرخم: طائر من الجوارح يشبه النسر.

(٢) النطع: البساط.

(٣) المسوح: المناديل.

مهيباً وقوراً كثير الصيام والصلاة، شديد الخشوع جيّد السياسة.

وقيل: إن عبدالله بن الزبير غسلته أمه أسماء بعد أن قطعت مفاصيله وحنّطته وطيّبته وكفّنته وصلّت عليه وحملته إلى المدينة، فدفنته بدار صفية بنت حييّ. ثمّ إن هذه الدار زيدت في مسجد النبيّ ﷺ فهو مسجون في المسجد مع النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر، وقد ذكر ذلك غير واحد فالله علم».

الفصل الخامس
الثورات الأخرى ضدّ الحكم الأموي

حفلت بداية الحكم الأموي بتغيير جذري في مفاهيم الحكم والخلافة خاصّة مع معاوية بن أبي سفيان الذي اعتمد مفهوم الوراثة في الحكم واتخذ مظاهر جديدة للحاكم لم تكن معتمدة لدى من سبقه من الخلفاء، مشدّداً على الناحية الزمنية في القيادة ومحيطاً نفسه بمظاهر العظمة والأبّهة.

واعتبر العديد من القيادات الإسلامية في ذلك الحين ان معاوية قد استولى على الحكم بالحيلة والقوّة وباستخدام أساليب غير الأساليب التي اعتمدها النبيّ ﷺ والخلفاء الراشدون. كما اعتبر هؤلاء أن انتقال الخلافة إلى يزيد ثمّ إلى معاوية بن يزيد ومنه إلى فرع آل الحكم هو أمر غير شرعي ينبغي مقاومته وتغييره.

وهكذا كثرت الثورات ضدّ الحكم الأموي، من مطالبة الحسين بن علي بالخلافة، إلى ثورات التوّابين والمختار الثقفي وعبدالله بن الزبير التي سبق الحديث عنها، إلى ثورات مطرّف بن المغيرة بن شعبة وزيد بن علي بن الحسين وعبدالرحمن بن الأشعث وثورات الخوارج التي سنتكلّم عنها في القسم الثالث من هذا الكتاب، وذلك رغم ان هذه الثورات حصلت في حقب تاريخية مختلفة.

أولاً – ثورة مطرّف بن المغيرة بن شعبة

كان المغيرة بن شعبة من الأبطال الذين أبلوا بلاءً حسناً في خدمة الدولة الأمويّة، رغم أنه كان قبل ذلك في صفوف

الإمام عليّ بن أبي طالب وقاتل معه ضدّ معاوية بن أبي سفيان ولعب دوراً بارزاً في معركة صفّين.

وكان أبناء المغيرة، مطرّف وحمزة وعروة، من المقرّبين والمشاركين في مسؤوليات الحكم الأموي. وكان المطرّف نفسه والياً على المدائن في عهد عبدالملك بن مروان وكان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالحجاج بن يوسف. لكن مطرّفاً لم يستطع ان يتقبّل طويلاً استبداد الحجاج وظلمه وانحرافه عن المبادىء الإسلامية، فتمرّد على هذا الواقع وخلع الحجاج وعبدالملك.

كتب ابن الأثير عن ظروف خروج مطرّف:[1]

«قيل: إن بني المغيرة بن شعبة كانوا صلحاء أشرافاً بأنفسهم مع شرف أبيهم ومنزلتهم من قومهم، فلمّا قدم الحجاج ورآهم علم أنهم رجال قومهم. فاستعمل عروة على الكوفة، ومطرّفاً على المدائن، وحمزة على همذان، وكانوا في أعمالهم أحسن الناس سيرة وأشدّهم على المريب. وكان مطرّف على المدائن عند خروج شبيب وقربه منها، فكتب إلى الحجاج يستمدّه فأمدّه بسبرة بن عبدالرحمن بن مخنف وغيره. وأقبل شبيب حتى نزل بهرسير، وكان مطرف بالمدينة العتيقة وهي التي فيها إيوان كسرى، فقطع مطرف الجسر وبعث إلى شبيب يطلب إليه أن يرسل بعض أصحابه لينظر فيما يدعون. فبعث إليه عدّة منهم فسألهم مطرف عما يدعون إليه فقالوا: ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن الذي نقمنا من قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلّط بالجبرية. فقال لهم مطرف: ما دعوتم إلاّ إلى حق وما نقمتم إلاّ جوراً ظاهراً، أنا لكم متابع فبايعوني على ما أدعوكم إليه ليجتمع أمري وأمركم. فقالوا: اذكره فإن يكن حقاً نجبك إليه. قال: أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة على أحداثهم وندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمِّرون من يرتضون على مثل هذه الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب. فإن العرب إذا علمت إنما يُراد بالشورى الرضا من قريش رضوا وكَثُر تبعكم وأعوانكم.

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٧٨ - ١٧٩.

فقالوا: هذا ما لا نجيبك إليه، وقاموا من عنده وترددوا بينهم أربعة أيام فلم تجتمع كلمتهم فساروا من عنده. وأحضر مطرف نصحاءه وثقاته فذكر لهم ظلم الحجاج، وعبدالملك وأنه ما زال يؤثر مخالفتهم ومناهضتهم وأنه يرى ذلك ديناً لو وجد عليه أعواناً. وذكر لهم ما جرى بينه وبين أصحاب شبيب وأنهم لو تابعوه على رأيه يخلع عبدالملك، والحجاج. واستشارهم فيما يفعل فقالوا له: اخفِ هذا الكلام ولا تظهره لأحد. فقال له يزيد بن أبي زياد مولى أبيه المغيرة بن شعبة: والله لا يخفى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة وليُزادنّ على كلّ كلمة عشر أمثالها، ولو كنت في السحاب لالتمسَكَ الحجاج حتى يهلكك. فالنجاء النجاء. فوافقه أصحابه على ذلك فسار عن المدائن نحو الجبال، فلقيه قبيصة بن عبدالرحمن الخثعمي بدَير يزدجرد فأحسن إليه وأعطاه نفقة وكسوة فصحبه ثمّ عاد عنه. ثمّ ذكر مطرف لأصحابه بالدسكرة ما عزم عليه ودعاهم إليه وكان رأيه خلع عبدالملك، والحجاج والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوه. فبايعه البعض على ذلك ورجع عنه البعض».

لم ينضم الخوارج إلى ثورة مطرّف، إلاّ انه رغم ذلك سار نحو حلوان حيث قاتل عاملها من قبل الحجاج سويداً بن عبدالرحمن السعدي ومعه جماعات من الأكراد الذين أوقع بهم مطرّف وقتل العديد منهم.[1] ثمّ سار إلى همذان وبها أخوه حمزة فاستمدّه بالمال والسلاح فأرسلها له سراً.

وتابع مطرّف سيره حتى بلغ قم وقاشان فبعث عماله على تلك النواحي إلى الناس يستمدّهم فجاءه سويد بن سرحان الثقفي وبكير بن هارون النخعي في مائة رجل.[2]

عندما بلغت الأمور هذا الحدّ كتب البراء ابن قبيصة عامل الحجاج على أصبهان، إلى

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٩٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ١٨٠.

الحجاج يعلمه بخبر مطرف ويستمدّه بالرجال، فأمدّه الحجاج بالمقاتلين. وكتب الحجاج إلى عدي بن زياد عامل الري يأمره بأن يجتمع والبراء على محاربة مطرّف، فسار إليه واجتمعا وكان عدي هو الأمير وعدد جنده ستة آلاف.[(١)]

خرج عدي وجعل على ميمنته عبدالله ابن زهير وعلى ميسرته عمراً بن هبيرة. أما مطرّف فوضع على ميمنته الحجاج بن جارية، وعلى ميسرته الربيع بن يزيد الأسدي، وعلى الخيل سليمان بن صخر المزني.

وجرت مبارزات فردية، ثمّ حملت ميمنة مطرّف على ميسرة عدي فاقتتلوا طويلاً. ثمّ حملت ميسرة مطرف على ميمينة عدي فاقتتلوا طويلاً أيضاً فقتل الأسدي قائد ميسرة مطرف فانكشفت ميسرته. ثمّ حملت ميسرة عدي على ميمنة مُطرف فاقتتلوا قتالاً شديداً فانكشفت ميمنة مطرّف حتى وصل عدوّه إليه. وحمل ابن اقيصر الخثعمي على قائد فرسان مطرّف فقتل هذا الأخير وانكشفت فرسانه بعد قتال بينها وبين فرسان عدي كان أشدّ قتال في ذلك اليوم.[(٢)]

أمّا نهاية القتال فقد ذكرها ابن الأثير، فكتب:[(٣)]

«فلمّا دنوا منه اصطفوا للحرب واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم أصحاب مطرف وقتل مطرف وجماعة كثيرة من أصحابه قتله عمير ابن هبيرة الفزاري وحمل رأسه فتقدّم ذلك عند بني أمية. وقاتل ابن هبيرة ذلك اليوم وأبلى بلاءً حسناً، وقتل يزيد بن أبي زياد مولى المغيرة وكان صاحب راية مطرف. وقتل من أصحابه عبدالرحمن بن عبدالله بن عفيف الأزدي وكان ناسكاً صالحاً. وبعث عدي إلى الحجاج أهل البلاد فأكرمهم وأحسن إليهم».

أما الطبري فكتب عن نهاية القتال:[(٤)]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٩٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٩٩ - ٦٠٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦٠٠.

«قال: ولم يزل مطرف يقاتل حتى قتل، واحتزّ رأسه عمر بن هبيرة وذكر أنه قتله، وقد كان أسرَعَ إليه غير واحد، غير ان ابن هبيرة احتزّ رأسه».

التقييم:

لم يحالف حركة مطرف النجاح نظراً لسرعة الحجاج في التصدّي لها وقتل صاحبها. ومما لا شكّ فيه ان الظروف السياسية لم تكن مناسبة لهذه الحركة كي تنجح، لأن الدولة الأموية كانت في مرحلة قوّة، وكان على العراق أقوى ولاتها الذي أمسك ولايته بقبضة حديدية، وهو الحجاج. كما أن ثورة مطرف كانت تفتقر إلى القاعدة الشعبية الواسعة والحلفاء الأقوياء، وكان قد حاول استقطاب فرقة شبيب من الخوارج من دون نتيجة. أما القاعدة الشعبية المعارضة، فإنها لم تلتف حوله كونها اعتبرته من أهل الحكم ومن المقرّبين للحجاج ولبني أمية.

لكلّ ما تقدّم نرى أن حركة مطرف كانت شخصية وذاتية، لذلك فشلت، كما فشلت ثورات أخرى مماثلة.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٧ - ٣٨.

ثانياً – ثورة عبدالرحمن ابن الأشعث

تشبه ثورة عبدالرحمن بن الأشعث ثورة مطرّف لأسباب أبرزها:

- كلاهما كان من الموالين للحكم الأموي.
- كلاهما كان من عمّال الحجاج، مطرّف على المدائن، وعبدالرحمن على سجستان.
- أسباب الثورتين كانت لخلاف مع الحجاج بن يوسف.

لكن الفارق ما بين الثورتين أن ثورة ابن الأشعث قد استقطبت قاعدة جماهيرية واسعة، فيما بقيت ثورة مطرّف من دون هذه القاعدة.

أ - أسباب الثورة وظروفها:

وعن أسباب وظروف الثورة كتب ابن كثير:(١)

«وسبب هذه الفتنة أن ابن الأشعث كان الحجاج يبغضه وكان هو يفهم ذلك ويضمر

له السوء وزوال الملك عنه. فلمّا أمّره الحجاج على الجيش وأمره بدخول بلاد رتبيل ملك الترك، فمضى وصنع ما قدمناه من أخذه بعض بلاد الترك، ثمّ رأى لأصحابه أن يقيموا حتى يتقوّوا إلى العام المقبل، فكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه في ذلك ويستضعف عقله ويقرّعه بالجبن والنكول[1] عن الحرب، ويأمره حتماً بدخول بلاد رتبيل. ثمّ أردف ذلك بكتاب ثان ثمّ ثالث مع البريد، وكتب في جملة ذلك: يا ابن الحائك الغادر المرتد، امض إلى ما أمرتك به من الإيغال[2] في أرض العدو وإلاّ حلّ بك ما لا يطاق. وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث، ويقول هو أهوج أحمق حسود، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقاتله، ودلّ عبيدالله بن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله. وجده الأشعث ارتدّ عن الإسلام وما رأيته قط إلاّ هممت بقتله. ولما كتب الحجاج إلى ابن الأشعث بذلك وترادفت إليه البرد بذلك، غضب ابن الأشعث وقال: يكتب إلي بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي ولا من بعض خدمي لخوره وضعف قوّته؟ أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غزالة - يعني أن غزالة زوجة شبيب حملت على الحجاج وجيشه فانهزموا منها وهي امرأة لما دخلت الكوفة».

وهكذا نرى ان ثورة ابن الأشعث كانت تتعلّق بشخصية الحجاج الطاغية وسوء معاملته لأهل العراق وخاصة الموالي، وكونه كان يرسل الحملات أحياناً من دون هدف محدّد، إنما فقط لإبعاد المقاتلين من أهل العراق عن بلادهم خوفاً من ثورتهم عليه.

لذلك كانت لهذه الثورة أسباب اقليمية تتلخّص بكراهية العراقيين للحكم الأموي وللحجاج خاصة؛ وأسباب اقتصادية نظراً لسوء أحوال الموالي وانهيار اقتصاد البلاد؛ وأسباب سياسية تتلخّص بالعقوبات الجماعية والتجنيد الإلزامي وإرسال الحملات من دون هدف عسكري محدّد،

(١) النكول: النكوص والجبن.

(٢) الايغال: الدخول في الأعماق.

بل بهدف إبعاد أهل العراق عن الساحة السياسيّة الداخليّة. لهذه الأسباب نرى ان ابن الأشعث تمكّن من استقطاب العراقيين الذين لم يتمكّن مطرّف من جمعهم حوله.

ولنستمع إلى ابن الأشعث يحرّض العراقيين على الثورة بقوله:[1]

«أيّها النّاس، إني لكم ناصح، ولصلاحِكم مُحِب، ولكم في كلّ ما يحيط بكم نفعه ناظر. وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوّكم رأيُ استشرت فيه ذوي أحلامكم، وأولي التجربة للحَرب منكم، فرضوه لكم رأياً، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً. وقد كتبت إلى أميركم الحجاج، فجاءني منه كتاب يعجّزني ويضعّفني، ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدوّ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس. وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مَضَيتم، وآبي إذا أبيتم. فثار إليه الناس فقالوا: لا، بل نأبى على عدوّ الله، ولا نسمع له ولا نطيع».

ب - القتال:

وهكذا وثب الناس إلى عبدالرحمن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق.

ثمّ تحرّك جيش ابن الأشعث الذي جعل عطية بن عمرو العنبري على مقدّمته، وعلى كرمان حريثة بن عمرو التميمي. فلمّا بلغ الحجاج خلعه كتب إلى عبدالملك بن مروان بالخبر وطلب منه المدد، ثمّ سار حتى نزل البصرة. أما الخليفة، فقد جهز الجند وأرسلهم تباعاً إلى الحجاج الذي انطلق من البصرة باتجاه سجستان فنزل تستر وجعل على مقدّمته دجيل.[2]

والتقت مقدّمة ابن الأشعث بمقدّمة الحجاج فانهزمت هذه الأخيرة. وعندما علم الحجاج بهزيمة مقدمته تراجع إلى البصرة فتبعه جيش ابن الأشعث حيث جرى قتال قتل خلاله كثيرون من جند الحجاج الذي انسحب إلى الزاوية وترك البصرة لأهل العراق.

ودخل ابن الأشعث البصرة منتصراً فبايعه أهلها راغبين في قتال الحجاج ومن معه

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦٢٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٠٠.

من أهل الشام، كما وافقوا على خلع عبدالملك بن مروان وكان ذلك في آخر ذي الحجة. وهكذا تحوّلت الحملة التي أرسلها الحجاج لقتال رتبيل ملك كابل، إلى ثورة ضده.

كتب ابن الأثير عن القتال بين عبدالرحمن بن الأشعث والحجاج:[١]

«قيل: في المحرم من هذه السنة[٢] اقتتل عسكر الحجاج، وعسكر عبدالرحمن بن الأشعث قتالاً شديداً فتزاحفوا في المحرم عدة دفعات. فلما كان ذات يوم في آخر المحرم اشتدّ قتالهم فانهزم أصحاب الحجاج حتى انتهوا إليه وقاتلوا على خنادقهم. ثمّ إنهم تزاحفوا آخر يوم من المحرم فجال أصحاب الحجاج وتقوّض صفهم فجثا الحجاج على ركبتيه وقال: لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وعزم على أنه لا يفر. فحمل سفيان بن الأبرد الكلبي على الميمنة التي لعبدالرحمن فهزمها وانهزم أهل العراق وأقبلوا نحو الكوفة مع عبدالرحمن وقتل خلق كثير منهم[٣] عقبة بن عبد الغافر الأزدي وجماعة من القراء قتلوا ربضة واحدة معه. ولمّا بلغ عبدالرحمن الكوفة تبعه أهل القوة وأصحاب الخيل من أهل البصرة، واجتمع من بقي في البصرة مع عبدالرحمن ابن عباس بن ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب فبايعوه فقاتل بهم الحجاج خمس ليالٍ أشدّ قتال رآه الناس ثمّ انصرف فلحق بابن الأشعث وتبعه طائفة من أهل البصرة».

وكان الحجاج قد استعمل على الكوفة، عند مسيره إلى البصرة، عبدالرحمن الحضرمي، فقصده مطر بن ناجية اليربوعي، فتحصّن عبدالرحمن في القصر بمن معه من أهل الشام. لكن اليربوعي استولى على القصر وطرد الحضرمي منه. واستقبل أهل الكوفة ابن الأشعث، عندما وصل إليها، استقبال الفاتحين. لكن مطراً تحصّن في القصر ولم يبايعه، فاصعد ابن الأشعث

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٠٢.

(٢) سنة ٨٢ هـ.

(٣) قيل انه قتل حوالى ١٥٠٠ من جند الحجاج.

الناس في السلالم إلى القصر وأخذه عنوة. وهكذا سيطر ابن الأشعث أيضاً على الكوفة.

ج - وقعة دير الجماجم:

أدرك الحجاج خطورة استيلاء ابن الأشعث على الكوفة وتخوّف من التأييد الكبير لثورته، فقرر أن يسير إليه بعد ان طلب المدد من الخليفة. وسلك الحجاج طريق الصحراء على الضفة اليمنى من الفرات وعسكَرَ في موقع «دير قرة» لتسهيل وصول الامدادات إليه من دمشق.

أما ابن الأشعث فقد سار بجيوشه ونزل دير الجماجم.

كتب الطبري عن القتال في دير الجماجم:[1]

«واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدَير الجماجم والقرّاء من أهل المصرَين، فاجتمعوا جميعاً على حرب الحجاج، وجمَعهم عليه بغضهم والكراهية له، وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم. وجاءت الحجاج أيضاً أمدادُهُ من قِبَل عبدالملك من قبل أن ينزل دَير قُرَّة، وقد كان الحجاج أراد قبل أن ينزل دير قُرَّة أن يرتفع إلى هِيت وناحية الجزيرة إرادة أن يقترب من الشام والجزيرة فيأتيه المدد من الشام من قريب، ويقترب من رَفاغة سِعر الجزيرة. فلمّا مرّ بدير قرة قال: ما بهذا المنزل بُعدٌ من أمير المؤمنين، وإنّ الفلاليج وعين التمر إلى جَنبنا. فنزل فكان في عسكره مخندقاً وابن محمّد في عسكره مخندقاً، والناس يخرجون في كلّ يوم فيقتتلون، فلا يزال أحدهما يُدني خَندقه نحو صاحبه، فإذا رآه الآخر خندقَ أيضاً، وأدنى خندقه من صاحبه. واشتدّ بينهم. فلمّا بلغ ذلك رؤوس قريش وأهل الشام قَبلَ عبدالملك ومواليه قالوا: إن كان إنّما يُرضي أهل العراق أن يُنزع عنهم الحجاج، فإنّ نَزع الحجاج أيسر من حَرْب أهل العراق، فانزِعه عنهم تُخلص لك طاعتهم، وتحقن به دماءنا ودماءهم. فبعث ابنه عبدالله بن عبدالملك، وبعث إلى أخيه

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦٣٠.

محمّد بن مروان بأرض المَوصل يأمره بالقدوم عليه، فاجتمعا جميعاً عنده، كلاهما في جُندَيهما. فأمرهما أن يَعرضا على أهل العراق نزعَ الحجاج عنهم، وأن يُجري عليهم أعطياتهم كما تُجرى على أهل الشام، وأن ينزل ابن محمّد أيّ بلد من العراق شاء، يكون عليه والياً ما دام حياً. وكان عبدالملك والياً. فإن هم قبلوا ذلك عُزل عنهم الحجاج، وكان محمد بن مروان أمير العراق. وإن أبوا أن يقبلوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام ووليّ القتال، ومحمّد بن مروان وعبدالله بن عبدالملك في طاعته. فلم يأتِ الحجاج أمرٌ قطّ كان أشدّ عليه ولا أغيظ له ولا أوجَعَ لقَلبه منه مخافة أن يقبلوا فيُعزَل عنهم».

لم يقبل أهل العراق بطروحات الخليفة فتابع الطبري روايته:[١]

«فرجع محمّد بن مروان وعبدالله بن عبدالملك إلى الحجاج فقالا: شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك، فإنّا قد أُمرنا أن نسمع لك ونطيع. فقال: قد قلت لكما: إنه لا يُراد بهذا الأمر غيركما. ثمّ قال: إنما أقاتل لكما، وإنما سلطاني سلطانكما، فكانا إذا لَقِياه سلّما عليه بالإمرة. وقد زَعَم أبو يزيد السَّكسَكيّ أنه إنما كان أيضاً يسلّم عليهما بالإمرة إذا لقيَهما، وخلّياه والحرب فتولاّها.

قال أبو مخنَف: فحدّثني الكلبيّ محمّد ابن السائب أنّ الناس لما اجتمعوا بالجماجم سمعت عبدالرحمن بن محمّد وهو يقول: ألا إنّ بني مروان يعيَّرون بالزّرقاء، والله ما لهم نسبٌ أصحّ منه إلاّ أن بني أبي العاص أعلاجٌ من أهل صَفّوريَة. فإن يكن هذا الأمر في قريش فعني فُقِئت بيضة قريش. وإن يك في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس - ومدّ بها صوته يُسمع الناس. وبرزوا للقتال، فجعل الحجاج على ميمنته عبدالرحمن بن سُليم الكلبيّ، وعلى مَيسرته عُمارَة بن تميم اللّخميّ، وعلى خيله سُفيان بن الأبرد الكلبي، وعلى رجاله عبدالرحمن بن حبيب الحكميّ. وجعل ابن الأشعث على ميمنته الحجاج بن جارية الخثعميّ، وعلى ميسرته الأبرد بن قرّة التميميّ، وعلى خَيلِه عبدالرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦٣١.

الهاشميّ، وعلى رجاله محمّد بن سعد بن أبي وقّاص، وعلى مجفّفته عبدالله بن رِزام الحارثيّ، وجعل على القرّاء جَبلة بن زحر بن قيس الجعفيّ. وكان معه خمسة عشر رجلاً من قريش، وكان فيهم عامر الشعبيّ، وسعيد ابن جبير وأبو البختريّ الطائيّ، وعبدالرحمن بن أبي ليلى.

ثمّ إنهم أخذوا يتزاحفون في كلّ يوم ويقتتلون، وأهل العراق تأتيهم موادّهم من الكوفة ومن سوادها فيما شاؤوا من خِصبهم. وإخوانهم من أهل البصرة وأهل الشام في ضيق شديد، قد غلت عليهم الأسعار، وقَلّ عندهم الطعام وفقدوا اللّحم، وكانوا في حصار، وهم على ذلك يُغادون أهل العراق ويراوحونهم فيقتتلون أشدّ القتال. وكان الحجاج يُدني خندقه مرّة وهؤلاء أخرى، حتى كان اليوم الذي أصيب فيه جبلة بن زحر. ثمّ إنه بعث إلى كُمَيل بن زياد النخعيّ، وكان رجلاً رَكيناً وقوراً عند الحرب، له بأس وصوت في الناس، وكانت كتيبته تُدعى كتيبة القرّاء، يُحمل عليهم فلا يكادون يبرحون، ويحملون فلا يكذبون، فكانوا قد عرفوا بذلك. فخرجوا ذات يوم كما كانوا يخرجون، وخرج الناس، فعبّى الحجاج أصحابه، ثمّ زحف في صفوفه، وخرج ابن محمّد في سبعة صفوف بعضها على أثر بعض، وعبّى الحجاج لكتيبة القرّاء التي مع جَبلَة ابن زحر ثلاث كتائب، وبعث عليها الجرّاح بن عبدالله الحَكَميّ، فأقبلوا نحوهم.

قال أبو مخنف: حدّثني أبو يزيد السَّكْسكيّ، قال: أنا والله في الخيل التي عُبِّيت لجبلة بن زَحر، قال: حملنا عليه وعلى أصحابه ثلاث حملات، كلّ كتيبة تحمل حملة، فلا والله ما استنقصنا منهم شيئاً».

وهكذا، ومع الإمدادات التي وصلت للحجاج بقيادة محمّد بن مروان حصلت معركة دير الجماجم وكانت أعظم معركة شهدها العراق منذ صفّين، وانتهت بهزيمة ابن الأشعث وفراره إلى البصرة. لكن الحجاج لحق به واشتبك معه في معركة جديدة سميت «وقعة مسكن» كتب عنها ابن الأثير:(١)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢١٢ - ٢١٣.

د - وقعة مسكن:

«ولمّا انهزم عبدالرحمن أتى البصرة واجتمع إليه من المنهزمين جمع كثير وكان فيهم عبيدالله بن عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس القرشي. وكان بالمدائن محمّد بن سعد بن أبي وقاص فسار إليه الحجاج فلحق ابن سعد بعبدالرحمن. وسار عبدالرحمن نحو الحجاج ومعه جمع كثير فيهم بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني وقد بايعه خلقٌ كثير على الموت. فاجتمعوا بمسكن وخندق عبدالرحمن على أصحابه وجعل القتال من وجه واحد. وقدم عليه خالد بن جرير بن عبدالله من خراسان في ناس من بعث الكوفة فاقتتلوا خمسة عشر يوماً من شعبان أشدّ قتال فقتل زياد بن غنم القيني وكان على مسالح الحجاج فهدّه ذلك وهدّ أصحابه، وبات الحجاج يحرّض أصحابه. ولمّا أصبحوا باكروا القتال فاقتتلوا أشدّ قتال كان بينهم فانكشفت خيل سفيان ابن الأبرد، فأمر الحجاج عبدالملك بن المهلب فحمل على أصحاب عبدالرحمن وحمل أصحاب الحجاج من كلّ جانب فانهزم عبدالرحمن وأصحابه، وقتل عبدالرحمن ابن أبي ليلى الفقيه، وأبو البختري الطائي. ومشى بسطام بن مصقلة بن هبيرة في أربعة آلاف فارس من شجعان أهل الكوفة والبصرة فكسروا جفون سيوفهم وحثّ أصحابه على القتال فحملوا على أهل الشام فكشفوهم مراراً، فدعا الحجاج الرماة فرموهم وأحاط بهم الناس فقتلوا إلاّ قليلاً ومضى ابن الأشعث نحو سجستان.

وقد قيل في هزيمة عبدالرحمن بمسكن غير هذا، والذي قيل: إنه اجتمع هو والحجاج بمسكن وكان عسكر ابن الأشعث والحجاج بين دجلة والسيب والكرخ فاقتتلوا شهراً ودونه. فأتى شيخ فدل الحجاج على طريق من وراء الكرخ في أجمة وضحضاح من الماء فأرسل معه أربعة آلاف وقال لقائدهم: إن صدق فاعطه ألف درهم، فإن كذب فاقتله، فسار بهم. ثمّ إن الحجاج قاتل أصحاب عبدالرحمن فانهزم الحجاج فعبر السيب ورجع ابن الأشعث إلى عسكره آمناً ونهب عسكر الحجاج. فأمنوا وألقوا السلاح فلم يشعروا نصف الليل إلاّ والسيف يأخذهم من تلك السرية فغرق من أصحاب عبدالرحمن أكثر ممن قتل. ورجع الحجاج في

عسكره على الصوت فقتلوا من وجدوا فكان عدة من قتل أربعة آلاف منهم عبدالله بن شداد بن الهاد، وبسطام بن مصقلة، وعمرو بن ضبيعة الرقاشي، وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم».

ولجأ ابن الأشعث إلى رتبيل ملك كابل، لكن الحجاج أغراه بالأموال لتسليمه، فاستجاب للطلب. غير أن ابن الأشعث، وفي طريق العودة، غافل حراسه وألقى بنفسه من علوّ كبير في مكان يقال له «الرّخج» فتوفي، ولم يتمكّن الحجاج من القبض عليه حياً.

وعن نهاية ابن الأشعث كتب ابن كثير:[1]

«وقد كان الحجاج بعث كميناً يأتون جيش ابن الأشعث من ورائه. ثمّ تواقف الحجاج وابن الأشعث وهرب الحجاج بمن معه وترك معسكره، فجاء ابن الأشعث فاحتاز ما في المعسكر وبات فيه. فجاءت السرية إليهم ليلاً وقد وضعوا أسلحتهم فمالوا عليهم ميلة واحدة، ورجع الحجاج بأصحابه فأحاطوا بهم فاقتتلوا قتالاً شديداً. وقتل من أصحاب ابن الأشعث خلق كثير منهم في دجله ودجيل. وجاء الحجاج إلى معسكرهم فقتل من وجده فيه، فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف، منهم جماعة من الرؤساء والأعيان، واحتازوه بكماله. وانطلق ابن الأشعث هارباً في ثلاثمائة [من أصحابه] فركبوا دجيلاً في السفن وعقروا دوابهم وجازوا إلى البصرة، ثمّ ساروا من هنالك إلى بلاد الترك».

هـ - تقييم ثورة ابن الأشعث:

كانت ثورة ابن الأشعث من الثورات الكبرى التي هزّت البيت الأموي وجعلته يساوم قائدها متخلياً عن واليه القوي الحجاج بن يوسف. ورغم ان قائد الثورة كان مساوماً، وقد رأينا انه فاوض قبيل معركة «دير الجماجم»، ورغم أنه متحدّر من أسرة ملكية، ورغم أن هدفه كان الحصول على ولاية والمشاركة في الحكم، فإن ابن الأشعث استقطب حوله مجموعات كبيرة من أهل

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٦ - ٥٧.

العراق. وقد يكون هؤلاء تبعوه لحقدهم على البيت الأموي، وخاصّة على واليه القوي الحجاج بن يوسف الذي نكّل بهم وكان عنيفاً في التعامل معهم.

لذلك يمكننا القول إن من أسباب فشل الثورة تردد قائدها وعدم اقتناعه بقضية يدافع عنها، بل ملاحقة طموحاته الشخصية، وحقده وكراهيته للحجاج. كما أن فقدان الانسجام بين قائد الثورة المتحدّر من أصل ملكي وبين قاعدتها التي تضمّ أناساً قاسوا الاضطهاد والحرمان، ساهم في انفضاض هؤلاء عن قيادتهم عندما لمسوا ضعفها وتخاذلها.

ومن أسباب فشل الثورة أيضاً فقدان التنظيم في قياداتها، واعتمادهم فقط على الحماس والحقد ضدّ البيت الأموي لتأليب الرأي العام العراقي ضدّه. في المقابل كان الحكم الأموي حكماً راسخاً وقوياً، يتحكّم بجيوش نظامية تكنّ له الإخلاص في التبعيّة، وعلى رأسها والٍ قوي وقدير ومصمم على النصر.

أمّا نتائج الثورة فكانت عودة العراق إلى بيت الطاعة وتثبيت واليه العنيف والمصمّم على إخضاعه، الحجاج بن يوسف، الذي لم يكتفِ بإخضاع الثوار والحصول على تقدير الخليفة ورضاه، إنما قام بحملة تطهيريّة واسعة برز فيها عنفه وتعطّشه إلى سفك الدماء. فقد لاحق مؤيّدي ابن الأشعث في حملة سقط خلالها آلاف الضحايا، ولا سيما من الموالي والعلماء الذين صبّ عليهم الحجاج جام غضبه.

كتب ابن كثير عن الحملة التطهيرية ما يأتي:[1]

«ثمّ شرع الحجاج في تتبّع أصحاب ابن الأشعث، فجعل يقتلهم مثنى وفرادى، حتى قيل إنه قتل منهم بين يديه صبراً مائة ألف وثلاثين ألفاً، قاله النضر بن شميل عن هشام بن حسّان، منهم محمّد بن سعد بن أبي وقاص، وجماعات من السادات والأخيار، والعلماء الأبرار».

وهكذا انتهت ثورة ابن الأشعث بعدما هزّت دعائم الحكم الأموي في العراق.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٧.

ثالثاً – ثورة زيد بن علي ابن الحسين

كما سبق القول، نقم أهل العراق على بني أمية، وبلغت النقمة أشدّها في عهد والي العراق الحجاج بن يوسف الذي اعتمد سياسة الفتوح المزعومة والحملات العسكرية إلى المناطق البعيدة التي ليس لها من هدف سوى إبعاد المقاتلين من أهل العراق المعارضين للنظام الأموي عن الساحة العراقية خوفاً من ثوراتهم عليه.

وقد رأينا ثورات عدّة حصلت في العراق وكان هدفها القضاء على الحكم الأموي فيه، كثورة عبدالرحمن بن الأشعث.

أما ثورة زيد بن علي بن الحسين والتي انبثقت عنها فرقة الزيدية، خاصة في مكّة، فتعتبر من الثورات التي هزّت بعنف ركائز الحكم الأموي، وكانت مقدّمة لما جرى بعد ذلك في خراسان على يد أبي مسلم الخراساني.

كان زيد من البارزين في الأسرة العلويّة، وهو حفيد الإمام الحسين، لذلك كانت له طموحات سياسية مهمّة، الأمر الذي جعله يلين أمام إلحاح أهل الكوفة عليه بالثورة على الأمويين، رغم أن التجارب السابقة لأسرته مع أهل الكوفة كانت غير مشجّعة على الاستجابة، ورغم نصائح أقاربه بعدم الإقدام على هذه الخطوة.

إلاّ ان تعرّضه للإساءة من قبل يوسف بن عمر والي العراق في عهد هشام بن عبدالملك دفعه إلى الثورة التي لم يعلنها فوراً، إنما راح يستعدّ لها ويتصل بالقبائل في المدن العراقية لتأمين مساندتهم في تحرّكه الذي أعلنه السنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠ م في الأول من صفر.

نقل ابن كثير تفاصيل تحرّك زيد وثورته وصولاً إلى قمعها ومقتله فكتب:[١]

«ثمّ دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائة ففيها كان مقتل زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة، أمرهم في أوّل هذه السنة بالخروج والتأهّب له، فشرعوا في أخذ الأهبة

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٤٢ – ٣٤٣.

لذلك. فانطلق رجل يقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره، وهو بالحيرة يومئذ، فأخبره خبر زيد ابن علي وعند من يكون من أهل الكوفة، فبعث يوسف بن عمر يتطلّبه ويلحّ في طلبه. فلمّا علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد ابن علي فقالوا له: ما قولك يرحمك الله في أبي بكر وعمر؟ فقال: غفر الله لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرّأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلاّ خيراً. قالوا: فلم تطلب إذاً بدم أهل البيت؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر، ولكن القوم استأثروا به علينا ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، قد ولوا فعدلوا، وعملوا بالكتاب والسنة. قالوا: فلم تقاتل هؤلاء إذاً؟ قال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، وإني أدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإحياء السنن وإماتة البدع. فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولي، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل، فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه. فلهذا سُمُّوا الرافضة من يومئذ، ومن تابعه من الناس على قوله سموا الزيدية، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة، وغالب أهل مكّة إلى اليوم على مذهب الزيدية.

ثمّ إن زيداً عزم على الخروج بمن بقي معه من أصحابه، فواعدهم ليلة الاربعاء في مستهلّ صفر من هذه السنة. فبلغ ذلك يوسف بن عمر، فكتب إلى نائبه على الكوفة وهو الحكم بن الصلت يأمره بجمع الناس كلّهم في المسجد الجامع، فجمع الناس لذلك في يوم الثلاثاء سلخ المحرم، قبل خروج زيد بيوم. وخرج زيد ليلة الأربعاء في برد شديد، ورفع أصحابه النيران، وجعلوا ينادون يا منصور. فلمّا طلع الفجر إذا قد اجتمع معه مائتان وثمانية عشر رجلاً. فجعل زيد يقول: سبحان الله!! أين الناس؟ فقيل: هم في المسجد محصورون. وكتب الحكم بن الصلت إلى يوسف بن عمر يعلمه بخروج زيد بن علي، فبعث إليه سرية إلى الكوفة. وركبت الجيوش مع نائب الكوفة، وجاء يوسف بن عمر أيضاً في طائفة كبيرة من الناس، فالتقى بمن معه جرثومة منهم خمسمائة فارس فهزمهم. ثمّ أتى الكناسة فحملت على جمع من أهل الشام فهزمهم، ثمّ اجتاز بيوسف بن عمر وهو واقف فوق

تل، وزيد في مائتي فارس ولو قصد يوسف ابن عمر لقتله. ولكن أخذ ذات اليمين، وكلّما التقى بطائفة من أهل الكوفة هزمهم، وجعل أصحابه ينادون: يا أهل الكوفة اخرجوا إلى الدين والعزّ والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا عزّ ولا دنيا. ثمّ لمّا أمسوا انضاف إليه جماعة من أهل الكوفة، وقد قتل بعض أصحابه في أوّل يوم. فلمّا كان اليوم الثاني اقتتل مع طائفة من أهل الشام فقتل منهم سبعين رجلاً، وانصرفوا عنه بشر حال. وأمسوا فعبأ يوسف بن عمر جيشه جداً، ثمّ أصبحوا فالتقوا مع زيد بن علي في أصحابه فكشفهم حتى أخرجهم إلى السبخة. ثمّ شدّ عليهم حتى أخرجهم إلى بني سليم، ثمّ تبعهم في خيله ورجله حتى أخذوا على الساه. ثمّ اقتتلوا هناك قتالاً شديداً جداً، حتى كان جنح الليل رمي زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى، فوصل إلى دماغه، فرجع ورجع أصحابه، ولا يظنّ أهل الشام أنهم رجعوا إلاّ لأجل المساء والليل.

وأدخل زيد إلى دار في سكة البريد، وجيء بطبيب فانتزع ذلك السهم من جبهته، فما عدا أن انتزعه حتى مات من ساعته رحمه الله.

فاختلف أصحابه أين يدفنونه، فقال بعضهم: ألبسوه درعه وألقوه في الماء. وقال بعضهم: احتزّوا رأسه واتركوا جثته في القتلى، فقال ابنه: لا والله لا تأكل أبي الكلاب. وقال بعضهم: ادفنوه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين. ففعلوا ذلك وأجروا على قبره الماء لئلا يعرف، وتفلل أصحابه ولم يبق لهم رأس يقاتلون به. فما أصبح الفجر ولهم قائمة ينهضون بها، وتتبع يوسف ابن عمر الجرحى هل يجد زيداً بينهم. وجاء مولى لزيد سندي قد شهد دفنه فدلّ على قبره فأخذ من قبره، فأمر يوسف بن عمر بصلبه على خشبة بالكناسة، ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن يزيد بن حارثة الأنصاري، وزياد النهدي، ويقال إن زيداً مكث مصلوباً أربع سنين».

ملحق رقم ٥

سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي

أولاً – سيرة الحجاج

كتب ابن كثير:[١]

هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر ابن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف ابن ثقيف، وهو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن، أبو محمّد الثقفي. سمع ابن عباس وروى عن أنس وسمرة بن جندب وعبدالملك بن مروان وأبي بردة بن أبي موسى. وروى عنه أنس بن مالك، وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وجواد بن مجالد، وقتيبة بن مسلم، وسعيد بن أبي عروبة قاله ابن عساكر، قال: وكانت له بدمشق دور منها دار الرواية بقرب قصر ابن أبي الحديد. وولاه عبدالملك الحجاز فقتل ابن الزبير، ثمّ عزله عنها وولاه العراق. وقدم دمشق وافداً على عبدالملك. ثمّ روى من طريق المغيرة بن مسلم، سمعت أبي يقول: خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر، فما زال يقول: إنه بيت الوحدة، وبيت الغربة، حتى بكى وأبكى من حوله.

قال إبن خلكان: واسم أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي، وكان زوجها الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب. وذكر صاحب العقد أن الحجاج كان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف، ثمّ قدم دمشق فكان عند روح بن زنباع وزير عبدالملك، فشكا عبدالملك إلى روح أن الجيش لا ينزلون

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢٧ – ١٣٢.

لنزوله ولا يرحلون لرحيله. فقال روح: عندي رجل توليه ذلك، فولى عبدالملك الحجاج أمر الجيش، فكان لا يتأخّر أحد في النزول والرحيل، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون فضربهم وطوف بهم وأحرق الفسطاط. فشكا روح ذلك إلى عبدالملك، فقال للحجاج: لم صنعت هذا؟ فقال: لم أفعله إنما فعله أنت، فإن يدي يدك، وسوطي سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه، وبدل الغلام غلامين، ولا تكسرني في الذي وليتني؟ ففعل ذلك وتقدّم الحجاج عنده. قال: وبنى واسط في سنة أربع وثمانين، وفرغ منها في سنة ست وثمانين، وقيل قبل ذلك. قال: وفي أيامه نُقّطت المصاحف. وذكر في حكايته ما يدلّ أنه كان أولاً يسمّى كليباً، ثمّ سُمّي الحجاج.

قالوا: وكان مولد الحجاج في سنة تسع وثلاثين، وقيل في سنة أربعين، وقيل في سنة إحدى وأربعين، ثمّ نشأ شاباً لبيباً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن. قال بعض السلف: كان الحجاج يقرأ القرآن كلّ ليلة، وقال أبو عمرو ابن العلاء: ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري، وكان الحسن أفصح منه. وقال الدارقطني: ذكر سليمان بن أبي منيح عن صالح بن سليمان قال: قال عقبة بن عمرو: ما رأيت عقول الناس إلاّ قريباً بعضها من بعض، إلاّ الحجاج وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس. وتقدّم أن عبدالملك لما قتل مصعب بن الزبير سنة ثلاث وسبعين بعث الحجاج إلى أخيه عبدالله بمكّة فحاصره بها وأقام للناس الحج عامئذ. ولم يتمكّن الحجاج ومن معه من الطواف بالبيت، ولا تمكّن ابن الزبير ومن عنده من الوقوف بعرفة. ولم يزل محاصره حتى ظفر به في جمادى من سنة ثلاث وسبعين فقتله كما قدمنا وأقام للناس الحج أيضاً في سنة ثلاث وسبعين. ثمّ استنابه عبدالملك على مكّة والمدينة والطائف واليمن، ثمّ ولاه عبدالملك العراق بعد موت أخيه بشر بن مروان وحج بالناس في سنة أربع وتسعين أيضاً. فدخل الكوفة فأقام بين ظهرانيهم عشرين سنة كاملة. وفتح فيها فتوحات كثيرة، هائلة منتشرة، حتى وصلت خيوله وجيوشه إلى بلاد الهند والسند، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم.

ووصلت خيوله أيضاً إلى قريب من بلاد الصين.

وقال عبيد بن حميد: أنبأنا يزيد بن هارون أنبأ العوام بن حوشب حدثني من سمع أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه تقول للحجاج حين دخل عليها يعزيها في ابنها ابن الزبير فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ رَجُلانِ مُبِيرٌ وَكَذَابٌ». فأما الكذاب فابن أبي عبيد - تعني المختار - وأما المبير فأنت».

وتوفي الحجاج سنة ٨٥هـ بعد مرض ألمّ به. ولمّا توفي لم يعلم أحد بموته حتى أشرفت جارية فبكت وقالت: ألا إن مطعم الطعام، وميتّم الأيتام، ومرمّل النساء، ومفلق الهام وسيّد أهل الشام قد مات.[١]

وقيل إنه لما توفي لم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورحلاً ومائة درع.

ثانياً - خطبة الحجاج بن يوسف في أهل الكوفة

نقل ابن الأثير رواية عن أول خطبة للحجاج في أهل الكوفة عندما قدم إليها والياً، ندرجها نظراً لأهميتها. كتب ابن الأثير:[٢]

«في هذه السنة[٣] ولّى عبدالملك الحجاج ابن يوسف العراق دون خراسان وسجستان؛ فأرسل إليه عبدالملك بعهده على العراق وهو بالمدينة وأمره بالمسير إلى العراق، فسار في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة - وقد كان بشر بعث المهلب - إلى الخوارج. فبدأ الحجاج بالمسجد فصعد المنبر وهو مُتلثِم بعمامة خز حمراء. فقال: عليَّ بالناس فحسبوه وأصحابه خارجية فهمّوا به وهو جالس على المنبر ينتظر اجتماعهم. فاجتمع الناس وهو ساكت قد أطال السكوت فتناول محمّد بن عمير

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ١٥٠.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٣٨ - ١٤٠.
(٣) سنة ٧٥ هـ.

حصباء، وأراد أن يحصبه بها وقال: قاتله الله ما أغباه وأذمّه، والله إني لأحسب خبره كروائه. فلمّا تكلّم الحجاج جعلت الحصباء تنتثر من يده وهو لا يعقل به، قال: ثمّ كشف الحجاج عن وجهه، وقال:

أنا ابن جلا وطَلاّع الثنايا
متى أَضَع العمَامَةَ تَعرفوني

أما والله لأَحملُ الشرّ مَحمَله وآخذه بفعله وأُجزيه بمثله. وإني لأرى رؤوساً قد أينَعت وقد حان قِطافها. إني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى قد شمّرت عن ساقها تشميرا:

هذا أوانُ الحربِ فاشتدي زِيَم
قد لفّها الليلُ بسواق حطم
ليس براعي إبلٍ ولا غنم
ولا بجزّارٍ على لحم وَضَمْ

(ثمّ قال):

قد لَفّها الليلُ بعَصْلبيٍّ
أرْوَعَ خَرّاج من الدّوِيِّ
مُهاجرٍ ليس بأعرابيٍّ

ليس أوان بكرة الخلاط
جاءت به والقلص الأعلاط
تهوى هُوِيَّ سائق الغطاط

إني والله يا أهل العراق ما أغمز بتغماز التين، ولا يقَعْقَع لي بالشنان. ولقد فررت عن ذكاء وجريت إلى الغاية القصوى. ثمّ قرأ: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾.(١) وأنتم أولئك وأشباه أولئك إن أمير المؤمنين عبدالملك نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرّها عوداً واصلبها مكسراً فوجهني إليهم ورمى بي في نحوركم فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق. فإنكم طالما أوضعتم في الشرّ وسننتم سنن الغي فاستوثقوا واستقيموا فوالله لأذيقنّكم الهوان ولأُمرينّكم به حتى تدروا. ولأَلحُونّكم لحَوَ العود

---

(١) النحل: ١١٢.

ولأعصُبنّكم عصب السلمة حتى تذلّوا، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتنقادوا، ولأقرعنّكم قرع المروة حتى تلينوا. إني والله ما أعِدُ إلا وفَيت ولا أخلق إلا فريتَ فإياي وهذه الجماعات فلا يركبن رجل إلاّ وحده. أُقسم بالله لتقبلن على الإنصاف ولتدعنّ الإرجاف وقيلاً وقال وما تقول وما يقول وأخبرني فلان، أو لأدعن لكلّ رجلٍ منكم شغلاً في جسده فيمَ أنتم وذاك. والله لتستقيمُنّ على الحقّ أو لأضربنّكم بالسيف ضرباً يدع النساء أيامى والولدان يتامى حتى تذروا السمهي وتقلعوا عن هواها. ألا إنه لو ساغَ لأهل المعصية معصيتهم ما جيء فيء ولا قوتل عدو ولعطلت الثغور ولولا أنهم يغزون كرهاً ما غزوا طوعاً. وقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم على مصركم عاصين مخالفين. وإني أقسم بالله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة إلاّ ضربت عنقه وأنهبت داره.

ثمّ أمر بكتاب عبدالملك فقُرىء على أهل الكوفة، فلما قال القارىء: أما بعد سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم، قال له: اقطع. ثمّ قال: يا عبيد العصا يسلّم عليكم أمير المؤمنين فلا يردُّ رادٌّ منكم السلام، أما والله لأؤدّبنّكم غير هذا الأدب. ثمّ قال للقارىء: اقرأ فلما قرأ سلام عليكم قالوا بأجمعهم: سلام الله على أمير المؤمنين. ورحمة الله وبركاته.

ثمّ دخل منزله لم يزد على ذلك. ثمّ دعا العرفاء وقال: ألحقوا الناس بالمهلب واتوني بالبراءة بموافاتهم ولا تغلقن أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً حتى تنقضي هذه المدّة.

تفسير هذه الخطبة قوله: (أنا ابن جلا) فابن جلا هو الصبح لأنه يجلو الظلمة، وقوله: (فاشتدي زيم) هو اسم للحرب، والحطم الذي يحطم كلّ ما مرّ به، والوضم ما وقي به اللحم عن الأرض، والعصلبي الشديد، والأعلاط من الإبل التي لا أرسان عليها، وقوله: (فعجم عيدانها) أي عضها واختبرها، وقوله (لأعصبنكم عصب السلمة) فالعصب القطع والسلم شجر من العضاة، وقوله: لا أخلق إلا فريت فالخلق التقدير، ويقال: فريت الأديم إذا أصلحته، والسمهي الباطل وأصله ما تسميه العامة مخاط الشيطان، والغُطاط بضم الغين المعجمة وقيل بفتحها ضرب من الطير.

القسم الثالث

ثورات الخوارج

الفصل السادس
قتال الخوارج

الخوارج هم المقاتلون الذين انشقّوا عن الإمام علي بعد موقعة صفّين وعملية التحكيم التي رفضوها قائلين «لا حكم إلاّ الله». وقلنا إن عددهم بلغ يومذاك عشرة آلاف.

نقل الطبري رواية خروج الخوارج على طاعة الإمام علي، فكتب:[1]

«وفي هذه السنة[2] اعتزل الخوارج عليّاً وأصحابه، وحكّموا، ثمّ كلّمهم عليّ فرجعوا ودخلوا الكوفة. ذكر الخبر عن اعتزالهم عليّاً:

قال أبو مخنف في حديثه عن أبي جَنَاب، عن عُمارة بن ربيعة، قال: ولما قدم عليٌّ الكوفة وفارقته الخوارج، وثبت إليه الشيعة فقالوا: في أعناقنا بيعة ثانية، ونحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت. فقالت الخوارج: استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكُفر كَفَرَسَي رِهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبّوا وكرهوا، وبايعتم أنتم عليّاً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى. فقال لهم زياد بن النَّضر: والله ما بسط عليّ يده فبايعناه قطّ إلاّ على كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه ﷺ، ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته. فقالوا: نحن أولياء مَن والَيت، وأعداء من عاديت؛ ونحن كذلك، وهو على الحقّ والهدى، ومن خالفه ضالٌّ مُضِلّ. وبعث عليّ ابن عبَّاس إليهم، فقال: لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٠٩ - ١١٠.
(٢) سنة ٣٧هـ.

آتيك. فخرج إليهم حتى أتاهم، فأقبلوا يكلّمونه، فلم يصبر حتى راجعهم، فقال: ما نقَمتم من الحَكَمين، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنْ يُرِيدَا إصْلاحاً يُوَفّقِ الله بَيْنَهُما﴾![1] فكيف بأمَّة محمّد ﷺ! فقالت الخوارج: قلنا: أمَّا ما جعل حكمه إلى الناس، وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به، وما حَكَم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه؛ حَكَم في الزاني مائة جلدة، وفي السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا في هذا. قال ابن عبّاس: فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَحْكُم بهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾.[2] فقالوا: أَوَتجعل الحُكم في الصَّيد، والحَدَث يكون بين المرأة وزوجها كالحُكم في دماء المسلمين! وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك، أعَدلٌ عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويَسفِك دماءنا! فإن كان عدلاً فلسنا بعدُول ونحن أهل حربه. وقد حكَمتم في أمر الله الرّجال، وقد أمضى الله عزّ وجلّ حكمه في معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا. وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزّ وجلّ فأبَوْه. ثمّ كتبتم بينكم وبينه كتاباً، وجعلتم بينكم وبينه المُوادَعة والاستفاضة، وقد قطع عزّ وجلّ الاستفاضة والموادَعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة، إلاّ من أقرّ بالجزية.

وبعث عليّ زياد بن النّضر إليهم فقال: انظر بأيّ رؤوسهم هم أشدّ إطافة. فنظر فأخبره أنه لم يرهم عند رجل أكثر منهم عند يزيد بن قيس. فخرج عليّ في الناس حتى دخل إليهم، فأتى فُسطاط يزيد بن قيس، فدخله فتوضّأ فيه وصلّى ركعتين، وأمّره على إصبهان والرّيّ. ثمّ خرج حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عبّاس، فقال: انتهِ عن كلامهم، ألم أنهَك رحمك الله! ثمّ تكلّم فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه، ثمّ قال: اللهمّ إنّ هذا مقامٌ مَن أفلجَ فيه كان أولى بالفُلْج يوم القيامة، ومن نطق فيه وأوعث فهُوَ في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً. ثمّ قال لهم: مَن زعيمكم؟ قالوا: ابن الكوّاء. قال عليٌّ:

---

(١) النساء: من الآية ٣٥.

(٢) المائدة: من الآية ٩٥.

فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومَتَكم يوم صِفين. قال أنشدكم بالله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم: نجيبهم إلى كتاب الله. قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم؛ إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال. امضُوا على حقّكم وصدقكم، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودَهناً ومَكيدة. فرددتم عليّ رأيي، وقلتم: لا، بل نقبل منهم. فقلت لكم: اذكروا قولي لكم، ومعصيتكم إيّاي. فلما أبيتم إلاّ الكتاب اشترطت على الحَكَمين أن يُحييا ما أحيا القرآن، وأن يُمِيتا ما أمات القرآن، فإن حَكَما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حُكماً يحكَم بما في القرآن، وإن أبَيا فنحن من حكمهما براء. قالوا له: فخبّرنا أتراه عدلاً تحكيم الرّجال في الدماء؟ فقال: إنا لسنا حكّمنا الرجال، إنما حكّمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خطّ مسطور بين دفّتين، لا ينطق، إنما يتكلّم به الرجال. قالوا: فخبّرنا عن الأجل، لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل، ويتثبّت العالم، ولعلّ الله عزّ وجلّ يصلح في هذه الهدنة هذه الأمّة. ادخلوا مصرَكم رحمكم الله! فدخلوا من عند آخرهم.

قال أبو مخنف: حدّثني عبدالرحمن بن جُنْدب الأزديّ، عن أبيه بمثل هذا.

وأما الخوارج فيقولون: قلنا: صدقت، قد كنا كما ذكرت، وفعلنا ما وصفت، ولكنّ ذلك كان منّا كفراً، فقد تُبنا إلى الله عزّ وجلّ منه، فتب كما تُبنا نبايعك، وإلاّ فنحن مخالفون. فبايعنا عليّ وقال: ادخلوا فلنمكث ستّة أشهر حتى يجبى المال، ويَسمن الكُراع، ثمّ نخرج إلى عدوّنا. ولسنا نأخذ بقولهم؛ وقد كذبوا».

لم يأخذ الإمام علي الخوارج في البدء بالجدية اللازمة، فانصرف إلى قتال معاوية بعدما فشل التحكيم.. لكن تطرف الخوارج وتكفيرهم له ولغيره من الصحابة، دفعه إلى قتالهم، فانتصر عليهم في النهروان التي سبق الكلام عنها. لكن هذه المعركة لم تكن نهاية الصراع معهم، إنما بداية حروب طويلة ضدهم كونهم قاموا بثورات عديدة ضدّ معاوية وخلفائه، امتدّت إلى الدولة العباسية.

وكانت ثوراتهم الأشد عنفاً ضدّ الحكم الأموي كونهم قاوموا معاوية واعتبروه كافراً،

وحاولوا اغتياله مع علي وعمرو بن العاص، فنجحوا في اغتيال الإمام علي وفشلوا في اغتيال الآخرَين. ومنذ ذلك الحين لم تتوقّف هجمات الخوارج الذين كانت تحرّكاتهم ناشطة، خاصة في العراق والنواحي الشرقية من ولايات الدولة الأموية. فهجماتهم على الكوفة والبصرة لم تتوقّف، وكانت تقوى أحياناً وتضعف عندما يتسلّم ولاية العراق أحد الولاة الأقوياء، لا سيما عبدالله بن زياد والحجاج بن يوسف اللذان حارباهم طويلاً.

أولاً – مسير أمير المؤمنين علي إلى الخوارج

لما عزم الإمام علي ومن معه من الجيش على البدء بقتال الخوارج، خرج إلى الأنبار وبعث بين يديه قيساً بن سعد، ثمّ اجتمع الناس في المدائن. وكتب الإمام علي إلى الخوارج:[1]

«ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم حتى أقتلهم، ثمّ أنا تارككم وذاهب إلى العرب...».

ثمّ دعاهم أمير المؤمنين علي أن «ارجعوا ولا ترتكبوا محاوم الله، فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين».[1] لكن جواب الخوارج كان ان تهيأوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم زيداً بن حصن الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى، وعلى الخيالة حمزة بن سنان، وعلى الرجالة حرقوصاً بن زهير السعدي.[2]

أما الإمام علي فقد جعل على ميمنته حجراً بن عدي، وعلى ميسرته شبثاً بن ربعي ومعقلاً بن قيس الرباحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة قيساً بن سعد (بن عبادة. ورفع أبو أيوب راية الأمان للخوارج وقال لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن. فانصرف منهم ثلاثة آلاف وبقي ألف مع عبدالله بن وهب الراسي.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧٦.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢١٨.

وصف ابن كثير القتال بين الإمام علي والخوارج في السنة السابعة والثلاثين للهجرة، فكتب:[١]

«فزحفوا إلى علي فقدّم علي بين يديه الخيل وقدم منهم الرماة وصفّ الرجالة وراء الخيالة، وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤوكم. وأقبلت الخوارج يقولون: لا حكم إلاّ لله، الرواح الرواح إلى الجنّة، فحملوا على الخيالة الذين قدمهم علي، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة، وأخرى إلى الميسرة، فاستقبلهم الرماة بالنبل، فرموا وجوههم. وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف فأناموا الخوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول. وقتل أمراؤهم عبدالله بن وهب، وحوقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبدالله بن سخبرة السلمي. قال أبو أيوب: وطعنت رجلاً من الخوارج بالرمح فأنفذته من ظهره وقلت له: أبشر يا عدوّ الله بالنار، فقال: ستعلم أينا أولى بها صلياً. قالوا: ولم يقتل من أصحاب علي إلاّ سبعة نفر. وجعل علي يمشي بين القتلى منهم يقول: بؤساً لكم! لقد ضرّكم من غرّكم، فقالوا: يا أمير المؤمنين ومن غرّهم؟ قال: الشيطان وأنفس بالسوء أمّارة، غرّتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. ثمّ أمر بالجرحى من بينهم فإذا هم أربعمائة، فسلمهم إلى قبائلهم ليداووهم، وقسّم ما وجد من سلاح ومتاع لهم».

ثانياً – قتال آخر بين الإمام علي والخوارج

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال بين الإمام علي والخوارج في السنة الثامنة والثلاثين للهجرة، فكتب:[٢]

«لما قتل أهل النهروان خرج أشرس بن عوف الشيباني على عليّ بالدسكرة في

(١) ابن كثير مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٤١ – ٢٤٢.

مائتين ثمّ سار إلى الأنبار فوجّه إليه عليّ الأبرش بن حسان في ثلاثمائة فواقعه فقتل أشرس في ربيع الآخرة سنة ثمان وثلاثين. ثمّ خرج هلال بن علّفة من تيم الرباب ومعه أخوه مجالد فأتى ماسبذان فوجّه إليه عليّ معقل بن قيس الرياحي فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر [من] مائتين وكان قتلهم في جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين. ثمّ خرج الاشهب بن بشر - وقيل: الأشعث - وهو من بجيلة في مائة وثمانين رجلاً فأتى المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه فصلّى عليهم ودفن مَن قَدِرَ عليه منهم فوجّه إليهم عليّ جارية بن قدامة السعديّ - وقيل: حجر بن عديّ - فأقبل إليهم الأشهب فاقتتلا بجراجرايا من أرض «جوخى» فقتل الأشهب وأصحابه في جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين. ثمّ خرج سعيد بن قُفْل التيمي من تَيم الله بن ثعلبة في رجب بالبندنيجين ومعه مائتا رجل فأتى درزنجان وهي من المدائن على فرسخين فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم في رجب سنة ثمان وثلاثين. ثمّ خرج أبو مريم السعديّ التميميّ فأتى شهرزور وأكثر مَن معه من الموالي - وقيل: لم يكن معه من العرب غير ستة نفر هو أحدهم - واجتمع معه مائتا رجل - وقيل: اربعمائة. وعاد حتى نزل على خمسة فراسخ من الكوفة، فأرسل إليه علي يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة فلم يفعل وقال: ليس بيننا غير الحرب. فبعث إليه عليّ شريح بن هانىء في سبعمائة، فحمل الخوارج عل شريح وأصحابه فانكشفوا وبقي شريح في مائتين فانحاز إلى قرية فتراجع إليه بعض أصحابه ودخل الباقون الكوفة. فخرج عليّ بنفسه وقدّم بين يديه جارية بن قدامة السعديّ فدعاهم جارية إلى طاعة علي وحذرهم القتل فلم يجيبوا. ولحقهم علي أيضاً فدعاهم فأبوا عليه وعلى أصحابه، فقتلهم أصحاب عليّ ولم يسلم منهم غير خمسين رجلاً استأمنوا فأمّنهم. وكان في الخوارج أربعون رجلاً جرحى فأمر عليّ بإدخالهم الكوفة ومداواتهم حتى بدأوا. وكان قتلهم في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وكانوا من أشجع مَن قاتل من الخوارج، ولجرامتهم قاربوا الكوفة».

ثالثاً – قتال الخوارج ضدّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان

وفي السنة الحادية والأربعين للهجرة جرى قتال بين الخلافة الأموية والخوارج الحرورية الذين خرجوا على معاوية، وكانوا حوالى الخمسمائة. نقل الطبري خبر قتال أهل الشام وأهل الكوفة للخوارج، فكتب:[١]

«حدثت عن زياد، عن عَوانَة، قال: قدم معاوية قبل أن يَبرَح الحسن من الكوفة حتى نزل النُّخيلة، فقالت الحَرُورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشَهْرَزور مع فَروة بن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شكّ فيه، فسِيروا إلى معاوية فجاهدوه. فأقبلوا وعليهم فَروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفّوا بوائقكم. فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلَكم! ما تبغون منّا! أليس معاوية عدوّنا وعدوّكم! دعونا حتى نُقاتله، وإن أصبناه كنا قد كَفَيناكم عدوّكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا. قالوا: لا والله حتى نقاتلكم؛ فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النّهر، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة. وأخذت أشجع صاحبهم فَروة بن نوفل – وكان سيّد القوم – واستعملوا عليهم عبدالله بن أبي الحُر – رجلاً من طيئ – فقاتلوهم، فقتلوا».

وفي السنة الثانية والأربعين للهجرة تحرّك الخوارج الذين كانوا قد انحازوا عمّن قتل منهم بالنهروان، فأقاموا بالري حتى قتل الإمام علي فخرجوا إلى الكوفة. ولم يزالوا في الكوفة حتى بعث معاوية المغيرة بن شعبة والياً عليها حيث بايعوا المستورد بن عُلفة رئيساً عليهم.

وفي السنة الثالثة والأربعين اجتمع هؤلاء في منزل حيّان بن ظبيان بالكوفة، وكانوا نحواً من عشرين رجلاً، فأرسل المغيرة رئيس شرطته قبيضة بن الدمّون إليهم فحاصر البيت وألقى القبض عليهم وجاء بهم أمام المغيرة الذي سجنهم سنة كاملة.[٢]

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٦٩.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص ١٧٨ – ١٨٩.

رابعاً - قتال عبيدالله بن زياد للخوارج

وفي السنة الثامنة والخمسين للهجرة اهتمّ والي البصرة عبيدالله بن زياد بقتال الخوارج، فاضطرّهم للهرب إلى الأهواز التي اتخذوها قاعدة للهجوم على البصرة مستعملين طريقة حرب العصابات في هذا القتال. وهكذا عانت البصرة منهم الكثير، وفشلت جيوش ابن زياد في وضع حد لنشاطهم العسكري، إلى أن أخذهم عبيدالله بالخدعة وقتل زعيمهم أبا بلال بن أدية.

كتب ابن الأثير عن حرب عبيدالله للخوارج خلال هذه المرحلة، ومقتل ابن أدية:(1)

«في هذه السنة اشتدّ عبيدالله بن زياد على الخوارج فقتل منهم جماعة كثيرة منهم عروة بن أديّة أخو أبي بلال مرداس بن أديّة - وأدية أمهما وأبوهما - حدير وهو تميميّ.

وكان سبب قتله أنّ ابن زياد كان قد خرج في رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع إليه الناس وفيهم عروة فأقبل على ابن زياد يعظه. وكان مما قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بطشتم جَبَّارِين﴾.(2)

ثمّ إنّ ابن زياد ألحّ في طلب الخوارج فملأ منهم السجن وأخذ الناس بسببهم، وحبس أبا بلال قبل أن يقتل أخاه عروة. فرأى السجان عبادَته فأذِن له كلّ ليلة في إتيان أهله فكان يأتيهم ليلاً ويعود مع الصبح وكان صديق لمرداس يسامر ابن زياد. فذكر ابن زياد الخوارج ليلة فعزم على قتلهم [إذا أصبح]، فانطلق صديق مُرداس إليه فأعلمه الخبر وبات السجّان بليلة سوء خوفاً أن يعلَم مرداس فلا يرجع. فلما كان الوقت الذي كان يعود فيه إذا به قد أتى فقال له السجان: أما بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: بلى. قال: ثمّ جئت. قال: نعم لم يكن جزاؤك مني مع إحسانك إليّ أن تُعاقَب.

---

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٣ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١.
(2) الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠.

وأصبح عبيدالله فقَتَل الخوارج. فلمّا أحضر مرداس قام السجان - وكان ظِئراً لعبيدالله - فشفع فيه وقصّ عليه قصّته فوهبه له وخلّى سبيله. ثمّ إنه خاف ابن زياد فخرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز فكان إذا اجتاز به مالٌ لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثمّ يردّ الباقي. فلمّا سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشاً عليهم أسلم بن زرعة الكلابي سنة ستين، وقيل: أبو حصين التميميّ، وكان الجيش ألفي رجل. فلمّا وصلوا إلى أبي بلال ناشدهم الله أن لا يقاتلوه فلم يفعلوا. ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة فقالوا: أتردُّوننا إلى ابن زياد الفاسق! فرمى أصحاب أسلم رجلاً من أصحاب أبي بلال فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدأوكم بالقتال. فشدّ الخوارج على أسلم وأصحابه شدّة رجل واحد فهزموهم، فقدموا البصرة فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت في ألفين لا خير فيك. فقال: لأن تلومني وأنا حيّ خيرٌ من أن تثني عليّ وأنا ميت...».

أما مقتل أبي بلال مرداس فحصل في السنة الحادية والستين للهجرة، إذ إن عبيدالله بن زياد عاد وأرسل ثلاثة آلاف مقاتل عليهم عباد بن الأخضر الذي تبعه حتى لحقه في «توج».[1]

أكمل ابن الأثير رواية قتال الخوارج على يد ابن زياد، فكتب:[2]

«فصفّ له عباد وحمل عليهم أبو بلال فيمن معه فثبتوا واشتدّ القتال حتى دخل وقت العصر فقال أبو بلال: هذا يوم جمعة وهو يوم عظيم وهذا وقت العصر فدعونا حتى نصلي. فأجابهم ابن الأخضر وتحاجزوا فعجل ابن الأخضر الصلاة، وقيل: قطعها والخوارج يصلون فشدّ عليهم هو وأصحابه وهم ما بين قائم وراكع وساجد لم يتغيّر منهم أحد فقتلوا من أخرهم. وأخذ رأس أبي بلال ورجع عباد إلى البصرة فرصد بها عبيدة بن هلال ومعه ثلاثة نفر. فأقبل عباد يريد قصر الإمارة وهو مردف ابناً صغيراً له فقالوا له: قف حتى نستفتيك فوقف. فقالوا: نحن أخوة أربعة قتل أخونا فما

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٤٤.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٤٤.

ترى؟ قال: استعْدوا الأمير. قالوا: قد استَعْديناه فلم يعدنا. قال: فاقتلوه قتله الله. فوثبوا عليه وحكموا به فألقي ابنه فنجا وقتل هو، فاجتمع الناس على الخوارج فقتلوا غير عبيدة. ولمّا قتل ابن عباد كان ابن زياد بالكوفة ونائبه بالبصرة عبيدالله بن أبي بكرة فكتب إليه يأمره أن يتبع الخوارج ففعل ذلك وجعل يأخذهم، فإذا شفع في أحدهم ضمنه إلى أن يقدم ابن زياد، ومن لم يكفله أحد حبسه. وأتى بعروة بن أدية فأطلقه وقال: أنا كفيلك. فلمّا قدم ابن زياد أخذ من في الحبس من الخوارج فقتلهم وطلب الكفلاء بمن كفلوا به فمن أتى بخارجي أطلقه وقتل الخارجي ومن لم يأت بالخارجي قتله. ثمّ طلب عبيدالله بن أبي بكرة بعروة بن أدية قال: لا أقدر عليه فقال: إذن أقتلك به، فلم يزل يبحث عنه حتى ظفر به وأحضره عند ابن زياد فقال له ابن زياد: اختر لنفسك من القصاص ما شئت به، فامر به فقطعت يداه ورجلاه».

خامساً – قتال الخوارج إلى جانب ابن الزبير في مكّة المكرّمة

بعد مقتل أبي بلال مرداس قرّر عبيدالله ابن زياد الاستمرار في قتال الخوارج حتى استئصالهم وهلاكهم، وهذا ما دفع هؤلاء إلى الالتحاق بثورة ابن الزبير في مكّة المكرّمة والقتال إلى جانبه. كتب الطبري عن ظروف التحاق الخوارج بابن الزبير:(١)

«حدثت عن هشام بن محمّد الكلبي، عن أبي مخنف لوط بن يحيى قال: حدّثني أبو المخارق الراسبي، قال: لما ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ما ركب، وقد كان قبل ذلك لا يكفّ عنهم ولا يستبقيهم. غير أنه بعد قتل أبي بلال تجرّد لاستئصالهم وهلاكهم، واجتمعت الخوارج حين ثار ابن الزبير بمكّة، وسار إليه أهل الشام، فتذاكروا ما أتى إليهم. فقال لهم نافع بن الأزرق: إنّ الله قد أنزل عليكم الكتاب، وفرض عليكم فيه الجهاد، واحتجّ عليكم بالبيان، وقد جرّد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العِدا

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٩٧.

والغَشْم. وهذا من قد ثار بمكّة، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدوّ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا. فخرجوا حتى قدموا على عبدالله ابن الزبير، فسُرّ بمقدِمهم، ونبّأهم أنه على رأيهم، وأعطاهم الرّضا من غير توقّف ولا تفتيش؛ فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية، وانصرف أهل الشام عن مكّة».

وفي السنة الرابعة والستين فارق الخوارج ابن الزبير. كتب ابن الأثير عن هذا الفراق:[1]

«فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد ابن معاوية وانصرف أهل الشام. ثمّ انهم اجتمعوا وقالوا: إن الذي صنعتم أمس لغير رأي تقاتلون مع رجل لا تدرون لعلّه ليس على مثل رأيكم وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه وينادي: يا ثارات عثمان. فائتوه واسألوه عن عثمان فإن برىء منه كان وليكم وإن أبى كان عدوّكم. فأتوه فسألوه فنظر فإذا أصحابه حوله قليل فقال: إنكم أتيتموني حين أردت القيام ولكن روحوا العشية حتى أعلمكم. فانصرفوا وبعث إلى أصحابه فجمعهم حوله بالسلاح وجاءت الخوارج وأصحابه حوله وعلى رأسه وبأيديهم العمد».

فلمّا سألوه عن عثمان أجاب:

«لا أعلم مكان أحد من خلق الله اعلم بابن عفّان وأمره مني... وهو لكلّ خير أهل، وأنا أشهدكم ومن حضرني اني ولي لابن عفان وعدو أعدائه، فبرىء الله منكم».[2]

وهكذا تفرّق الخوارج عن ابن الزبير فجاؤوا البصرة، ومنها خرج نافع بن الأزرق إلى الأهواز. وكان بين الذين خرجوا إلى البصرة عبدالله بن الصفار وعبدالله بن أباض.

سادساً – مقتل زعيم الخوارج الأزارقة

وفي السنة الخامسة والستين للهجرة اشتدّت شوكة نافع بن الأزرق الذي ينتسب

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٩٠.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٩١.

إليه الأزارقة من الخوارج. أما القتال الذي توفي فيه فقد كتب عنه ابن الأثير:[1]

«وكان سبب قوته اشتغال أهل البصرة واختلافهم بسبب مسعود بن عمرو وقتله وكثرة جموعه. وأقبل نحو الجسر فبعث إليه عبدالله بن الحرث مسلم بن عبيس بن كريز ابن ربيعة فخرج إليه فدفعه عن أرض البصرة حتى بلغ دولاب من أرض الأهواز فاقتتلوا هناك. وجعل مسلم بن عبيس على ميمنته الحجاج بن باب الحميري، وعلى ميسرته حارثة بن بدر الغداني. وجعل ابن الازرق على ميمنته عبيدة بن هلال، وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز التميمي. واشتدّ قتالهم فقتل مسلم أمير أهل البصرة؛ وقتل نافع بن الأزرق أمير الخوارج في جمادى الآخرة، فأمّر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميري، وأمّرت الخوارج عبدالله بن الماحوز التميمي واقتتلوا فقتل عبدالله، والحجاج. فأمّر أهل البصرة عليهم ربيعة بن الأجرم التميميّ، وأمّرت الخوارج عبيدالله بن الماحوز التميمي ثمّ عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملّوا القتال. فبينما هم كذلك متوافقون متحاجزون إذ جاءت الخوارج سرية مستريحة لم تشهد القتال فحملت على الناس من ناحية عبد القيس فانهزم الناس وقتل أمير البصرة ربيعة بعد أن قتل أيضاً دغفل بن حنظلة الشيباني النسابة. وأخذ الراية حارثة بن زيد فقاتل ساعة وقد ذهب الناس عنه فقاتل وحمى الناس ومعه جماعة من أهل البصرة. ثمّ أقبل حتى نزل بالأهواز وبلغ ذلك أهل البصرة فأفزعهم. وبعث عبدالله بن الزبير الحرث بن أبي ربيعة وعزل عبدالله بن الحرث فأقبلت الخوارج نحو البصرة».

سابعاً – الدروس والعبر

أ – قلّل الإمام علي من شأن الخوارج ولم يأخذهم بالجدية اللازمة فأخطأ في تقدير حجم عدوّه إذ تبيّن لاحقاً انهم أعداء له ولشيعته.

وبعد معركة النهروان لم يطبّق الإمام استراتيجية استغلال النصر فيقضي على

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٥ – ١٦.

شرازم الخوارج الذين عادوا وجمعوا صفوفهم وقاتلوه كما قاتلوا ضدّ الحكم الأموي وأنزلوا خسائر جسيمة بالعالم الإسلامي الذي ساهموا في إضعافه بسبب كثرة ثوراتهم ضدّ حكامه وولاته.

ب - في القتال الأول ضدّ الخوارج، طبّق الإمام علي قواعد التطويق من الجانبين والسحق، فكانت معركته معركة إفناء يمكن تشبيهها بمعركة «كان» التي انتصر فيها هنيبعل على الجيش الروماني السنة ٢١٦ق.م.

ج - في المعارك اللاحقة ضدّ الخوارج كانت كفّة الربح تميل دائماً إلى جانب سرايا الإمام علي لأسباب أهمها:

* التفوّق بالعديد والعدّة.
* الحماس والروح المعنوية المرتفعة لدى أنصار الإمام الذين كانوا يحاربون لأجل قضية اعتبروها محقّة.
* الروح القتالية العالية التي بثّها الإمام في جنده.
* قيمة القادة الذين كانوا يقودون هذه السرايا.

د - في قتال النخيلة الذي تواجه فيه الجيش الأموي مع فرقة الحرورية، تمكّن الخليفة معاوية الذي كان يقود الحملة بنفسه من تأليب أهل الكوفة ضدّ الخوارج رغم نقمتهم عليه وعدائهم له وللدولة الأموية.

فعندما يقود القائد الأعلى جيشه بنفسه يعطي المثل الصالح لعناصره ويحفّزهم للقتال ويرفع من معنوياتهم. وهذا ما تمكّن معاوية من تحقيقه لدى أهل الكوفة.

هـ - ولما ولي عبيدالله بن زياد العراق، تمكّن من طرد الخوارج من البصرة إلى الأهواز فحقق بذلك حرية عمله في ولايته. لكن هؤلاء راحوا يطبقون مبادىء حرب العصابات وطرق الإغارات على البصرة فنجحوا في مخططاتهم العسكرية. فأمام عدوّ متفوّق جداً، يعمد رجال الثورة عامة إلى التخفّي واللجوء إلى الجبال والوديان وشنّ غارات على مراكز خصمهم المنعزلة بقصد إنزال الخسائر به. وعلى قيادة الثوار في هذه الحال تجنّب الاشتباك مع عدوّها في معركة فاصلة. وهذا ما قام به الخوارج ضدّ جيوش عبيدالله بن زياد الذي تمكّن فيما بعد من أخذهم بالخدعة وقتل زعيمهم. لكن الخوارج تمكّنوا بعد ذلك، وفق ابن الأثير من

هزيمة جيش لعبيدالله من ألفي مقاتل فيما كانوا في أربعين فقط.

ثمّ عاد الخوارج وارتكبوا خطأً استراتيجياً فواجهوا جيشاً لعبيدالله قوامه ثلاثة آلاف مقاتل في معركة تقليدية، الأمر الذي أدى إلى هزيمتهم.

و - أحسن ابن زياد بعد معركة «توج» في ملاحقة شرازم وفلول الخوارج والقضاء عليهم مطبّقاً استراتيجية استغلال النصر بطريقة ناجحة. وهذا ما دفع بهؤلاء إلى الالتحاق بعبدالله بن الزبير، الثائر في مكّة على السلطة الأموية، والقتال في صفوف جيشه.

إلاّ ان الخوارج عادوا وتفرّقوا عن ابن الزبير بعد ان تبيّن لهم انه لا يلاحق أهدافهم ولا يؤمن بما آمنوا به.

ثامناً - حروب الخوارج في فارس والعراق

وفي السنة الثامنة والستين للهجرة كُلّف عمر بن عبيدالله بن معمّر والي بلاد فارس بحرب الخوارج الذين كانوا قد استعملوا عليهم الزبير بن الماحوز. التقى عمر بالخوارج في اصطخر فاقتتلوا قتالاً شديداً قتل خلاله من الخوارج تسعون فارساً، فانهزمت الخوارج وسارت إلى سابور، فلحق عمر بهم وقاتلهم مجدَّداً وانتصر عليهم.[1]

انتقل الخوارج إلى اصبهان، حيث أعادوا تنظيم قواتهم قبل ان يسيروا إلى الأهواز عبر فارس، فلحق عمر بهم، فساروا إلى أرض «جوخى والنهروانات» وراحوا يشنّون الغارات على المدائن ويقتلون كلّ من يعترض سبيلهم.

نقل الطبري تفاصيل غارات الخوارج على المدائن وغيرها، فكتب:[2]

«وأقبلت الخوارج وعليهم الزبير بن الماحوز حتى نزلوا الأهواز، فأتتهم عيونهم أن عمر بن عُبيدالله في أثرهم، وأنّ مصعب بن الزّبير قد خرج من البصرة إليهم. فقام فيهم الزُّبير فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد، فإن من سوء الرأي والحِيرة وقوعكم فيما بين هاتَين الشَّوكتين، انهضوا بنا إلى عدوّنا نلقهم

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٩٩.

من وجه واحد. فسار بهم حتى قطع بهم أرض جوخَى، ثمّ أخذ على النّهر وانات، ثمّ لزم شاطىء دجلة حتى خرج على المدائن وبها كردم بن مُرثد بن نجبة الفَزاري. فشنّوا الغارة على أهل المدائن، يقتلون الولدان والنساء والرّجال، ويبقرون الحَبالى. وهرب كردم، فأقبلوا إلى ساباط فوضعوا أسيافهم في النّاس، فقتلوا أمّ ولد لربيعة بن ماجد، وقتلوا بُنانة ابنة أبي يزيد بن عاصم الأزدي، وكانت قد قرأت، وكانت من أجمل النّاس. فلمّا غشوها بالسيوف قالت: ويحكم! هل سمعتم بأنّ الرجال كانوا يُقتّلون النّساء! ويحكم! تقتلون من لا يبسط إليكم يداً، ولا يريد بكم ضرّاً، ولا يملك لنفسه نفعاً! أتقتلون من ينشّأ في الحيلة وهو في الخصام غير مُبِين! فقال بعضهم: اقتلوها، وقال رجل منهم: لو أنكم تركتموها! فقال بعضهم: أعجبك جمالها يا عدوّ الله! قد كفرت وافتتنت، فانصرف الآخر عنهم وتركهم، فظننّا أنّه فارقهم، وحملوا عليها فقتلوها. فقالت رَيطة بنت يزيد: سبحان الله! أترون الله يرضى ما تصنعون! تقتلون النساء والصبيان ومن لم يُذنب إليكم ذنباً! ثمّ انصرفت وحملوا عليها وبين يديها الرّواع بنت إياس بن شُرَيح الهمذاني، وهي ابنة أخيها لأمّها، فحملوا عليها فضربوها على رأسها بالسيف، ويصيب ذُباب السيف رأس الرّواع فسقطتا جميعاً إلى الأرض. وقاتلهم إياس بن شُرَيح ساعةً، ثمّ صُرِع فوقع بين القتلى، فنزعوا عنه وهم يرَون أنّهم قد قتلوه. وصُرِع منهم رجل من بكر بن وائل يقال له: رَزين بن المتوكّل.

فلمّا انصرفوا عنهم لم يمت غير بُنانة بنت أبي يزيد، وأمّ ولد ربيعة بن ناجد، وأفاق سائرهم، فسقى بعضهم بعضاً من الماء، وعصبوا جراحاتهم ثمّ استأجروا دوابّ، ثمّ أقبلوا نحو الكوفة».

وفي نواحي الكوفة طاردت جيوش الوالي الخوارج بقيادة الحارث عبدالرحمن بن المخنف الذي لاحقهم في ستة آلاف مقاتل فأخرجهم من أرض الكوفة، وتبعهم إلى أرض اصبهان من دون أن يشتبك معهم.[1]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٧٦.

ثمّ انتقل الخوارج إلى الري حيث قاتلهم يزيد بن الحرث بن رويم، فأعان أهل الري الخوارج، ما أدى إلى مقتل يزيد وانكسار جيشه.[1]

ولمّا فرغ الخوارج من الري ساروا إلى أصبهان فحاصروها وفيها عتّاب بن ورقاء الذي تصدّى لقتالهم على باب المدينة حيث راحوا يرمون السور بالنبال والحجارة.

وأقام الخوارج على حصار أصبهان أشهراً حتى نفدت أطعمة المحاصرين فأقنعهم عتّاب بالخروج من المدينة ومقاتلة الخوارج ففعلوا وانتصروا.[2]

نقل ابن الأثير خبر هذا القتال حول أصبهان في السنة الثامنة والستين للهجرة، فكتب:[3]

«لمّا أمر عتّاب أصحابه بقتال الخوارج وأجابوه إلى ذلك جمع الناس وأمر لهم بطعام كثير ثمّ خرج حين أصبح فأتى الخوارج وهم آمنون فحملوا عليهم فقاتلوهم حتى أخرجوهم من عسكرهم. وانتهوا إلى الزبير بن الماحوز فنزل في عصابة من أصحابه فقاتل حتى قتل. وانحازت الأزارقة إلى قطري بن الفجاءة المازني وكنيته أبو نعامة فبايعوه، وأصاب عتاب وأصحابه من عسكره ما شاؤوا. وجاء قطري فنزل في عسكر الزبير ثمّ سار عن أصبهان وتركها وأتى ناحية كرمان وأقام بها حتى اجتمعت إليه جموع كثيرة وجبى المال وقوي. ثمّ أقبل إلى أصبهان ثمّ أتى إلى أرض الأهواز فأقام بها - والحرث بن أبي ربيعة عامل مصعب على البصرة».

ثمّ التقت الجيوش الأموية بالخوارج بسولاف فاقتتلوا هناك ثمانية أشهر أشدّ قتال.

وفي السنة نفسها سار عتاب بن ورقاء الرياحي من اصبهان إلى الري لمقاتلة أهلها بسبب مساعدتهم للخوارج، كما سبق القول. فحاصر عتاب الري، وعليها قائد

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٠٢.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص ٥٠٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٧٨.

اسمه الفرحان، وقاتل أهلها طويلاً وافتتحها عنوة، وغَنِم ما فيها بعد ان سيطر على كلّ قلاعها.

تاسعاً – قتال الخوارج في البحرين ومقتل أبي فديك الخارجي

في السنة الثالثة والسبعين للهجرة جرى قتال عنيف بين الجيوش الأموية بقيادة والي العراق عمر بن عبيدالله بن معمّر والخوارج بقيادة أبي فديك الذي أصبح قائد إحدى أهم فرق الخوارج في البحرين، وهي فرقة الأزارقة.

وكان فديك، من بني قيس بن ثعلبة، قد تسلّم القيادة بعد أن قتل نجدة بن عامر الحنفي الخارجي، فسيطر على البحرين وهزم جيشاً أموياً بقيادة أمية بن عبدالله،(١) فقرّر عبدالملك بن مروان تسيير جيش كبير لقتاله.

نقل ابن الأثير خبر قتال أبي فديك ومقتله، فكتب:(٢)

«فأمر عبدالملك بن مروان عمر بن عبيدالله بن معمر أن يندب الناس من أهل الكوفة، والبصرة ويسير إلى قتاله. فندبهم وانتدب معه عشرة آلاف فأخرج لهم أرزاقهم. ثمّ سار بهم، وجعل أهل الكوفة على الميمنة وعليهم محمّد بن موسى بن طلحة بن عبيدالله، وأهل البصرة على الميسرة وعليهم عمر بن موسى بن عبيدالله ابن معمر وهو ابن أخي عمر، وجعل خيله في القلب. وساروا حتى انتهوا إلى البحرين فالتقوا واصطفّوا للقتال فحمل أبو فديك وأصحابه حملة رجل واحد فكشفوا ميسرة عمر حتى أبعدوا إلاّ المغيرة بن المهلب، ومجاعة بن عبدالرحمن، وفرسان الناس فإنهم مالوا إلى صف أهل الكوفة بالميمنة وجرح عمر بن موسى. فلمّا رأى أهل الميسرة أهل الميمنة لَم ينهزموا رجعوا وقاتلوا وما عليهم أمير لأن أميرهم عمر بن موسى كان جريحاً، فحملوه معهم واشتدّ قتالهم حتى دخلوا عسكر الخوارج. وحمل أهل الكوفة من الميمنة ومن معهم من أهل

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٣٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٢٩ – ١٣٠.

الميسرة حتى استباحوا عسكرهم، وقتلوا أبا فديك وحصروا أصحابه بالمشقر فنزلوا على الحكم فقتل منهم نحو ستة آلاف وأسر ثمانمائة».

عاشراً - محاربة المهلّب الخوارج

كتب ابن خلدون عن محاربة المهلب للخوارج:[1]

«ولما عزل عبدالملك خالد بن عبدالله عن البصرة، واستعمل مكانه أخاه بشر بن مرون وجمع له المصرين، أمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة فيمن ينتخبه من أهل البصرة ويتركه وراءه في الحرب، وأن يبعث من أهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً بالبأس والنجدة والتجربة في جيش كثيف إلى المهلب، فيتبعوا الخوارج حتى يهلكوهم. فأرسل المهلب جَذِيع بن سعيد بن قُبَيصَة ينتخب الناس من الديوان. وشقّ على بشر أنّ امرأة المهلب جاءت من عند عبدالملك، فغصّ به ودعا عبدالرحمن بن مخنف، فأعلمه منزلته عنده وقال: اني أوليك جيش الكوفة، بحرب الأزارقة، فكن عند حسن ظني بك. ثمّ أخذ يغريه بالمهلب، وأن لا يقبل رأيه ولا مشورته، فأظهر له الوفاق. وسار إلى المهلب فنزلوا رامَهُرمز، ولقي بها الخوارج فحدق عليه على ميل من المهلب حيث يتراءى العسكران. ثمّ أتاهم نعي بشر بن مروان لعشر ليال من مقدمهم، وأنه استخلف على البصرة خالد بن عبدالله بن خالد، فافترق الناس من أهل المصرين إلى بلادهم ونزلوا الأهواز. وكتب إليهم خالد بن عبدالله يتهدّدهم ويحذرهم عقوبة عبدالملك، إن لم يرجعوا إلى المهلب. فلم يلتفتوا إليه ومضوا إلى الكوفة واستأذنوا عمر بن حريث، في الدخول ولم يأذن لهم فدخلوا واضربوا عن أذنه».

وبالفعل، كان الخوارج قد انصرفوا إلى تنظيم صفوفهم بهدف استئناف القتال ضدّ الأمويين وانتخبوا عليهم رئيساً جديداً. واعتمدوا استراتيجية جديدة في القتال حيث بدأت هجماتهم تتوالى على البصرة،

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٠ - ٩١.

الأمر الذي دفع الخلافة الأموية للتفتيش عن قائد قادر، فجاء تعيين المهلب بن أبي صفرة ضمن هذا الإطار.

تزامنت هذه الأحداث مع تعرّض الخوارج إلى أزمة داخلية بعد مقتل نافع بن الأزرق فانقسموا إلى فرق متعدّدة حدّدها البغدادي بعشرين فرقة[١] كانت فرقة الأزارقة أقواها. لذلك قاتلها المهلب، بعد أن انسحبت مع باقي الفرق إلى الأهواز لإعادة تنظيم شؤونها، وانتصر عليها في مواقع عدّة. لكن خلاف المهلب مع والي العراق بشر بن مروان، شقيق الخليفة عبدالملك، جعل موقفه يتحرّج كون بشر لم يمدّه بالمقاتلين لمتابعة معاركه ضدّ فوق الخوارج. إلاّ أن وفاة بشر حلّت المشكلة، إذ عيّن عبد الملك قائده الحجاج بن يوسف على العراق، فوجّه كلّ اهتمامه إلى قتال الخوارج وقام بتجنيد أهل العراق وإلحاقهم بالمهلب.

تابع المهلب قتال الأزارقة فدارت بينه وبينهم معارك عنيفة، وذلك إضافة إلى الأزمة الداخلية التي عصفت بالخوارج وجعلتهم يتصارعون على القيادة، فتركهم المهلب يقتتلون حتى أنهكهم القتال فقام بمهاجمتهم وانتصر عليهم.

وهكذا أخضع المهلب ثورات الخوارج الأزارقة.

لكن خطر الخوارج لم ينتهِ، إذ إن فرقة أخرى هي فرقة الخوارج الصفرية[٢] اشتدّ خطرها في الجزيرة، لا سيما بعد أن انضمّ إليها شبيب بن يزيد.

حادي عشر - مقتل صالح بن مسرّح وبيعة شبيب الخارجي

وفي السنة السادسة والسبعين للهجرة خرج صالح بن مسرّح في أرض الموصل والجزيرة على الأمويين، وكان موالياً للخوارج

(١) البغدادي، عبد القاهر، الفَرق بين الفُرق، القاهرة، ١٣٢٨ هـ، ص ٤٥.

(٢) نسبة إلى عبدالله بن الصفار - كما ان فرقة أخرى دعيت «الأباضية» نسبة إلى عبدالله بن أباض - انظر البند خامساً من هذا الفصل.

الصفرية، وانضمّ إليه شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني، أحد قادة الخوارج.

نقل ابن خلدون خبر قتال الخوارج الصفرية مع جند الجزيرة الأموي، فكتب:[١]

«ثمّ خرج صالح بن مَسرَح التميميّ من بني امرىء القيس بن زيد مَناة وكان يرى الصفريّة، وكان عابداً ومسكنه أرض الموصل والجزيرة، وله أصحاب يُقرئهم القرآن والفقه. وكان يأتي الكوفة ويلقى أصحابه، ويعدّ ما يحتاج إليه. فطلبه الحجاج فترك الكوفة، وجاء إلى أصحابه بالموصل، ودار فدعاهم إلى الخروج وحثّ الناس عليه. وجاءه كتاب شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانيّ من رؤوسهم يحثّه على مثل ذلك، فكتب إليه: إني في انتظارك فاقدم. فقدم شبيب في نفر من أصحابه منهم أخوه المضّاد، والمحلّل بن وائل اليشكُريّ ولقيه بدارا، وأجمع صالح الخروج. وبعث إلى أصحابه وخرجوا في صفر سنة ست وسبعين. وأمر بالدعاء قبل القتال وخيّر في الدماء والأموال. وعرضت لهم دواب لمحمّد بن مروان بالجزيرة، فأخذوها وحملوا عليها أصحابهم.

وبلغ محمّد بن مروان وهو أمير الجزيرة، فسرَّح إليهم عديّ بن عدي الكِندِيّ في ألف، فسار من حرّان، وكان ناسكاً فكره حروبهم، وبعث إليهم بالخروج، فحبسوا الرسول. فساروا إليه فطلعوا عليه وهو يصلّي الضحى، وشبيب في الميمنة، وسويد بن سليم في الميسرة. وركب عدي على غير تعبية فانهزم، واحتوى الخوارج على معسكره ومضوا إلى آمد. وسرّح محمّد بن مروان خالد بن حُرّ السَلَمِيّ في ألف وخمسمائة، والحرث بن جَعونَة العامِريّ في مثلها وقال: أيكما سبق فهو أمير على صاحبه.

وبعث صالح شبيباً إلى الحرث، وتوجّه هو نحو خالد وقاتلوهم أشدّ القتال. واعتصم أصحاب محمّد بخندقهم، فسارت الخوارج عنهم، وقطعوا أرض الجزيرة والموصل إلى الدسكرة. فسرّح إليهم الحجّاج الحَرث بن عُمَيرَة بن ذي الشعار في ثلاثة آلاف من أهل الكوفة، فلقيهم على تخم ما بين الموصل وصرصر، والخوارج في تسعين رجلاً. فانهزم سويد بين سليم، وقتل صالح. ثمّ

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٢٤.

وقف على صالح قتيلاً فنادى بالمسلمين فلاذوا به، ودخلوا حصناً هنالك، وهم سبعون. وعاث الحرث بهم وأحرق عليهم الباب، ورجع حتى يصبحهم من الغداة.

وهكذا قتل صالح بن مسرح وبويع شبيب من قبل الخوارج. ثمّ قاتل شبيب بني شيبان وقتل ثلاثين شيخاً منهم، بعد أن كانت جماعات من بني شيبان قد هربوا منه مع أموالهم حتى نزلوا ديراً خرباً قرب حولايا وهم نحو ثلاثة آلاف.[1]

أ - الوقعة بين شبيب وسفيان الخثعمي:

كتب ابن الأثير عن الوقعة بين شبيب وسفيان ما يلي:[2]

«ثمّ إن شبيباً ارتحل، فخرج معه طائفة وأقامت طائفة. وسار شبيب في أرض الموصل نحو أذربيجان، وكتب الحجاج إلى سفيان بن أبي العالية الخثعمي يأمره بالقفول وكان معه ألف فارس يريد أن يدخل بها طبرستان. فلما أتاه كتاب الحجاج صالح صاحب طبرستان ورجع، فأمره الحجاج بنزول الدسكرة حتى يأتيه جيش الحرث بن عميرة الهمذاني - وهو الذي قتل صالحاً - وحتى تأتيه خيل المناظر ثمّ يسير إلى شبيب. فأقام بالدسكرة ونودي في جيش الحرث بالكوفة والمدائن فخرجوا حتى أتوا سفيان وأتته خيل المناظر عليهم سورة بن الحرّ التميمي. فكتب إليه سورة بالتوقّف حتى يلحقه فعجل سفيان في طلب شبيب فلحقه بخناقين، وارتفع شبيب عنهم حتى كأنه يكره قتالهم وأكمن أخاه مصاداً في هزم[3] من الأرض في خمسين رجلاً فارساً، ومضى في سفح الجبل فقالوا: هرب عدوّ الله فاتبعوه. فقال لهم عدي بن عميرة الشيباني: لا تعجلوا حتى نبصُر الأرض لئلاّ يكون قد أكمن فيها كميناً فلم يلتفتوا فاتبعوه. فلمّا جاوزوا الكمين رجع عليهم

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٦٠.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٥٥.

(٣) الهزم: ما اطمأن من الأرض.

شبيب وخرج أخوه في الكمين فانهزم الناس بغير قتال. وثبت سفيان في نحو من مائتي رجل فقاتلهم قتالاً شديداً وحمل سويد بن سليم على سفيان فطاعنه ثمّ تضاربا بالسيوف واعتنق كلّ واحد منهما صاحبه فوقعا إلى الأرض ثمّ تحاجزا. وحمل عليهم شبيب فانكشفوا، وأتى سفيان غلام له فنزل عن دابته وأركبه وقاتل دونه فقتل الغلام، ونجا سفيان حتى انتهى إلى بابل مهروذ. وكتب إلى الحجاج بالخبر ويعرفه وصول الجند إلاّ سورة بن الحر فإنه لم يشهد معي القتال، فلمّا قرأ الحجاج الكتاب أثنى عليه».

ب - وقائع أخرى لشبيب:

كتب الحجاج إلى سورة بن الحرّ وأمره بأن يختار من المدائن خمسمائة فارس ويسير بهم وبمن معه لقتال شبيب، فسار سورة إليه في «جوخى». ثمّ سار شبيب عندما بلغه خبر سورة إلى المدائن، ومنها إلى النهروان، حيث جرى قتال انسحب في نهايته سورة نحو المدائن. فتبعه شبيب فلحق به بعد أن كان قد بلغ المدائن التي خرج أميرها ابن أبي العصيفر في مجموعة من جنده فرموا أصحاب شبيب بالنبال والحجارة، فانسحب شبيب عن المدائن.(١)

ثمّ سيّر الحجاج الجزل بن سعيد الكندي، واسمه عثمان، نحو شبيب في أربعة آلاف مقاتل، فقدّم أمامه عياض بن أبي لبنة. هرب شبيب أمام هذا الجيش بهدف ان يفرّق الجزل أصحابه فيلقاهم شبيب وهم على غير تعبئة.

أخيراً، جرى قتال عنيف بين الجانبين لم ينتصر فيه أي منهما، فسار شبيب إلى الكوفة، فأرسل الحجاج جيشاً من ألفي رجل إليه بقيادة سويد بن عبدالرحمن السعدي إلى الكوفة حيث جرى قتال عنيف بين الجيشين، انسحب بعده شبيب إلى الحيرة من دون ان يتمكّن الجيش الأموي منه.(٢)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥٦٣ - ٥٦٤.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٥٩.

أمر الحجاج سويد بملاحقة شبيب الذي أغار أسفل الفرات على من وجد هناك من أهل البادية فقتل منهم ثلاثة عشر رجلاً.

ثمّ انتقل شبيب إلى الأنبار واذربيجان، فيما سار الحجاج بنفسه إلى البصرة واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة.

سار شبيب إلى الكوفة حيث دخلها واقتحم المسجد الأعظم وقتل أناساً داخله.(١)

وظلّت الحرب سجالاً بين أمراء الحجاج وشبيب الذي قاتل على التوالي:(١)

١ - زحر بن قيس في ألف وثمانمائة فارس فانهزم زحر وقتل.

٢ - زائدة بن قدامة وعلى ميمنته زياد بن عمرو العتكي، وعلى ميسرته بشر بن غالب الأسدي - وقدم شبيب في ثلاث كتائب، كتيبة عليها سويد بن سليم على الميسرة، وأخرى عليها مصاد أخو شبيب على الميمنة، وأخرى عليها شبيب في الوسط. وقد جرى قتال عنيف.

وصف ابن الأثير هذه المعركة فكتب:

«فخرج زائدة بن قدامة يسير في الناس ويحثهم على الجهاد لعدوّهم والقتال ويطمعهم في عدوّهم لقلته وباطله وكثرتهم وأنهم على الحق ثمّ انصرف إلى موقفه. فحمل سويد بن سليم على زياد بن عمرو فانكشفوا وثبت زياد في نحو من نصف أصحابه. ثمّ ارتفع عنهم سويد قليلاً ثمّ حمل عليهم ثانية فتطاعنوا ساعة. وصبر زياد ساعة وقاتل زياد قتالاً شديداً وقاتل سويد أيضاً قتالاً شديداً وإنه لأشجع العرب. ثمّ ارتفع سويد عنهم فإذا أصحاب زياد يتفرّقون فقال لسويد أصحابه: ألا تراهم يتفرّقون احمل عليهم. فقال لهم شبيب: خلّوهم حتى يخفوا. فتركهم قليلاً ثمّ حمل الثالثة فانهزموا؛ وأخذ زياد بن عمرو السيوف من كلّ جانب فما ضرّه منها شيء للبسته التي عليه. ثمّ إنه انهزم وقد جرح جراحة يسيرة وذلك عند المساء. ثمّ حملوا على عبد الأعلى بن عبدالله بن عامر فهزموه ولم يقاتل كثيراً ولحق بزياد بن عمرو فمضيا

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٦٠.

منهزمين. وحملت الخوارج حتى انتهت إلى محمّد بن موسى بن طلحة عند المغرب فقاتلوه قتالاً شديداً وصبر لهم. ثمّ إن مصاداً أخا شبيب حمل على بشر بن غالب وهو في ميسرة أهل الكوفة فصبر بشر ونزل ونزل معه نحو خمسين رجلاً فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم أصحابه. وحملت الخوارج على أبي الضريس مولى بني تميم وهو يلي بشر بن غالب فهزموه حتى انتهى إلى موقف أعين فهزموهما حتى انتهوا بهما إلى زائدة ابن قدامة. فلما انتهوا إليه نادى: يا أهل الإسلام الأرض الأرض، لا يكونوا على كفرهم أصبر منكم على إيمانكم، فقاتلهم عامّة الليل حتى كان السحر. ثمّ إن شبيباً حمل عليه في جماعة من أصحابه فقتله، وقتل أصحابه وتركهم ربضة حوله. ولمّا قتل زائدة دخل أبو الضريس، وأعين جوسقاً عظيماً، وقال شبيب لأصحابه: ارفعوا السيف وادعوهم إلى البيعة فدعوهم إلى البيعة عند الفجر فبايعوه، وكان فيمن بايعه أبو بردة بن أبي موسى».

٣ - عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث الذي أرسله الحجاج في ستة آلاف فارس، فراح شبيب ينسحب أمامه إلى شهرزور فخانقين فجلولاء وسامراء والبث.[١]

ثمّ عزل الحجاج عبد الرحمن وعين عثمان بن قطن أميراً على الجيش، فعبّأ القوى جاعلاً على ميمنته خالداً بن نهيك ابن قيس، وعلى ميسرته عقيلاً بن شداد السلولي، وهو على الرجالة. أما شبيب فجعل على الميسرة سويداً بن سليم، وعلى القلب أخاه مصاداً وهو على الميمنة، واجتاز النهر إليهم وهو في مائة وواحد وثمانين رجلاً.

وقال شبيب لأصحابه: إني حامل على ميسرتهم من ما يلي النهر، فإذا هزمتها فليحمل صاحب ميسرتي على ميمنتهم ولا يبرح صاحب القلب حتى يأتيه أمري. وحمل على ميسرة عثمان فهزمها، وحمل سويد على ميمنة عثمان فهزمها.

نقل ابن الأثير تتمّة المعركة فكتب:[٢]

(١) من قرى الموصل.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٦٦.

«وحمل سويد على ميمنة عثمان فهزمها وعليها خالد بن نهيك فقاتله قتالاً شديداً. وحمل شبيب من ورائه فقتله، وتقدّم عثمان ابن قطن وقد نزل معه العرفاء وأشراف الناس والفرسان نحو القلب وفيه مصاد أخو شبيب في نحو من ستين رجلاً. فلمّا دنا منهم عثمان شدّ عليهم فيمن معه فضاربوهم حتى فرّقوا بينهم. وحمل شبيب بالخيل من ورائهم فما شعر عثمان ومن معه إلا والرماح في أكتافهم تكبهم لوجوههم. وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً في خيله، ورجع مصاد وأصحابه، فاضطربوا ساعة، وقاتل عثمان بن قطن أخس قتال. ثمّ إنهم أحاطوا به وضربه مصاد أخو شبيب ضربة بالسيف استدار لها وقال: وكان أمر الله مفعولاً - ثمّ إن الناس قتلوه ووقع عبدالرحمن فأتاه ابن أبي سبرة الجعفي - وهو على بغله - فعرفه فأركبه معه ونادى في الناس الحقوا بدَير أبي مريم ثمّ انطلقوا ذاهبين...

وأمر شبيب أصحابه فرفعوا السيف عن الناس ودعاهم إلى البيعة فبايعوه. وقتل من كندة يومئذ مائة وعشرون وقُتل معظم العرفاء. وبات عبدالرحمن بدَير البقار، فأتاه فارسان فصعدا إليه فخلا أحدهما بعبدالرحمن طويلاً ثمّ نزل فتبيّن أنّ ذلك الرجل كان شبيباً وقد كان بينه وبين عبدالرحمن مكاتبة. سار عبدالرحمن حتى أتى دَير أبي مريم فاجتمع الناس إليه وقالوا له: إن سمع شبيب بمكانك أتاك فكنت له غنيمة فخرج إلى الكوفة واختفى من الحجاج حتى أخذ له الأمان منه».

٤ - زهرة بن حوية وعتاب بن ورقاء اللذان قادا جموع أهل الكوفة وانضمّ إليهما أربعة آلاف مقاتل أرسلهم عبدالملك بن مروان بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي والفان بقيادة حبيب بن عبدالرحمن الحكمي.

تمركز جند الشام في «عين التمر» وجند الكوفة في «حمام أعين».

أمّا شبيب فقد خرج معه أربعون ألفاً من المقاتلة وعشرة آلاف من الأتباع.

وعبّأ عتاب جنده، فجعل على الميمنة محمّداً بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس، وعلى الميسرة نعيماً بن عليم، وعلى الرجالة حنظلة بن الحرث اليربوعي. وصفّ الرجالة عل صفوف ثلاثة في أحدها أصحاب

السيوف، وفي الثاني أصحاب الرماح، وفي الثالث رماة النبال.

أمّا شبيب فجعل على الميسرة سويداً بن سليم وفي القلب المحلل بن وائل وهو على الميمنة.

وحمل شبيب على الميسرة وسويد على الميمنة فقاتلهم رجال من تميم وهمدان، فانفضّ الناس عن عتاب فقتل وقتل زهرة ابن حوية.

وهكذا انتصر شبيب مجدداً فأمر بوقف القتال ودعاهم إلى بيعته فبايعه الناس قبل أن ينتقل الكوفة.

أخيراً قدم شبيب إلى الكوفة وفيها الحجاج الذي خرج إليه. نظّم شبيب جنده في ثلاثة كراديس، كردوس معه وآخر مع سويد بن سليم وآخر مع المحلل بن وائل. حمل سويد على جند الحجاج ففشل هجومه، ثمّ حمل المحلل ففشل أيضاً. ثمّ حمل عليهم شبيب ففشل بدوره.

وأخيراً حمل شبيب بكلّ أصحابه فاقتتلوا عامة النهار أشدّ قتال. ثمّ حمل أهل الشام على الخوارج فهزموهم، فولّى شبيب هارباً.[1]

نقل ابن كثير رواية عن نهاية القتال مع الحجاج فكتب:[2]

«واقتتل الناس قتالاً شديداً عامة النهار من أشدّ قتال في الأرض، حتى أقرّ كلّ واحد من الفريقين لصاحبه، والحجاج ينظر إلى الفريقين من مكانه. ثمّ إن خالد بن عتاب استأذن الحجاج في أن يركب في جماعة فيأتي الخوارج من ورائهم، فأذن له، فانطلق في جماعة معه نحو من أربعة آلاف، فدخل عسكر الخوارج من ورائهم فقتل مصاداً أخا شبيب، وغزالة امرأة شبيب، قتلها رجل يقال له فروة بن دقاق الكلبي. وخرق في جيش شبيب، ففرح بذلك الحجاج وأصحابه وكبّروا. وانصرف شبيب وأصحابه كلّ منهم على فرس، فأمر الحجاج الناس أن ينطلقوا في طلبهم، فشدّوا عليهم فهزموهم. وتخلّف شبيب في حامية الناس، ثمّ انطلق واتبعه الطلب فجعل ينعس وهو على فرسه حتى يخفق برأسه. ودنا منه

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٠.

(٢) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٢٠.

الطلب فجعل بعض أصحابه ينهاه عن ذلك في هذه الساعة، فجعل لا يكترث بهم ويعود فيخفق رأسه. فلما طال ذلك بعث الحجاج إلى أصحابه يقول دعوه في حرق النار، فتركوه ورجعوا.

ثمّ دخل الحجاج الكوفة فخطب الناس فقال في خطبته: إن شبيباً لم يهزم قبلها. ثمّ قصد شبيب الكوفة فخرجت إليه سرية من جيش الحجاج فالتقوا معه يوم الأربعاء فلا زالوا يتقاتلون إلى يوم الجمعة.

وكان على سرية الحجاج الحارث بن معاوية الثقفي في ألف فارس معه. فحمل شبيب على الحارث بن معاوية فكسره ومن معه، وقتل منهم طائفة، ودخل الناس الكوفة هاربين. وحصن الناس السكك فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج في طائفة من الجيش فقاتل حتى قتل، ثمّ هرب أصحابه ودخلوا الكوفة. ثمّ خرج إليه أمير آخر فانكسر أيضاً. ثمّ سار شبيب بأصحابه نحو السواد فمرّوا بعامل الحجاج على تلك البلاد فقتلوه. ثمّ خطب أصحابه وقال: اشتغلتم بالدنيا عن الآخرة. ثمّ رمى بالمال في الفرات، ثمّ سار بهم حتى افتتح بلاداً كثيرة ولا يبرز له أحد إلاّ قتله. ثمّ خرج إليه بعض الأمراء الذين على بعض المدن فقال له: يا شبيب ابرز إليّ وأبرز إليك، وكان صديقه. فقال له شبيب: إني لا أحبّ قتلك، فقال له: لكني أحبّ قتلك فلا تغرّنك نفسك وما تقدم من الوقائع. ثمّ حمل عليه فضربه شبيب على رأسه فهمس رأسه حتى اختلط دماغه بلحمه وعظمه، ثمّ كفنه ودفنه. ثمّ إن الحجاج أنفق أموالاً كثيرة على الجيوش والعساكر في طلب شبيب فلم يطيقوه ولم يقدروا عليه، وإنما سلط الله عليه موتاً قدراً من غير صنعهم ولا صنعه في هذه السنة».

ج - وفاة شبيب:

ممّا لا شكّ فيه ان شبيباً كان قائداً قديراً ومحرّكاً عظيماً لجنده، كما رأينا. أما وفاته فقد جاءت بعد معركة مع جند الحجاج أبلى فيها بلاءً حسناً.

نقل ابن كثير خبر وفاته فكتب:[١]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢١.

«وكان سبب ذلك أن الحجاج كتب إلى نائبه على البصرة الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل، وهو زوج ابنة الحجاج، يأمره أن يجهز جيشاً من أربعة آلاف يتطلّبون شبيباً، ويكونون تبعاً لسفيان بن الأبرد، ففعل وانطلقوا في طلبه فالتقوا معه. وكان ابن الأبرد معه خلق من أهل الشام. فلمّا وصل جيش البصرة إلى ابن الأبرد التقوا معه جيشاً واحداً هم وأهل الشام، ثمّ ساروا إلى شبيب فالتقوا به فاقتتلوا قتالاً شديداً وصبر كلّ من الفريقين. ثمّ عزم أصحاب الحجاج فحملوا على الخوارج حملة منكرة والخوارج قليلون ففروا بين أيديهم ذاهبين حتى اضطرّوهم إلى جسر هناك. فوقف عنده شبيب في مائة من أصحابه، وعجز سفيان بن الأبرد عن مقاومته. وردّه شبيب عن موقفه هذا بعد أن تقاتلوا نهاراً طويلاً كاملاً عند أول الجسر أشد القتال. ثمّ أمر سفيان بن الأبرد الرماة من أصحابه فرشقوهم بالنبال رشقاً واحداً، ففرت الخوارج. ثمّ كرت على الرماة فقتلوا منهم نحواً من ثلاثين رجلاً من أصحاب ابن الأبرد. وجاء الليل بظلامه فكفّ الناس بعضهم عن بعض، وبات كلّ من الفريقين مصرّاً على مناهضة الآخر. فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه على الجسر، فبينما شبيب على متن الجسر وهو على حصان له وبين يديه فرس أنثى، فنزا[1] فرسه عليها وهو على الجسر فنزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء، فقال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ثمّ انغمر في الماء ثمّ ارتفع وهو يقول ذلك تقدير العزيز العليم فغرق. فلما تحققت الخوارج سقوطه في الماء كبّروا وانصرفوا ذاهبين متفرقين في البلاد».

وهكذا توفي شبيب في السنة السابعة والسبعين للهجرة فطويت بموته صفحة طويلة من صراع الخوارج ضدّ الحكم الأموي.

أمّا أتباع شبيب فقد تابعوا تراجعهم نحو كرمان.

وهكذا تمكّن الحجاج من إبعاد خطر الخوارج الصفرية الذين هدّدوا العراق وفارساً طوال خلافة عبدالملك بن مروان،

(١) نزا: وثب.

واعتبرت ثورتهم من أخطر الثورات ضدّ الحكم الأموي. ولمّا تسلّم الوليد بن عبدالملك الحكم، كان الوضع مستتبّاً، إذ ضعف شأن الخوارج وزال خطرهم، إنما إلى حين.

د - الدروس والعبر:

١ - قام الخوارج بشنّ غارات على المدائن حيث راحوا يقتلون الأولاد والنساء ويبقرون بطون الحبالى، الأمر الذي ألّب السكّان ضدهم، فأخطؤوا في تصرّفهم. فالثوار عادة يعملون على استمالة السكان إلى جانبهم وذلك لدفعهم إلى مساعدتهم في أمور شتى، منها تأمين المستلزمات الحياتية.

٢ - أحسن ولاة بلاد فارس والعراق بملاحقة الخوارج بعد هزائمهم المتكرّرة، الأمر الذي جعلهم ينسحبون إلى أصبهان ويحاصرونها. ففي الصراع ضدّ الثوار الذين يمارسون أعمال الغريّة وحرب العصابات، ينبغي على القائد العسكري إبقاء وحداته على أهبة دائمة للتحرّك وملاحقة الثوار دون ترك المجال لهم للتجمّع وإعادة تنظيم صفوفهم والتخطيط لعمليات لاحقة.

وأحسن والي أصبهان بملاحقة أهل الري الذين ساعدوا الخوارج في قتالهم ضدّ الجيوش الأموية. فالعمليات ضدّ الثوار ينبغي أن تشمل معاقبة الذين يؤازرونهم في حربهم وذلك لهدفين:

- الأول، تأديب الذين انضمّوا إلى الثوار في قتال الدولة.
- الثاني، ردع باقي السكان عن تقديم يد العون لهم، كون ذلك يعرّضهم للعمليات التأديبيّة.

٣ - اعتمد الخليفة عبدالملك بن مروان استراتيجية تعبئة القوى وحشدها واختيار أفضل القادة لها، وإرسالها لملاحقة فرق الخوارج والقضاء عليها. وهكذا طبّق في حربه ضدهم مبدأَيْ الحرب الأول والثاني، فحقق تفوّق جيوشه عليهم بالعديد والعدّة وحافظ على حرية عمله إذ نقل مبادرة التحرّك من الخوارج إلى الدولة التي دأبت على تسيير جيش إثر آخر لإخضاعهم. وقد نجح في ذلك رغم صعوبة مواجهة الثوار بجيش نظامي بسبب اعتمادهم استراتيجية حرب العصابات وأعمال الغريّة في قتالهم.

٤ - اختلف الخوارج مع بعضهم وانقسموا إلى فرق عدّة حدّدها بعض المؤرّخين بعشرين فرقة، الأمر الذي أضعفهم وساعد الدولة الأمويّة في الصراع ضدهم. وقد أعطت العمليات الأموية ضد الخوارج نتائج إيجابية لأسباب أهمها:

* تفرّق الخوارج إلى فرق عدّة، وبالتالي تراجع إمكاناتهم العملانية.
* قتال فرق الخوارج ضدّ بعضها البعض لا سيما فرقة الأزارقة التي قام صراع على قيادتها.
* تصميم الخليفة الأموي على ملاحقتهم والقضاء عليهم.
* تكليف أبرز القادة المسلمين بقيادة الجيوش الأموية المكلفة بملاحقة الخوارج.
* تكليف القائد العربي الكبير ووالي العراق الحجاج بن يوسف بالقتال ضدّ الخوارج وقيامه بتعبئة أهل العراق وتسييرهم لملاحقة هؤلاء. وقد نجح الحجاج في مهمته نجاحاً كبيراً.

٥ - أما فرقة الخوارج الصفرية، فقد نجح قائدها شبيب في خوض معارك ناجحة ضدّ الجيوش الأموية. ففي قتال حرّان، التقى جيش شبيب وهو على تعبئة كاملة بالجيش الأموي بقيادة عدي الكندي فهزم هذا الأخير كون شبيب تمكّن من المحافظة على حرية عمله واختيار مكان وزمان المعركة.

وفي المعركة بين شبيب وسفيان الخثعمي، استعمل شبيب الخدعة إذ تظاهر بالفرار أمام الجيش الأموي، ثم نصب كميناً وقع فيه هذا الجيش الذي هُزم رغم تفوّقه العددي. وهكذا أحسن شبيب تطبيق قواعد الخدعة والمباغتة والهجوم المفاجىء فانتصر على عدوّه.

وفي المدائن، طبّق شبيب استراتيجية رفض القتال مقابل جيش متفوّق عليه في العديد والعدّة، ومهاجمة عدوّه عندما يكون هذا الأخير على غير تعبئة، وهي استراتيجية ناجحة الاستخدام في قتال الثوار والعصابات ضدّ الجيوش النظامية.

لقد تمكّن شبيب من تأليب الكثير من المسلمين حوله فأنزل هزائم عديدة بالجيوش الأموية كان خلالها يحمل بنفسه على عدوّه، الأمر الذي كان يحفّز جنوده ويدفعهم إلى الاستبسال في القتال. فأفضل

الحوافز التي يمكن للقائد ان يقدّمها لجنده هو إعطائهم المثل الصالح.

واعتمد شبيب، بعد كلّ معركة ناجحة، سياسة وقف القتال فور انتصاره وعدم الانتقام من المقاتلين الأعداء الذين يهزمون، إنما دعوتهم إلى مبايعته، الأمر الذي كانوا ينصاعون له غالباً فيكثر جنده وأتباعه.

٦ - أما في معركة الكوفة ضدّ الحجاج، فقد أدار هذا الأخير المعركة بمرونة ودهاء، فأرسل فرقة من أربعة آلاف مقاتل إلى مؤخّرة الخوارج الذين فوجئوا وحوصروا بعد أن تمكّن قائد هذه الفرقة من قتل مصاد شقيق شبيب وغزالة امرأته. وتمكّنت الفرقة الأموية من خرق جهاز جيش الخوارج الذين هزموا.

إلا أن ما يحيّر المراقب هو عدم إعطاء الحجاج الأمر لجيشه بملاحقة فلول الخوارج المنهزمين وتطبيق استراتيجية «استغلال النصر» بعد المعركة الناجحة. وهذا ما سمح لشبيب بالعودة إلى الكوفة مجدداً وإيقاع هزائم متتالية بالسرايا التي سيّرها الحجاج لقتاله، ثمّ افتتاح بلاد كثيرة في سواد العراق.

لذلك، نرى أنه على القائد استغلال كلّ الفرص للقضاء على عدوّه وعدم السماح له بإعادة تنظيم صفوفه بعد تعرّضه للهزيمة. هذه الحقيقة الاستراتيجية طبّقتها القيادات العسكرية بنجاح عبر التاريخ، خاصة جنكيزخان خلال حملة بولونيا حين اجتازت جيوشه مسافة ١١٢٠ كيلومتراً في خمسة عشر يوماً، وإبّان حملة المجر إذ قطعت ٤٥٠ كيلومتراً خلال ثلاثة أيام. كما طبّقها أيضاً الجنرال اللّنبي خلال الحرب العالمية الأولى في عملية ملاحقة الجيوش العثمانية المنسحبة شمالاً بعد خرق جبهتها في بئر السبع ودير البلح، من أعمال فلسطين، بتاريخ ١٩ أيلول ١٩١٨.

ثاني عشر - خلافات بين الخوارج

سبق الحديث عن الأزمة الداخلية التي عصفت بالخوارج عندما كان يقاتلهم المهلب ابن أبي صفرة الذي تركهم يقتتلون حتى أنهكهم القتال فقام بمهاجمتهم والانتصار عليهم، فسار قائدهم قطري بن الفجاءة إلى

طبرستان وبايع الباقون منهم عبدربه الكبير.[1]

أقام عبدربه في كرمان فقاتله المهلب قتالاً شديداً. ثمّ ترجّل الخوارج وعقروا دوابهم، واشتدّ القتال فانتصر المهلب وهزم الخوارج الذين كثر القتلى فيهم، وكان فيمن قتل عبدربه نفسه. وذكر ابن الأثير أن «عدد القتلى كان أربعة آلاف قتيل ولم ينج منهم إلاّ قليل».[2]

- مقتل قطري بن الفجاءة وعبيدة ابن هلال

في السنة السابعة والسبعين للهجرة قتل قائدان من قادة الخوارج، هما قطري بن الفجاءة وعبيدة بن هلال ومن معهم من الأزارقة. وكان هؤلاء قد ساروا إلى طبرستان فسيّر الحجاج إليهم سفيان بن الأبرد في جيش كبير، انضمّ إليه إسحاق بن محمّد بن الأشعث في جيش لأهل الكوفة، وأقبلا في طلبهم ولاحقوهم في طبرستان حيث قاتلوهم فوقع قطري عن دابته فقام أحد المقاتلين بقتله.[3]

ثمّ سار سفيان إلى الخوارج فأحاط بهم وحاصرهم، حتى أكلوا دوابهم. ثمّ خرجوا إليه فقاتلوه فقتلهم جميعهم وأرسل رؤوسهم إلى الحجاج.

كتب ابن الأثير عن نتيجة قتال سفيان للخوارج:[4]

«ثمّ دخل سفيان دنباوند وطبرستان... وقال بعض العلماء: انقرضت الأزارقة بعد مقتل قطري وعبيدة...».

ثالث عشر
خروج الخوارج بقيادة شوذب

استكان الخوارج في خلافة الوليد بن عبدالملك وسليمان بن عبدالملك نظراً لضعف شأنهم. لذلك لم يسجّل أي خروج

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦٠١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦٠٦.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٨٥.

على السلطة الأموية من قبلهم خلال هذه المرحلة التي انطلق فيها الخلفاء إلى استكمال الفتوحات الكبرى لا سيما على الجبهة البيزنطية. إنما، وفي خلافة عمر بن عبدالعزيز، عاد الخوارج الحرورية إلى التحرّك بقيادة رجل اسمه «شوذب»، وذلك في السنة مائة للهجرة.

نقل الطبري تفاصيل خروج شوذب، فكتب:[1]

«ذكر محمّد بن عمر أنّ ابن أبي الزّناد حدّثه، قال: خرجت حَروريّة بالعراق، فكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالحميد ابن عبدالرحمن بن زيد بن الخطّاب عامل العراق يأمره أن يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ. فلمّا أعذر في دعائهم بعث إليهم عبدالحميد جيشاً فهزمتهم الحَروريّة. فبلغ عمر، فبعث إليهم مسلمَة ابن عبدالملك في جيش من أهل الشام جهّزهم من الرّقة، وكتب إلى عبدالحميد: قد بلغني ما فعل جيشك جيش السوء، وقد بعثت مَسلمة بن عبدالملك، فخلِّ بينه وبينهم. فلقيهم مَسلَمة في أهل الشام، فلم يَنشَب أن أظهره الله عليهم.

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أنّ الذي خرج على عبدالحميد بن عبدالرحمن بالعراق في خلافة عمر بن عبدالعزيز شَوذَب - واسمه بِسطام من بني يَشكر - فكان مُخرجه بجوخَى في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة. فكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالحميد؛ ألاّ تحرّكهم إلاّ أن يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فحُل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً صلباً حازماً فوجّهه إليهم، ووجّه معه جنداً، وأوصه بما أمرتك به. فعقد عبدالحميد لمحمّد بن جرير بن عبدالله البجليّ في ألفين من أهل الكوفة، وأمره بما أمره به عمر. وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مُخرجَه، فقدم كتاب عمر عليه، وقد قدم عليه محمّد بن جرير. فقام بإزائه لا يحرّكه ولا يهيّجه، فكان في كتاب عمر إليه: إنه بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيّه، ولست بأولى بذلك منّي، فهلمّ أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا. فلم

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٦٢.

يحرّك بسطام شيئاً، وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانِك - قال أبو عبيدة: أحد الرّجلين اللذين بعثهما شوذب إلى عمر ممزوج مولى بني شيبان، والآخر من صليبة بني يشكُر - قال: فيقال: أرسل نفراً فيهم هذان، فأرسل إليهم عمر: ان اختاروا رجلين؛ فاختاروهما. فدخلا عليه فناظراه، فقالا له: أخبرنا عن يزيد لم تُقرّه خليفةً بعدك؟ قال: صيَّره غيري؛ قالا: أفرأيت لو وَليت مالاً لغيرك ثمّ وكّلته إلى غير مأمون عليه، أتُراك كنت أدّيت الأمانة إلى مَن ائتَمَنك! قال: فقال: انظِراني ثلاثاً، فخرجا من عنده، وخاف بنو مروان أن يُخرِج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد، فدسوا إليه مَن سقاه سُمّاً، فلم يلبث بعد خروجهما من عنده إلاّ ثلاثاً حتى مات».

ولم تنته قضيّة شوذب إلاّ في السنة الحادية بعد المائة للهجرة حين وجّه إليه يزيد ابن عبدالملك الجيش تلو الجيش، حتى كان مقتله ونهاية ثورته على يد القائد الكبير مسلمة بن عبدالملك في تفاصيل رواها ابن الأثير، فكتب:(١)

«قد ذكرنا خروجه ومراسلته عمر بن عبدالعزيز لمناظرته، فلما مات عمر أحبّ عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب - وهو الأمير على الكوفة - أن يحظى عند يزيد بن عبدالملك فكتب إلى محمّد بن جرير يأمره بمناجزة شوذب، واسمه بسطام، ولم يرجع رسولا شوذب ولم يعلم بموت عمر. فلمّا رأوا محمّداً يستعدّ للحرب أرسل إليه شوذب: ما أعجلكم قبل انقضاء المدّة أليس قد تواعدنا إلى أن يرجع الرسولان؟ فأرسل محمّد أنه لا يسعنا ترككم على هذه الحال. فقالت الخوارج: ما فعل هؤلاء هذا إلاّ وقد مات الرجل الصالح. فاقتتلوا فأصيب من الخوارج نفر وقتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا. وجرح محمّد بن جرير في إسته فدخل الكوفة وتبعهم الخوارج حتى بلغوا الكوفة ثمّ رجعوا إلى مكانهم. وأقام شوذب ينتظر صاحبيه فقدما عليه وأخبراه بموت

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

عمر. ووجه يزيد من عنده تميم بن الحباب في ألفين قد أرسلهم وأخبرهم أن يزيد لا يفارقهم على ما فارقهم عليه عمر فلعنوه ولعنوا يزيد معه وحاربوه فقتلوه وقتلوا أصحابه. ولجأ بعضهم إلى الكوفة وبعضهم إلى يزيد، فارسل إليهم يزيد نجدة بن الحكم الأزدي في جمع فقتلوه وهزموا أصحابه. فوجّه إليهم يزيد الشجاع بن وداع في ألفين فراسلهم وراسلوه فقتلوه وهزموا أصحابه، وقتل منهم نفر منهم هدبة ابن عم شوذب.

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة ابن عبدالملك الكوفة فشكا إليه أهل الكوفة مكان شوذب وخوفوه منه، فأرسل إليه مسلمة سعيد بن عمرو الحرشي - وكان فارساً - في عشرة آلاف فأتاه وهو بمكانه فرأى شوذب، وأصحابه ما لا قبل لهم به فقال لأصحابه: من كان يريد الشهادة فقد جاءته ومن كان يريد الدنيا فقد ذهبت. فكسروا أغماد سيوفهم وحملوا فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً حتى خاف سعيد الفضيحة فوبّخ أصحابه وقال: من هذه الشرذمة - لا أب لكم - تفرون يا أهل الشام يوماً كأيامكم. فحملوا عليهم فطحنوهم طحناً وقتلوا بسطاماً وهو شوذب وأصحابه».

هكذا فشل تحرّك الخوارج الحرورية في عهد عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبدالملك بقيادة شوذب أو بسطام.

رابع عشر - تحرّك الخوارج بقيادة بهلول بن بشر

وفي السنة التاسعة عشرة بعد المائة للهجرة، وفي عهد هشام بن عبدالملك، عاد الخوارج إلى التحرّك بقيادة رجل ادّعى الألوهية اسمه بهلول بن بشر، الذي هزم جيشاً أموياً أرسله خالد بن عبدالله القسري أمير الكوفة. فقام هشام بإرسال جيوش عدّة من الشام والعراق والجزيرة تمكّنت من القضاء على بهلول وحركته.

نقل الطبري تفاصيل تحرّك بهلول حتى مقتله، فكتب:[1]

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٧٥ - ١٧٧.

«ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنّى أن بهلولا كان يتألّه، وكان له قوت دانق، وكان مشهوراً بالبأس عند هشام بن عبدالملك. فخرج يريد الحجّ، فأمر غلامه أن يبتاع له خلاًّ بدرهم، فجاءه غلامه بخمر، فأمر بردّها وأخذ الدرهم، فلم يُجب إلى ذلك. فجاء بُهلول إلى عامل القرية - وهي من السواد - فكلّمه. فقال العامل: الخمر خير منك ومن قومك. فمضى بهلول في حجّه حتى فرغ منه، وعزم على الخروج على السلطان، فلقي بمكّة مَن كان مثل رأيه، فاتّعدوا قرية من قرى الموصل، فاجتمع بها أربعون رجلاً، وأمّروا عليهم البهلول. وأجمعوا على ألاّ يمرّوا بأحد إلاّ أخبروه أنّهم أقبلوا من عند هشام على بعض الأعمال. ووجّههم إلى خالد ليُنفِذهم في أعمالهم، فجعلوا لا يمرّون بعامل إلاّ أخبروه بذلك. وأخذوا دوابّ من دوابّ البريد، فلمّا انتهوا إلى القرية التي كان ابتاع فيها الغلام الخلّ فأعطِيَ خمراً، قال بهلول: نبدأ بهذا العامل الذي قال ما قال؛ فقال له أصحابه: نحن نريد قتل خالد؛ فإن بدأنا بهذا شُهِرنا وحذِرنا خالد وغيره؛ فننشدك الله إن تقتل هذا فيفلت منا خالد الذي يهدم المساجد؛ ويبني البيعَ والكنائس، ويولّي المجوس على المسلمين، ويُنكح أهل الذمّة المسلمات؛ لعلنا نقتله فيريح الله منه. قال: والله لا أدع ما يلزمني لما بعده؛ وأرجو أن أقتل هذا الذي قال لي ما قال وأدرك خالداً فأقتله؛ وإن تركت هذا وأتيت خالداً شُهر أمرنا فأفلت هذا، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿قاتِلوا الَّذِين يَلُونَكمْ مِنَ الكُفَّارِ ولْيجِدُوا فِيكم غِلْظَةً﴾،[1] قالوا: أنت ورأيك. فأتاه فقتله، فنذر بهم الناس وعلموا أنهم خوارج، وابتدروا إلى الطريق هرّابا، وخرجت البرُد إلى خالد فأخبروه أن خارجةً قد خرجت؛ وهم لا يدرون حينئذ مَن رئيسهم.

فخرج خالد من واسط حتى أتى الحِيرة وهو حينئذ في الحلَق. وقد قدم في تلك الأيام قائد من أهل الشام من بني القين في جيش قد وُجّهوا مدداً لعامل خالد على الهند، فنزلوا الحيرة. فلذلك قصدها خالد،

(١) التوبة: من الآية ١٢٣.

فدعا رئيسهم فقال: قاتل هؤلاء المارقة؛ فإنّ من قتل منهم رجلاً أعطيته عطاء سوى ما قبض بالشام، وأعفيته من الخروج إلى أرض الهند - وكان الخروج إلى أرض الهند شاقّاً عليهم - فسارعوا إلى ذلك! فقالوا: نقتل هؤلاء النّفر ونرجع إلى بلادنا. فتوجّه القينيّ إليهم في ستمائة، وضمّ إليهم خالد مائتين من شُرط الكوفة، فالتقوا على الفرات، فعبّأ القينيّ أصحابه، وعزل شرط الكوفة، فقال: لا تكونوا معنا - وإنّما يريد في نفسه أن يخلو هو وأصحابه بالقوم فيكون الظفر لهم دون غيرهم لما وعدهم خالد. وخرج إليهم بُهلول، فسأل عن رئيسهم حتى عرف مكانه، ثمّ تنكّر له، ومعه لواء أسود، فحمل عليه فطعنه في فرج درعه؛ فأنفذه. فقال: قتلتني قتلك الله! فقال بهلول: إلى النار أبعدك الله.

وولّى أهل الشام مع شرط أهل الكوفة منهزمين حتى بلغوا باب الكوفة، وبهلول وأصحابه يقتلونهم. فأما الشاميون فإنهم كانوا عل خيل جياد ففاتوه؛ وأما شُرَط الكوفة فإنه لحقهم. فقالوا: اتق الله فينا فإنا مكرهون مقهورون. فجعل يقرع رؤوسهم بالرّمح، ويقول: الحقوا! النّجاء النّجاء! ووجد البهلول مع القينيّ بدرة فأخذها.

وكان بالكوفة ستة نفر يرون رأي البهلول، فخرجوا إليه يريدون اللّحاق به فقتلوا. وخرج إليهم البُهلول وحمل البَدْرة بين يديه، فقال: مَن قتل هؤلاء النفر حتى أعطيه هذه الدراهم؟ فجعل هذا يقول: أنا، وهذا يقول: أنا؛ حتى عرفهم، وهم يرون أنه من قِبَل خالد جاء ليعطيهم مالاً لقتلهم مَن قتلوا. فقال بُهلول لأهل القرية: أصَدق هؤلاء، هم قتلوا النفر. قالوا: نعم. وخشي بهلول أنهم ادّعوا طمعاً في المال، فقال لأهل القرية: انصرفوا أنتم؛ وأمر بأولئك فقُتِلوا، وعاب عليه أصحابه فحاجّهم، فأقرّوا له بالحجّة.

وبلغت هزيمة القوم خالداً وخبر مَن قُتل من أهل صَرِيفين، فوجّه قائداً من بني شيبان أحد بني حوشب بن يزيد بن رويم؛ فلقيهم فيما بين الموصل والكوفة. فشدّ عليهم البُهلول، فقال: نشدتك بالرحم! فإني جانح مستجير! فكفّ عنه. وانهزم أصحابه، فأتوا خالداً وهو مقيم بالحيرة ينتظر، فلم يرعه إلا الفَلّ قد هجم عليه. فارتحل البُهلول من يومه

يريد الموصل؛ فخافه عامل الموصل، فكتب إلى هاشم: إنّ خارجةً خرجت فعاثت وأفسدت؛ وأنه لا يأمن على ناحية، ويسأله جنداً يقاتلهم به. فكتب إليه هشام: وجّه إليهم كُثارة بن بشر - وكان هشام لا يعرف البهلول إلاّ بلقبه - فكتب إليه العامل: إن الخارج هو كُثارة.

قال: ثمّ قال البهلول لأصحابه: إنا والله ما نصنع بابن النصرانيّة شيئاً - يعني خالداً - وما خرجت إلاّ لله. فلم لا نطلب الرأس الذي يسلط خالداً وذوي خالد! فتوجّه يريد هشاماً بالشام، فخاف عمّال هشام مَوجدته إن تركوه يجوز بلادهم حتى ينتهي إلى الشام. فجنّد له خالداً من أهل العراق، وجنّد له عامل الجزيرة جنداً من أهل الجزيرة، ووجّه إليه هشام جنداً من أهل الشام. فاجتمعوا بدير بين الجزيرة والموصل، وأقبل بُهلول حتى انتهى إليهم - ويقال: التقوا بالكُحيل دون الموصل. فأقبل بهلول، فنزل على باب الدَّير، فقالوا له: تزحزح عن باب الدير حتى نخرج إليك، فتنحّى وخرجوا؛ فلمّا رأى كثرتهم وهو في سبعين جعل من أصحابه ميمنة وميسرة، ثمّ أقبل عليهم فقال: أكلّكم يرجو أن يقتلنا ثمّ يأتي بلده وأهله سالماً؟ قالوا: إنا نرجو ذلك إن شاء الله. فشدّ على رجل منهم فقتله، فقال: أما هذا فلا يأتي أهله أبداً؛ فلم يزل ذلك ديدنَه حتى قتل منهم ستة نفر؛ فانهزموا، فدخلوا الدّير فحاصرهم. وجاءتهم الأمداد فكانوا عشرين ألفاً، فقال له أصحابه: ألا نعقر دوابّنا، ثمّ نشدّ عليهم شدّة واحدة؟ فقال: لا تفعلوا حتى نبلى الله عذراً ما استمسكنا على دوابّنا. فقاتلوهم يومهم ذلك كلّه إلى جنح العصر حتى أكثروا فيهم القتل والجراح.

ثمّ إن بهلولاً وأصحابه عقروا دوابهم وترجّلوا، وأصلتوا لهم السيوف، فأوجعوا فيهم؛ فقتل عامة أصحاب بُهلول وهو يقاتل ويذود عن أصحابه، وحمل عليه رجل من جديلة قيس يكنى أبا الموت، فطعنه فصرعه. فوافاه مَن بقي من أصحابه، فقالوا له: وَلِّ أمرنا من بعدك من يقوم به. فقال: إن هلكت فأمير المؤمنين دِعامة الشيبانيّ، فإن هلك دعامة فأمير المؤمنين عمرو اليشكريّ، وكان أبو الموت إنما ختل البهلول. ومات بهلول من ليلته».

فلمّا مات بهلول خرج بالخوارج الحرورية عمرو اليشكري فقتل، ثمّ خرج العنزي فوجه إليه خالد السمط بن مسلم البجلي في أربعة آلاف فالتقوا بناحية الفرات، فشدّ العنزي على السمط فضربه على يده فوقع سيفه وشلّت يده. لكن السمط حمل على الحرورية فانهزموا وقتلوا جميعهم.

ثمّ خرج وزير السختياني في جمع من الحرورية، وكان مخرجه بالحيرة، فجعل لا يمرّ بقرية إلاّ أحرقها، ولا بأحد إلاّ قتله. وجّه إليه خالد قائداً من قادته ومعه شرطة الكوفة فقاتلوه وقتلوا عامة أصحابه وألقوا القبض عليه حيث قتله خالد.(١)

خامس عشر
خروج الصّحاري بن شبيب

وفي السنة التاسعة عشرة بعد المائة أيضاً ثار الصحاريّ بن شبيب من الخوارج الصفرية على خالد أمير الكوفة الذي وجّه إليه جنداً فقاتلوه قتالاً شديداً وقتلوه مع كلّ أصحابه، كما ذكر ابن الأثير الذي كتب:(٢)

«خرج الصحاريّ بن شبيب بن يزيد بناحية جبل وكان قد أتى خالداً يسأله الفريضة فقال خالد: وما يصنع ابن شبيب بالفريضة؟ فمضى وندم خالد وخاف أن يفتق عليه فطلبه فلم يرجع إليه. وسار حتى أتى جبل وبها نفر من بني تيم اللات بن ثعلبة فأخبرهم فقالوا: وما ترجو من ابن النصرانيّة؟ كنت أولى أن تسير إليه بالسيف فتضربه به. فقال: والله ما أردت الفريضة وما أردت إلا التوصّل إليه لئلا ينكرني ثمّ أقتله بفلان - يعني بفلان رجلاً من قعدة الصفرية - وكان خالد قتله صبراً. ثمّ دعاهم إلى الخروج معه فتبعه منهم ثلاثون رجلاً وخرج بهم فبلغ خبره خالداً فقال: قد كنت خفتها منه. ثمّ وجّه إليه خالداً جنداً فلقوه بناحية المناذر فقاتلهم قتالاً شديداً فقتلوه وجميع أصحابه».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٣١ - ٤٣٢.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٣٢.

سادس عشر
خروج الضحّاك الشيباني

وفي السنة السابعة والعشرين بعد المائة للهجرة خرج الضحّاك بن قيس الشيباني على السلطة ودخل الكوفة. وسبب خروجه أنه حين قتل الوليد خرج بالجزيرة حروري يقال له سعيد بن بهدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة فيهم الضحاك، فاغتنم فرصة قتل الوليد وانشغال مروان بالشام فخرج بأرض كفرتوثا.(١)

وخرج حروري آخر اسمه بسطام البيهسي، وهو مخالف لرأيه ومعه جند من ربيعة. فسار كلّ واحد منهما إلى صاحبه، فلما تقاربا تقاتلا فانتصر سعيد الذي مضى نحو العراق لما بلغه من تشتت الأمر بها واختلاف أهل الشام واقتتالهم في ما بينهم.

ثمّ توفي سعيد بن بهدل فاستخلف الضحّاك بن قيس من بعده فاجتمع إليه ألف مقاتل اتجه بهم إلى الكوفة. ومرّ بأرض الموصل فتبعه منها ومن أهل الجزيرة ما يقارب الثلاثة آلاف.

نقل الطبري خبر الضحاك وقتاله من واليَيْ الكوفة والحيرة، فكتب:(٢)

«وأما أبو عبيدة معمر بن المثنّى، فإنه قال: حدّثني أبو سعيد، قال: لما مات سعيد بن بهدل المرّيّ، وبايعت الشراة للضحّاك، أقام بشهرزور وثابت إليه الصُّفرية من كلّ وجه حتى صار في أربعة آلاف، فلم يجتمع مثلهم لخارجيّ قطّ قبله. قال: وهلك يزيد بن الوليد وعامله على العراق عبدالله بن عمر، فانحطّ مروان من أرمينية حتى نزل الجزيرة، وولّي العراق النَّضر بن سعيد - وكان من قوّاد ابن عمر - فشخص إلى الكوفة. ونزل ابن عمر الحيرة، فاجتمعت المضريّة إلى النّضر واليمانية إلى ابن عمر، فحاربه أربعة أشهر. ثمّ أمدّ مروان النَّضْر بابن الغزيّل، فأقبل الضحاك نحو الكوفة وذلك في سنة سبع وعشرين ومائة، فأرسل ابن عمر إلى النّضر: هذا لا يريد غيري وغيرك، فهلمّ نجتمع عليه

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٨٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

فتعاقدا عليه. وأقبل ابن عمر، فنزل تلّ الفتح وأقبل الضحاك ليعبر الفرات، فأرسل إليه ابن عمر حمزة بن الأصبغ بن ذؤالة الكلبيّ ليمنعه من العبور، فقال عبيدالله بن العبّاس الكنديّ: دعه يعبر إلينا، فهو أهون علينا من طلبه. فأرسل ابن عمر إلى حمزة يكفّه عن ذلك، فنزل ابن عمر الكوفة، وكان يصلّي في مسجد الأمير بأصحابه، والنضر بن سعيد في ناحية الكوفة يصلّي بأصحابه، لا يجامع ابن عمر ولا يصلّي معه؛ غير أنهما قد تكافآ واجتمعا على قتال الضحّاك. وأقبل الضحاك حين رجع حمزة حتى عبر الفرات، ونزل النُّخيلة يوم الأربعاء في رجب سنة سبع وعشرين ومائة، فخفّ إليهم أهل الشام من أصحاب ابن عمر والنضر، قبل أن ينزلوا، فأصابوا منهم أربعة عشر فارساً وثلاث عشرة امرأة. ثمّ نزل الضحاك وضرب عسكره، وعبّى أصحابه، وأراح، ثمّ تغادوا يوم الخميس، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكشفوا ابن عمر وأصحابه، وقتلوا أخاه عاصماً؛ قتله البِرذَون بن مرزوق الشيبانيّ، فدفنه بنو الأشعث بن قيس في دارهم. وقتلوا جعفر بن العباس الكنديّ أخا عبيدالله، وكان جعفر على شرطة عبدالله بن عمر. وكان الذي قتل جعفراً عبدالملك بن علقمة بن عبد القيس، وكان جعفر حين رهقه عبدالملك نادى ابن عمّ له يقال له شاشلة، فكثر عليه شاشلة، وضربه رجل من الصُّفريّة، ففلق وجهه».

ثمّ اقتتلوا يوم الجمعة فانهزم أصحاب ابن عمر ودخلوا خنادقهم قبل أن يتراجعوا مع ابن عمر إلى واسط.(١)

وهكذا استولى الضحاك على الكوفة ودخلها حيث بايعه أهلها.

أمّا ابن عمر فقد عاد للقتال مع النضر في واسط التي قصدها الضحاك واستخلف على الكوفة ملجان الشيباني. فلما بلغ ابن عمر والنضر قدومه اتفقا على محاربته فبدأ القتال بين الجانبين ودام أشهر شعبان ورمضان وشوال.

ولم ينتهِ القتال إلاّ بعد أن بايع عبدالله بن عمر الضحاك وصالحه وكان معه سليمان بن هشام بن عبدالملك.(٢)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٨٧.

أمّا مقتل الضحاك وانفضاض أصحابه فقد كان على يد الخليفة مروان بن محمّد. وقد نقل خبر القتال بينهما ابن الأثير الذي كتب:[1]

«قد ذكرنا محاصرة الضحاك بن قيس الخارجي عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز بواسط. فلمّا طال عليه الحصار أُشير عليه بأن يدفعه عن نفسه إلى مروان، فأرسل ابن عمر إليه أن مقامكم علي ليس يسيء، هذا مروان فسيروا إليه فإن قتلته فأنا معك. فصالحه وخرج إليه وصلّى خلفه فانصرف إلى الكوفة وأقام ابن عمر بواسط وكاتب أهل الموصل الضحاك ليقدم عليهم ليمكنوه منها. فسار في جماعة من جنوده بعد عشرين شهراً حتى انتهى إليها - وعليها يومئذ لمروان رجل من بني شيبان يقال له: القطران بن أكمة - ففتح أهل الموصل البلد فدخله الضحاك. وقاتلهم القطران ومن معه من أهله وهم عدّة يسيرة حتى قتلوا واستولى الضحاك على الموصل وكورها.

وبلغ مروان خبره وهو محاصر حمص مشتغل بقتال أهلها، فكتب إلى ابنه عبدالله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين فيمن معه يمنع الضحاك عن توسّط الجزيرة. فسار إليها في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف، وسار الضحاك إلى نصيبين فحصر عبدالله فيها، وكان مع الضحاك ما يزيد على مائة ألف. ووجه قائدين من قواده إلى الرقة في أربعة آلاف أو خمسة آلاف فقاتله من بها فوجه إليهم مروان من رحّلهم عنها. ثمّ إن مروان سار إلى الضحاك فالتقوا بنواحي كفرتوثا من أعمال ماردين فقاتله يومه أجمع. فلمّا كان عند المساء ترجّل الضحاك ومعه من ذوي الثبات وأرباب البصائر نحو من ستة آلاف ولم يعلم أكثر أهل عسكره بما كان. فأحدقت بهم خيول مروان وألحوا عليهم في القتال حتى قتلوهم عند العتمة. وانصرف من بقي من أصحاب الضحاك العتمة إلى عسكرهم ولم يعلموا بقتل الضحاك ولم يعلم به مروان أيضاً. وجاء بعض من عاينه إلى أصحابه فأخبرهم فبكوا وناحوا عليه، وخرج قائد من قواده إلى مروان فأخبره، فأرسل معه النيران والشمع فطافوا

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢١ - ٢٢.

عليه فوجدوه قتيلاً وفي وجهه وفي رأسه أكثر من عشرين ضربة فكبّروا فعرف عسكر الضحاك أنهم قد علموا بقتله. وبعث مروان رأسه إلى مدائن الجزيرة فطيف به فيها، وقيل: إن الضحاك والخيبري إنّما قتلا سنة تسع وعشرين».

أ - بيعة الخيبري ومقتله وبيعة شيبان:

بعد وفاة الضحاك بايع أهل عسكره الخيبري الذي اتفق مع الخليفة مروان، وكان سليمان بن هشام بن عبدالملك معه.

نقل ابن الأثير تفاصيل قتال الخيبري في ما بعد مع مروان وصولاً إلى مقتله، فكتب:(١)

«ولمّا قتل الضحاك أصبح أهل عسكره فبايعوا الخيبري وأقاموا يومئذ وغادروا القتال من بعد الغد وصافوا مروان وصافهم. وكان سليمان بن هشام بن عبدالملك مع الخيبري وكان قبله مع الضحاك وقد ذكرنا سبب قدومه، وقيل: بل قدم على الضحاك - وهو بنصيبين - في أكثر من ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه تزوّج أخت شيبان الحروري الذي بويع بعد قتل الخيبري. فحمل الخيبري على مروان في نحو من أربعمائة فارس من الشراة فهزم مروان وهو في القلب. وخرج مروان من العسكر منهزماً ودخل الخيبري ومن معه عسكره ينادون بشعارهم ويقتلون من أدركوا حتى انتهوا إلى خيمة مروان نفسه فقطعوا أطنابها. وجلس الخيبري على فرشه، وميمنة مروان وعليها ابنه عبدالله ثابتة وميسرته ثابتة وعليها إسحاق بن مسلم العقيلي. فلمّا رأى أهل العسكر قلّة من مع الخيبري ثار إليه عبيدهم بعمد الخيم فقتلوا الخيبري وأصحابه جميعاً في خيمة مروان وحولها. وبلغ مروان الخبر وقد جاز العسكر بخمسة أميال أو ستة منهزماً فانصرف إلى عسكره ورد خيوله عن مواقعها وبات ليلته في عسكره. وانصرف أهل عسكر الخيبري فولوا عليهم شيبان وبايعوه فقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف منذ يومئذ».

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٢ - ٢٣.

ب - مقتل شيبان الخارجي:

بعد وفاة الضحاك والخيبري بايع الخوارج الحرورية شيباناً بن عبدالعزيز أبا الدلف اليشكري، فأقام يقاتل مروان بعد أن تفرّق عنه كثيرون من أصحابه. وأشار عليه سليمان ابن هشام بأن ينصرف وعناصره إلى الموصل فيجعلوها ظهرهم، فارتحل شبيب في أربعين ألفاً، فتبعهم مروان إلى الموصل. تمركز الخوارج شرقي دجلة وعقدوا جسوراً عليها من معسكرهم إلى المدينة. وخندق مروان بازائهم. وكان أهل الموصل يقاتلون مع الخوارج.[1]

وأقام مروان ستة أشهر يقاتلهم، وكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يأمره بالمسير من قرقيسيا إلى العراق لمقاتلة المثنى بن عمران العائذي، وهو خليفة الخوارج بالعراق.

تلاقى يزيد والمثنى في عين التمر، فاقتتلوا قتالاً شديداً هزم فيه الخوارج فانسحبوا إلى الكوفة.

وأرسل شبيب قوّة إلى البصرة لمقاتلة واليها ابن هبيرة الذي هزم الخوارج واستباح معسكرهم واستولى على العراق. وسار ابن هبيرة إلى واسط فأخذ عبدالله بن عمر وسجنه.[2]

أمر مروان ابن هبيرة بإرسال مدد له فأرسل سبعة آلاف بقيادة عامر بن ضبارة، فبلغ شيبان خبره فأرسل الجون بن كلاب الخارجي في جمع كبير قاتلوا عامراً فهزموه. أمدّ مروان عامراً بالجند فسار إلى الجون والخوارج وقاتلهم وهزمهم وقتل الجون.[3]

أمّا نهاية شيبان فقد نقلها ابن الأثير إذ كتب:[4]

«فلمّا انتهى خبر قتل الجون إلى شيبان ومسير عامر نحوه كره أن يقيم بين العسكرين فارتحل بمن معه من الخوارج. وقدم عامر على مروان بالموصل فسيّره في جمع كثير في أثر شيبان، فإن أقام أقام وإن سار سار وأن لا يبدأه بقتال. فإن قاتله شيبان

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٠٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٥ - ٢٦.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٠٤.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٦.

قاتله وإن أمسك أمسك عنه وإن ارتحل اتبعه. فكان على ذلك حتى مرّ على الجبل وخرج على بيضاء فارس بها عبدالله بن معاوية بن حبيب بن جعفر في جموع كثيرة. فلم يتهيأ الأمر بينهما فسار حتى نزل جيرفت من كرمان. وأقبل عامر بن ضبارة حتى نزل بإزاء ابن معاوية أياماً ثمّ ناهضه وقاتله فانهزم ابن معاوية فلحق بهراة. وسار ابن ضبارة بمن معه فلقي شيبان بجيرفت فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت الخوارج واستبيح عسكرهم ومضى شيبان إلى سجستان فهلك بها وذلك في سنة ثلاثين ومائة».

وأما سبب مقتل شيبان من قبل أبي مسلم الخراساني، فقد لخصه الطبري كما يلي:[1]

«فذكر عليّ بن محمّد أن أبا حفص أخبره والحسن بن رشيد وأبا الذيال أن المدّة التي كانت بين أبي مسلم وبين شيبان لما انقضت، أرسل أبو مسلم إلى شيبان يدعوه إلى البَيعة. فقال شيبان: أنا أدعوك إلى بيعتي. فأرسل إليه أبو مسلم: إن لم تدخل في أمرنا فارتحل عن منزلك الذي أنت فيه. فأرسل شيبان إلى ابن الكَرمانيّ يستنصره، فأبى. فسار شيبان إلى سَرخَس، واجتمع إليه جمع كثير من بَكر بن وائل. فبعث إليه أبو مسلم تسعةً من الأزد، فيهم المنتجع بن الزُّبير؛ يدعوه ويسأله أن يكفّ، فأرسل شيبان، فأخذ رسل أبي مسلم فسجنهم. فكتب أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث بأبيورد، يأمره أن يسير إلى شيبان فيقاتله. ففعل، فهزمه بسّام، واتبعه حتى دخل المدينة، فقتل شيبان وعدّة من بكر بن وائل. فقيل لأبي مسلم: إنّ بساماً ثائر بأبيه؛ وهو يقتل البريء والسقيم، فكتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم عليه، فقدم، واستخلف على عسكره رجلاً».

ج - الدروس والعبر والنتائج:

١ - في القتال ضدّ الخارجي شوذب أو بسطام برز قائد عربي أموي لعب فيما بعد أبرز دور عسكري، هو مسلمة بن عبدالملك الذي تمكّن من القضاء على شوذب.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٢٤.

وسيلعب مسلمة دوراً مهماً، ليس فقط في قتال الخوارج، إنما أيضاً في الحملات على الروم التي توّجها بحملته على القسطنطينية ومحاصرتها وإنزال الخسائر بحاميتها.

٢ - تحرّك الخوارج بقيادة بهلول بن بشر الذي سار على رأس مجموعة قتالية قاصداً قتل خالد بن عبدالله القسري أمير الكوفة. إلاّ أنه، وفي طريقه إليها، ارتكب خطأً عملانياً أدى إلى أخذ خالد احتياطاته وعدم تمكّن بهلول من مفاجأته. أما الخطأ فكان تحوّل الخوارج عن مهمّتهم الأساسية إلى مهمّة ثانوية تجسّدت بمهاجمة أحد عمّال القرى وقتله.

فعندما تكلّف وحدة عسكرية بمهمّة سريّة وتنطلق إلى تنفيذها، عليها تجنّب الاشتباك مع أي عدوّ قد تلتقي به أثناء انتقالها إلى مكان المهمّة حتى ولو كان بإمكانها التغلّب عليه، لأن ذلك يكشف الوحدة وينبّه العدو الذي يتخذ احتياطات ويستنفر وحداته فيتجنّب المفاجأة.

وبالفعل، نجا خالد من القتل، فخاض صراعاً طويلاً ضدّ بهلول، وأرسل له الخليفة المدد من الجزيرة والشام فوقعت معركة عنيفة بينهما انتهت بمقتل بهلول دون أن يتمكّن من تنفيذ مهمته. إضافة إلى ذلك، خاض خالد صراعاً طويلاً ضدّ الخوارج الحرورية والصفرية وانتصر عليهم وقتل قادتهم.

٣ - اجتمع الخوارج وأيّدوا الضحاك بن قيس الشيباني في مرحلة تضعضعت فيها أحوال الخلافة الأموية في الشام والعراق، وأيّدت القيسية والي العراق النضر بن سعيد واليمانية واليها السابق عبدالله بن عمر اللذين تواجهت جيوشهما وكاد القتال أن ينشب بينهما. إلاّ أن الخطر الخارجي وحّدهما رغم الخلافات القيسية - اليمانية. فعندما تتعرّض الدولة لأخطار خارجية وتتهدد مصالحها بغزو من الخارج، تتوحّد عامة فرقها المختلفة والمتصارعة لرد الخطر الخارجي.

إنما، ورغم ذلك، تمكّن الضحاك من هزيمة الجيوش الأموية واستولى على الكوفة التي بايعه أهلها. ثمّ نفّذ الخوارج بقيادة الضحاك عمليات واسعة في العراق طوال أشهر ثلاثة انتهت بسيطرته عليه واعتراف عبدالله بن عمر بسلطته.

وتـواجـه الضـحـاك في جـيش كـبير مع الخليفة مروان بن محمد في معركة عنيفة كادت الغلبة فيها أن تكون للخوارج قبل ان يخرج الضحاك مع مفرزة من جنده من معسكره فتحيط به خيالة الخليفة وتقضي عليه، فيتصالح خليفته الخيبري مع الخليفة.

وهنا نعود للتأكيد، مرّة أخرى، أن المعركة كانت تنتهي عندما يقتل قائد أحد الجيشين المتقابلين، وذلك لمصلحة خصمه، بعد أن يحصل فراغ في قيادة الجيش المنهزم. وقد سبق وأوردنا أمثلة عدّة على هذه الحقيقة التـي تـأكّـدت أيضاً بمقتـل الضـحـاك قائد جيش الخوارج.

٤ – عاد الخيبري لمقاتلة الخليفة مروان فتوغّل مع مجموعة من خيالته في قلب الجيش الأموي الذي انهزم. واعتقد الخيبري أن الهزيمة وقعت على كامل جيش خصمه الـذي كـانت ميـمـنـتـه وميسـرتـه ما تزالان جاهزتان للقتال. لذلك، ولما جلس في خيمة مروان للاستراحة، أطبقت الميمنة والميسرة عليه فقتل مع مرافقيه.

ونعود هنا للتأكيد، مرّة جديدة، عن أن الانتصار في المعركة ينبغي أن تليه مرحلة «استـغـلال الـنصـر» يقـوم خـلالـهـا الجيش المنتصر، وبعد أن يتأكّد من انتهاء المعركة، بملاحقة فلول خصمه والقضاء عليها ومنعها من إعـادة تجميـع قـواهـا لـلـقـيـام بعمليات لاحقة.

٥ – سـاهـم تصـمـيـم الخليفة مروان بن محمد وحسن إدارته للعمليات العسكرية ضد الخوارج في إنهاء تمرّد الخوارج الصفرية والحرورية بـعـد مـقـتـل ثـلاثـة مـن قـادتـهـم بـالـتـتـابـع. فـتـصـمـيـم الـقـائـد يعتبر نصف النجاح.

لقد لاحق جيش الخليفة الخوارج دون هوادة فتمكّن من إيقاع هزائم عديدة بهم أدت إلى انسحاب جموعهم إلى سجستان حيث قتل رئيسهم شيبان سنة ١٣٠هـ.

سابع عشر – خروج أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الخارجي

وفي السـنـة الـثـلاثين بعد المائة الهجرية خرج خارجي من الإباضية اسمه أبو حمزة على الخلافة الأموية في الحجاز حيث جرت معركة بينه وبين أهل المدينة دعيت «وقعة

القديد» انتصر فيها الخوارج وقتل حوالى سبعماية من أهل المدينة.[1] ثمّ دخل أبو حمزة المدينة وخطب في مسجدها خطبة طويلة، مما قاله فيها.[2]

«من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شكّ في كفرهما فهو كافر».

ثمّ سار أبو حمزة إلى الشام حيث اصطدم بجيش أرسله الخليفة، قوامه أربعة آلاف فارس يقودهم عبدالملك بن محمّد بن عطية السعدي. جرت المعركة في وادي القرى حيث قتلت غالبية جند أبي حمزة. ومن لم يقتل منهم عاد إلى المدينة حيث قتله أهلها. وهكذا انتهت ثورة أبي حمزة.

كتب الطبري عن وقعة «قديد» ما يلي:[3]

«قال أبو جعفر: وفي هذه السنة كانت الوقعة التي كانت بقُديد بين أبي حمزة الخارجيّ وأهل المدينة.

ذكر الخبر عن ذلك:

حدّثني العباس بن عيسى العقيليّ، قال: حدّثنا هارون بن موسى الفرويّ، قال حدّثني غير واحد من أصحابنا، أنّ عبدالواحد بن سليمان استعمل عبدالعزيز ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان على الناس، فخرجوا. فلما كان بالحَرّة لقيتهم جُزُر منحورة، فمضوا، فلما كان بالعقيق تعلّق لواؤهم بسَمُرة، فانكسر الرمح، فتشاءم الناس بالخروج. ثمّ ساروا حتى نزلوا قُدَيد، فنزلوها ليلاً - وكانت قرية قديد من ناحية القصر المبنيّ اليوم - وكانت الحياض هنالك، فنزل قوم مغتربون ليسوا بأصحاب حرب، فلم يرعهم إلاّ القوم قد خرجوا عليهم من القصر.

وقد زعم بعض الناس أن خُزاعة دلّت أبا حمزة على عورتهم، وأدخلوهم عليهم فقتلوهم؛ وكانت المقتلة على قريش، هم كانوا أكثر الناس، وبهم كانت الشوكة، وأصيب منهم عدد كثير.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٠ - ٥١.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٢٨.

قال العبّاس: قال هارون: وأخبرني بعض أصحابنا أن رجلاً من قريش نظر إلى رجل من أهل اليمن وهو يقول: الحمد لله الذي أقرّ عيني بمقتل قريش. فقال لابنه: يا بنيّ ابدأ به - وقد كان من أهل المدينة - قال: فدنا منه ابنه فضرب عنقه. ثمّ قال لابنه: أي بنيّ، تقدّم؛ فقاتلا حتى قُتلا. ثمّ ورد فُلاّل الناس المدينة، وبكى الناس قتلاهم؛ فكانت المرأة تقيم على حميمها النّواح؛ فما تبرح النساء حتى تأتيهنّ الأخبار عن رجالهنّ فتخرج النساء امرأة امرأة؛ كلّ امرأة تذهب إلى حميمها فتنصرف حتى ما تبقى عندها امرأة».

وعن معركة وادي القرى كتب ابن الأثير:[1]

«ثمّ إن أبا حمزة ودّع أهل المدينة وقال لهم: يا أهل المدينة إنّا خارجون إلى مروان فإن نظفر نعدل في إخوانكم ونحملكم على سنة نبيّكم وإن يكن ما تتمنون فسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. ثمّ سار نحو الشام، وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبدالملك بن محمّد بن عطية السعدي - سعد هوازن - وأمره أن يجدّ السير وأمره أن يقاتل الخوارج فإن هو ظفر بهم يسير حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبدالله بن يحيى طالب الحق. فسار ابن عطية فلقي أبا حمزة بوادي القرى، فقال أبو حمزة لأصحابه: لا تقاتلوهم حتى تختبروهم. فصاحوا بهم ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فقال ابن عطية: نضعه في جوف الجواليق. فقال: فما تقولون في مال اليتيم؟ قال ابن عطية: نأكل ماله ونفجر بأمه، في أشياء سألوه عنها. فلمّا سمعوا كلامه قاتلوه حتى أمسوا وصاحوا: ويحك يا ابن عطية إنّ الله قد جعل الليل سكناً فأسكن فأبى وقاتلهم حتى قتلهم. وانهزم أصحاب أبي حمزة من لم يقتل وأتوا المدينة فلقيهم أهل المدينة فقتلوهم. وسار

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥١.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٦ - ١٥٧.

ابن عطية إلى المدينة فأقام شهراً. وفيمن قتل مع أبي حمزة عبدالعزيز القاري المدني - المعروف بيشكست النحوي - وكان من أهل المدينة - يكتب مذهب الخوارج. فلمّا دخل أبو حمزة المدينة انضمّ إليه، فلمّا قتل الخوارج قتل معهم».

ثامن عشر
خروج ملبد الخارجي ومقتله

وفي السنة السابعة والثلاثين بعد المائة، وفي ظلّ الحكم العباسي، خرج ملبد بن حرملة الشيباني الخارجي على السلطة وسيطر في ناحية الجزيرة، وهو في ألف فارس.

سيّر الخليفة إليه جيوشاً عديدة فهزمها جميعها، وهي:[1]

أ - جيش بقيادة يزيد بن حاتم المهلبي فهزمه ملبد بعد قتال شديد.

ب - جيش بقيادة مهلهل بن صفوان في ألفين من نخبة الجند، هزمه ملبد واستباح عسكره.

ج - جيش بقيادة أحد قادة خراسان واسمه «نزار»، فقتله ملبد وهزم أصحابه.

د - جيش بقيادة زياد بن مشكان في جمع كثير، هزمهم ملبد.

هـ - جيش بقيادة صالح بن صبيح فيه جند كثير وغالبيتهم من الفرسان، فهزمهم ملبد.

و - جيش بقيادة حميد بن قحطبة والي الجزيرة. هزمه ملبد أيضاً.

أما نهاية ثورة ملبد ومقتله فقد كانت عندما وجّه الخليفة المنصور جيشاً من ثمانية آلاف مقاتل بقيادة خازم بن خزيمة في الموصل، حيث دارت معركة طويلة وقتال شديد لخصهما ابن الأثير الذي كتب:[2]

«وجّه المنصور خازم بن خزيمة في ثمانية آلاف من «المروروذية» فسار خازم حتى نزل الموصل وبعث إلى ملبد بعض أصحابه. وعبر ملبد دجلة من بلد وسار نحو خازم وسار إليه خازم وعلى مقدّمته وطلائعه فضلة بن نعيم ابن خازم بن عبدالله النهشكي، وعلى ميمنته زهير بن محمد العامري، وعلى

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١١٦ - ١١٧.

ميسرته أبو حماد الأبرص، وخازم في القلب. فلم يزل يساير ملبداً وأصحابه إلى الليل وتواقعوا ليلتهم. فلما كان الغد سار ملبد نحو كورة حزه وخازم وأصحابه يسايرونهم حتى غشيهم الليل. وأصبحوا من الغد فسار ملبد كأنه يريد الهرب فخرج خازم في أثره وتركوا خندقهم، وكان خازم قد خندق على أصحابه بالحسك. فلما خرجوا منه حمل عليهم ملبد وأصحابه، فلمّا رأى ذلك خازم ألقى الحسك بين يديه ويدي أصحابه، فحملوا على ميمنة خازم فطووها. ثمّ حملوا على الميسرة فطووها، ثمّ انتهوا إلى القلب، وفيه خازم. فنادى خازم في أصحابه الأرض الأرض فنزلوا، ونزل ملبد وأصحابه وعقروا عامة دوابهم ثمّ اضطربوا بالسيوف حتى تقطعت. وأمر خازم فضلة بن نعيم أن إذا سطع الغبار ولم يصبر بعضنا بعضاً فارجع إلى خيلك وخيل أصحابك فاركبوها ثمّ ارموهم بنشاب ففعل ذلك. وتراجع أصحاب خازم من الميمنة والميسرة ثمّ رشقوا ملبداً وأصحابه بالنشاب فقتل ملبد في ثمانمائة رجل ممن ترجّل، وقتل منهم قبل أن يترجّلوا زهاء ثلاثمائة. وهرب الباقون وتبعهم فضلة فقتل منهم مائة وخمسين رجلاً».

تاسع عشر
مقتل عبدالسلام الخارجي

في السنة الثانية والستين بعد المائة الهجرية خرج الخارجي عبدالسلام بن هاشم اليشكري بقنسرين بعد أن انتقل إليها من الجزيرة، وكثر أتباعه واشتدّت شوكته.

أرسل المهدي جيوشاً عدّة إليه هزمها عبدالسلام ومنها:(١)

- جيش بقيادة عيسى بن موسى هزمه عبدالسلام وقتله.

أخيراً أرسل المهدي جيشاً كبيراً بقيادة شبيب بن واج المروروذي في ألفي فارس، فخرج شبيب في أثر عبدالسلام، فهرب منه حتى قنسرين حيث جرت معركة بينهما قتل فيها عبدالسلام وانتهت ثورته.(٢)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٦٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٤٢.

عشرون
تحرّكات أخرى للخوارج

سجّلت بعد ذلك تحرّكات منعزلة للخوارج في أنحاء شتى من الدولة الإسلامية، لكنها لم تكن من الأهمية بمكان. لذلك لم تتمكّن أي منها من تغيير المعادلات في العالم الإسلامي رغم أنها هزّت أحياناً دعائمه.

ومن هذه التحرّكات:

أ - تحرّك الخوارج في الموصل:

في السنة الثامنة والستين بعد المائة خرج بأرض الموصل خارجي اسمه ياسين من بني تميم، وانتصر على جيش عباسي وتمكّن من السيطرة على أكثر ديار ربيعة والجزيرة، وكان يميل إلى أفكار صالح بن مسرح الخارجي.

وجّه إليه المهدي جيشاً بقيادة أبي هريرة محمّد بن فروخ وهرثمة بن أعين فهُزم وقتل.(١)

ب - خروج الصحصح الخارجي:

في السنة الحادية والسبعين بعد المائة، ومع بداية خلافة هارون الرشيد، خرج الفضل بن سعيد الحروريّ من الخوارج على السلطة بأرض الجزيرة التي كان عليها أبو هريرة.

وجّه أبو هريرة جيشاً إلى الفضل، ولقبه الصحصح، فهزمه، فانتقل إلى الموصل حيث قتل عامله بعد انتصاره على جنده، ثمّ عاد إلى الجزيرة فسيطر على ديار ربيعة.

أخيراً، سيّر الرشيد إليه جيشاً كبيراً، التقى معه في «دورين» فقتله. وعزّه الرشيد أبا هريرة عن الجزيرة.(٢)

ج - خروج الوليد بن طريف الخارجي:

وفي السنة الثامنة والسبعين بعد المائة خرج الوليد بن طريف التغلبي بالجزيرة أيضاً حيث سيطر قبل أن ينتقل إلى أرمينيا ومنها إلى أذربيجان فحلوان وأرض السواد. ثم عبر

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٥٧.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٨١.

إلى غرب دجلة وقصد مدينة بلد التي افتدى أهلها أنفسهم بمائة ألف.[١]

وعاث الوليد في أرض الجزيرة، فسيّر إليه الرشيد جيشاً بقيادة يزيد بن فريد الشيباني.[٢]

نقل ابن الأثير خبر القتال الذي قتل فيه الوليد وانهزم جيشه، فكتب:[٣]

«فجعل يزيد يخاتله ويماكره. وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فقالوا للرشيد: إنما يتجافى يزيد عن الوليد للرحم، لأنهما كلاهما من وائل، وهوّنوا أمر الوليد. فكتب إليه الرشيد كتاب مغضب وقال له: لو وجّهت أحد الخدم لقام بأكثر ممّا تقوم به، ولكنّك مداهن متعصّب. وأُقسم بالله إن أخّرت مناجزته لأوجهنّ إليك مَن يحمل رأسك. فلقي الوليد عشية خميس في شهر رمضان سنة تسع وسبعين فيقال: جهد عطشاً حتى رمى بخاتمه في فيه، وجعل يلوكه ويقول: اللهمّ إنها شدّةٌ شديدة فاسترها. وقال لأصحابه: فداكم أبي وأمي إنما هي الخوارج ولهم حملة فاثبتوا، فإذا انقضت حملتهم، فاحملوا عليهم فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا. فكان كما قال، حملوا عليهم حملةً، فثبت يزيد ومن معه من عشيرته، ثمّ حمل عليهم فانكشفوا».

د - ثورة مساور الخارجي:

وفي السنة الرابعة والخمسين بعد المائتين للهجرة استولى خارجي يدعى «مساور بن عبدالحميد» على أكثر أعمال الموصل وقوي أمره. فتصدّى له واليها واسمه «الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب في جيش كبير عبر فيه نهر الراب. ونزل في وادي عميق يقال «وادي الريات» حيث جرى قتال عنيف هزم في نهايته جيش الموصل وكثر فيه القتلى. وعظم أمر مساور وخافه الناس.[٤]

وفي السنة السابعة والخمسين بعد المائتين اختلف مساور مع أحد قادته ويدعى

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٠٢.

(٢) ابن شقيق معن بن زائدة.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٩٥.

«عبيدة» من بني زهير العمروسي، والذي جمع جمعاً كبيراً وساور إلى مساور فالتقى الجانبان بالقرب من الموصل واقتتلوا أشدّ قتال، فقتل عبيدة وانهزم جيشه وقتل غالبية جنده.

استولى مساور على العراق ومنع الأموال عن الخليفة فضاقت على الجند أرزاقهم. فلمّا ولّي المعتمد الخلافة سيّر إلى قتال مساور جيشاً كبيراً حسن العدّة بقيادة مفلح.

التقى مفلح بجيش مساور وعدده أربعة آلاف فارس فاقتتلوا في جبل «زيني» في الموصل حيث جرت وقائع عدّة. ولمّا يئس مساور من النصر بعد ضعف أصحابه، اختفى من ساحة المعركة، فسار مفلح إلى ديار ربيعة ثمّ إلى سنجار ونصيبين والخابور فنظر في أمرها. ثمّ سار إلى الموصل حيث أحسن السيرة في أهلها قبل أن يرجع في شهر رجب من العام الثامن والخمسين بعد المائتين لقتال مساور الذي ظهر مجدداً في الحديثة.

أمام تهديد مفلح فارق مساور الحديثة فتبعه مفلح في الجبال والشعاب والمضائف من دون أن يتمكّن من القضاء عليه نظراً لوعورة المنطقة.

عاد مساور إلى سامراء واستولى عليها وجبى خراجها وقويت شوكته واشتدّ أمره.[١] وبقي الوضع كذلك إلى أن توفي مساور.

هـ - القتال بين الخوارج بعد مقتل مساور:

وفي السنة الثالثة والستين بعد المائتين مات مساور فبايع أصحابه أيوباً بن حيّان الوارقي البجلي بعد أن عرضوا الخلافة على محمّد بن خرزاد ورفضها.

لكنّ محمّداً عاد وقبل، وسار إليهم فجرى قتال بينهم قتل خلاله أيوب، فبايع الخوارج محمّداً بن عبدالله بن يحيى الوارقي المعروف بالغلام. فقتل أيضاً، فبايعوا هاروناً بن عبدالله البجلي فكثر أتباعه واستولى على أعمال الموصل وجبى خراجها.[١]

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

وفي السنة السابعة والستين بعد المائتين جرى قتال بين محمد بن خرزاد وهارون الخارجيين، أورده ابن الأثير الذي كتب:[١]

«في هذه السنة كان بين هارون الخارجي وبين محمّد بن خرزاد، وهو من الخوارج أيضاً، وقعة ببعدرا من أعمال الموصل. وسبب ذلك، إنّا قد ذكرنا سنة ثلاث وستين ومائتين، الحرب الحادثة بين هارون ومحمّد بعد موت مساور. فلما كان الآن جمع محمّد ابن خرزاد أصحابه وسار إلى هارون محارباً له. فنزل واسط، - وهي محلّة بالقرب من الموصل - وكان يركب البقر لئلا يفر من القتال، ويلبس الصوف الغليظ، ويرقّع ثيابه. وكان كثير العبادة والنسك، ويجلس على الأرض ليس بينها وبينه حائل. فلمّا نزل واسط خرج إليه وجوه أهل الموصل، وكان هارون بمعلثايا يجمع لحرب محمّد. فلمّا سمع بنزول محمّد عند الموصل سار إليه ورحل ابن خرزاد نحوه فالتقوا بالقرب من قرية شمراخ، واقتتلوا قتالاً شديداً، كان فيه مبارزة وحملات كثيرة. فانهزم هارون، وقتل من أصحابه نحو مائتي رجل منهم جماعة من الفرسان المشهورين. ومضى هارون منهزماً، فعبر دجلة إلى العرب قاصداً بني تغلب فنصروه، واجتمعوا إليه. ورجع ابن خرزاد من حيث أقبل هارون إلى الحديثه، فاجتمع عليه خلق كثير. وكاتب أصحاب ابن خرزاد واستمالهم فأتاه منهم الكثير ولم يبق مع ابن خرزاد إلاّ عشيرته من الشمردلية، وهم من أهل شهرزور. وإنما فارقه أصحابه لأنه كان خشن العيش، وهو ببلد شهرزور، وهو بلد كثير الأعداء من الأكراد وغيرهم.

وكان هارون ببلد الموصل قد صلّح حاله وحال أصحابه. فلما رأى أصحاب ابن خرزاد ذلك مالوا إليه وقصدوه. وواقع ابن خرّزاد بنواحي شهرزور الأكراد الجلالية وغيرهم، فقتل وتفرّد هارون بالرياسة على الخوارج وقوي وكثر أتباعه وغلبوا على القرى والرساتيق. وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة،

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

وبقوا نوابهم في الرساتيق يأخذون الاعشار من الغلات».

و - قتال بين الخوارج وأهل الموصل والاعراب:

وفي السنة التاسعة والسبعين بعد المائتين للهجرة اجتمعت الخوارج بقيادة هارون ومعهم أهل الموصل وحمدان بن حمدون التغلبي على قتال بني شيبان.

نقل ابن الأثير تفاصيل هذا القتال، فكتب:[1]

«وسبب ذلك أن جمعاً كثيراً من بني شيبان عبروا الزاب، وقصدوا نينوى من أعمال الموصل للإغارة عليها، وعلى البلد. فاجتمع هارون الشاري، وحمدان بن حمدون، وكثير من المتطوّعة المواصلة، وأعيان أهلها على قتالهم ودفعهم. وكان بنو شيبان نزلوا على باعَشِيقا[2] ومعهم هارون بن سليمان، مولى أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيباني، صاحب ديار بكر. وكان قد أنفذه محمّد بن إسحاق بن كنداج والياً على الموصل، فلم يمكّنه أهلها من المقام عندهم، وطردوه، فقصد بني شيبان معاوناً على الخوارج وأهل الموصل. فالتقوا، وتصافوا، واقتتلوا، فانهزمت بنو شيبان وتبعهم حمدان، والخوارج، وملكوا بيوتهم واشتغلوا بالنهب».

وهكذا نرى ان الخوارج عمدوا إلى قتال الأهالي وإخضاعهم، علاوة على القتال الداخلي في ما بينهم.

ز - خروج الخارجي محمّد بن عبادة على هارون الخارجي:

وفي السنة الثمانين بعد المائتين خرج محمّد بن عبادة الخارجي[3] على طاعة هارون، وجمع مجموعة من الخوارج بقيادته وقوي أمره وأخذ عشر الفلات وقبض الزكاة من أهل قبراثا من البقعاء في الموصل. وبنى محمّد حصناً له ولأنصاره.

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٦٩.

(٢) باعشيقا: من قرى الموصل. وهي مدينة عامرة من نواحي نينوي، في شرقي دجلة.

(٣) من بني زهير.

جمع هارون أنصاره فبلغوا ألفاً ومائتي فارس ومائة راجل، وسار بهم إلى الحصن ومعه معدّات الحصار من السلالم فافتتحه ولم يكن محمّد داخله.

وسار هارون لملاقاة محمّد الذي كان يقود جيشاً من أربعة آلاف رجل، فانهزم محمّد وقتل ألف وأربعمائة من جنده، وجمع هارون مالهم فقسّمه بين أصحابه.

ح - انهزام هارون الخارجي ومقتله:(١)

أخيراً، وفي السنة الاثنتين والثمانين بعد المائتين للهجرة هُزم هارون الخارجي أمام جند المعتضد بالله. وسبب القتال ان عامل المعتضد على الموصل نصر القشوري قتل أحد جنود هارون فثار عليه هذا الأخير، فكتب إليه نصر كتاباً يهدّدة فيه، فردّ عليه هارون بالمثل.

عرض نصر كتاب هارون على الخليفة فولّى الحسن بن علي كورة الموصل وأمره بمحاربة الخوارج، وأمر كلّ مقدّمي الولايات والأعمال بطاعته، فجمعهم الحسن وسار إلى أعمال الموصل وخندق على نفسه. ثمّ سار إلى الخوارج وعبر الزاب إليهم فاقتتل الجانبان قتالاً شديداً حمل خلاله الخوارج على الجيش العباسي سبع عشرة حملة فانكشفت ميمنة الحسن وقتل من أصحابه كثيرون. لكنه ثبت هو وأصحابه الآخرون فانهزم الخوارج وقتل منهم عدد كبير وفارقوا موضع المعركة ودخلوا أذربيجان.

وراسل أصحاب هارون المعتضد، بعد أن لمسوا ثبات دولته، وطلبوا الأمان فأمّنهم، فأتاه كثيرون منهم.

وبقي هارون يجول في البلاد إلى أن قتل في السنة الثالثة والستين بعد المائتين.

إحدى وعشرون
تقييم حروب الخوارج

ممّا لا شكّ فيه أن ظاهرة الخوارج فريدة من نوعها في العالم الإسلامي، وقد توقّف عندها المفكّرون والمؤرّخون فحلّلوا أسبابها وملابسات قيامها. ونحن آثرنا جمع المعلومات عن ثورات وتحرّكات الخوارج في

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

هذا القسم من الكتاب، رغم أن بعضها تجاوز زمن الحكم الأموي، وذلك رغبة منا في توحيد الدراسة عنهم في مكان واحد.

والواقع أن تحرّكات الخوارج كانت موجهة أساساً ضدّ الحكم الأموي، وذلك بسبب رفضهم مبدأ التحكيم ورفض انتقال الخلافة إلى معاوية، ومنه إلى الأمويين. وقد وصف الخوارج الحكم الأموي بالجائر.

ويرى بعض الباحثين العرب والأجانب أن نشأة الخوارج كانت لأسباب سياسية، وأنهم شكّلوا في بدء أمرهم حزباً سياسياً قادته من زعماء السبئية وبعض العاملين معهم. أما الطابع الديني الذي غلّفوا به دعوتهم، فلم يكن إلاّ ستاراً لإخفاء نوايا أولئك القادة.[١]

إنما، وفي الوقت ذاته، لا يمكن تجاهل كثيرين من القرّاء الذين انضمّوا إلى حزب الخوارج، وكان انضمامهم إليه بدافع ديني لا سياسي دنيوي. لكن ما يدعو إلى العجب أن ما من صحابي واحد انضمّ إلى الخوارج.

وقد ظلّ الطابع السياسي والعسكري يغلب على تحرّكات الخوارج الحربية، إلى أن خرج من بينهم علماء وفقهاء مزجوا نظرياتهم السياسية بالمعتقدات الدينية في مرحلة متأخّرة من العصر الأموي. ويبدو أنهم بدأوا الاعتماد على الدين بعد أن فشلوا في تحقيق أهدافهم السياسية بقوّة السلاح.

وقد تفرّق الخوارج إلى نحو عشرين فرقة أبرزها:

- الأزارقة نسبة إلى نافع بن الأزرق.
- النجدية نسبة إلى نجدة بن عامر الحنفي.
- البيهسية نسبة إلى أبي بيهس من بني سعد بن ضبيعة.
- الصفرية نسبة إلى عبدالله بن صفّار، وقيل إلى زياد بن الأصفر.
- الإباضية، نسبة إلى عبدالله بن أباض.
- الحرورية.

لكن هذا التفرّق لم يمسّ عقائد الخوارج الأساسية، كما أنه لم يستدعِ التبرّؤ من فرق الخوارج الأخرى. فإن كلّ جماعة منهم تكتلت حول صاحب رأي من رؤسائهم، ثمّ

(١) أحمد أمين، فجر الإسلام، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٥٩.

غالت في تبعيته حتى أصبحت ترى قوله الحق دون غيره. وبذلك ازداد الخوارج عزلة، فبعد انغلاقهم على أنفسهم ومعاداتهم لغيرهم من الفرق الإسلامية، جاء انغلاقهم على عقائدهم وأفكارهم الخاصة ليزيد هذه العزلة.

ويبقى السؤال الكبير الذي شغل الباحث عن الخوارج:

- هل كانوا فعلاً أتقياء متطهّرين أم كانوا من المارقة؟

إن ما وصلنا من أخبارهم لا يكفي لتكوين فكرة واضحة عن هذا الموضوع، علاوة على أنه جاء على لسان خصومهم الذين أثبتوا الروايات عنهم بعد عشرات السنين من روايتها، في وقت كانت تتعاقب على الحكم أنظمة معادية لهم.

إلاّ انه يمكننا القول إن الخوارج كانوا بالفعل جماعة ثورية نادت بالمثل العليا الدينية التي سيطرت على مشاعرهم من دون أن تتبلور في عقيدة واضحة المعالم يتخذونها نبراساً لتحرّكاتهم. وهذا ما جعلهم أكثر تطرّفاً وانفعالاً، أي أقرب إلى منطق الثوّار منهم إلى منطق العمل الهادىء والفكر المنظّم.

كما يمكننا القول إن تحرّكات الخوارج وثوراتهم لم تعطِ النتيجة المتوخّاة منها، أي لم تتوصّل إلى تغيير الحكم الأموي لأسباب أبرزها:

- كانت هذه الثورات تقاد بضعفٍ في الفكر الديني وانعدام صحّة الرؤيا.
- رغم ادعائهم أنهم طلاّب إصلاح، فإنهم كانوا لا يتورّعون عن سفك الدماء بكثرة وسلب الناس وارتكاب الفظائع.
- كانت لديهم خطط مبهمة ومناهج غامضة.
- لقد سيّرهم تعصّب أعمى ومجنون ضدّ الحكم الأموي خاصة.
- لم تتوحّد جهودهم أبداً في سبيل القيام بثورة عامة ضد الحكم الأموي وإزاحته، إنما حكمت تاريخهم خلافات متأصّلة بين فرقهم التي بلغ تعدادها العشرين فرقة.
- لم يلتحق بمسيراتهم أي صحابي أو زعيم ديني بارز.

إنما، ورغم كلّ ذلك، شكّل الخوارج تياراً ثورياً مهماً طبع مرحلة الفتنة الكبرى في الإسلام والعهد الأموي بطابع عسكري داخلي لافت.

ملحق رقم ٦

لائحة الصوائف والشواتي إلى أرض الروم
منذ قيام الإسلام وخلال الخلافة الأموية

السنة (هجرية)	قائد الحملة	الإنجازات العسكرية
١٦	- عمرو بن مالك (من عند مناف)	- فتح قرقيسيا
٢٠	- أبو بحرية عبدالله بن قيس	- غزا أرض الروم وهو أول من دخلها كما قيل.
٢٢	- معاوية بن أبي سفيان	-خل بلاد الروم في عشرة آلاف فارس من المسلمين.
٢٣	- معاوية بن أبي سفيان	- غزا الصائفة حتى بلغ عمورية.
٢٥	- يزيد بن الحر العبسي	- غزا الصائفة.
	- معاوية بن أبي سفيان	- غزا بلاد الروم فبلغ عمّورية، فوجد الحصون بين انطاكية وطرطوس خالية فجعل فيها جنداً من أهل الشام والجزيرة. ثمّ عاد وهدمها.
٣٢	- معاوية بن أبي سفيان	- غزا بلاد الروم فبلغ مضيق القسطنطينية.
٣٣	- معاوية بن أبي سفيان	- فتح قبرص وصالح أهلها.
	- معاوية بن أبي سفيان	- غزا حصن المرأة من أرض الروم بناحية ملطية.
٣٤	- معاوية بن أبي سفيان	- في هذه السنة كانت وقعة ذات الصواري التي انتصر فيها الأسطول العربي على أسطول الروم. (وقيل انها حصلت السنة ٣١هـ).

السنة (هجرية)	قائد الحملة	الإنجازات العسكرية
٣٥	-	- سار قسطنطين بن هرقل في ألف مركب يريد أرض المسلمين فسلّط الله عليه ريحاً عاصفة أغرقت مراكبه فالتجأ إلى صقلية حيث قتل.
٤٢	-	- غزا المسلمون اللان في ارمينيا.
		- غزوا أيضاً الروم فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم.
٤٣	- بسر بن ارطأة	- غزا الروم فبلغ القسطنطينية واشتى بأرضهم.
٤٤	- عبدالرحمن بن خالد بن الوليد	- غزا بلاد الروم وأشتى فيها.
	- بسر بن ارطأة	- غزا أرض الروم بحراً.
٤٦	- مالك بن عبدالله	- أشتى في أرض الروم.
٤٨	- عبدالرحمن القيني	- اشتى في انطاكية.
	- عبدالله بن قيس الفزاري	- غزا الصائفة براً.
	- مالك بن هبيرة السكوني	- غزا الصائفة بحراً.
٤٩	- سفيان بن عوف ويزيد بن معاوية	- سير معاوية جيشاً كثيفاً عليه ابنه يزيد لغزو القسطنطينية التي حاصرها من دون ان يتمكّن من فتحها.
	- مالك بن هبيرة	- اشتى في أرض الروم.
	- فضالة بن عبيد	- غزا الصائفة وفتح حزّة (في الطبري: جربة، وهي الاصح).
	- عبدالله بن كرز البجلي	- غزا الصائفة إلى أرض الروم.
	- يزيد بن شجرة الرهاوي	- غزا أرض الروم في البحر.
٥٠	- بسر بن ارطأة وسفيان بن عوف الاسدي	- غزوة الصائفة براً إلى أرض الروم.
	- فضالة بن عبيد الانصاري	- غزا أرض الروم بحراً.

السنة (هجرية)	قائد الحملة	الإنجازات العسكرية
٥١	- بسر بن أرطأة	- غزا الصائفة إلى أرض الروم.
	- فضالة بن عبيد	- اشتى بأرض الروم.
٥٢	- محمّد بن عبدالله الثقفي	- غزا الصائفة إلى أرض الروم.
	- سفيان بن عوف الأسذي	- غزا الشاتية إلى أرض الروم.
٥٤	- معن بن يزيد السلمي	- قاد الصائفة إلى أرض الروم.
	- محمد بن مالك	- قاد الشاتية إلى أرض الروم.
	- جنادة بن أمية	- فتح جزيرة ارواد وبقي المسلمون فيها أعواماً عدّة.
٥٥	- سفيان بن عوف الازدي	- أشتى في أرض الروم.
٥٦	- عياض بن الحارث	- غزا أرض الروم براً.
	- يزيد بن شجرة	- غزاها بحراً.
	- جنادة بن أمية	- أشتى في أرض الروم.
٥٧	- عبدالله بن قيس	- أشتى في أرض الروم.
٥٨	- مالك بن عبدالله الخثعمي	- غزا أرض الروم براً.
	- عمرو بن يزيد	- غزاها بحراً.
٥٩	عمر بن مرة الجهني	- أشتى في بلاد الروم براً.
	- جنادة بن أبي أمية	- غزا أرض الروم بحراً.
٧٠	-	- اجتمعت الروم واستجاشوا على من بالشام، فصالح عبدالملك ملك الروم على ان يؤدي إليه كلّ جمعة ألف دينار.
	-	- هزم المسلمون خلال صائفة عام ٧٠هـ.
٧١	-	- افتتح عبدالملك قيسارية.

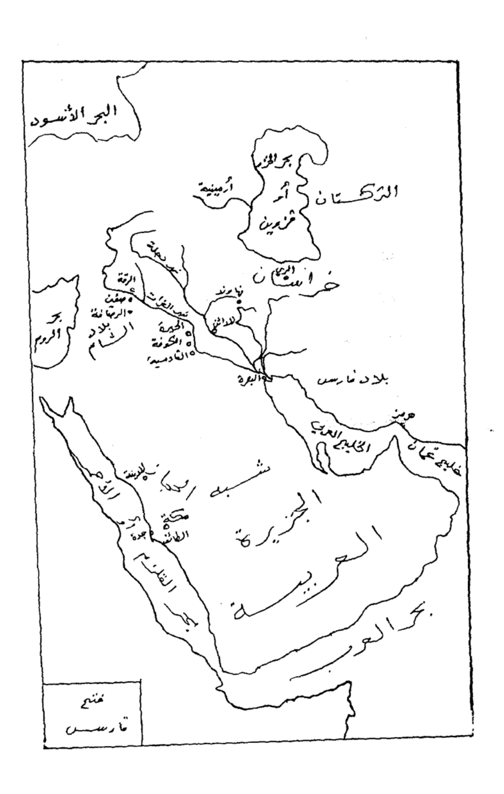
السنة (هجرية)	قائد الحملة	الإنجازات العسكرية
٧٣	- محمّد بن مروان	- هزم الروم في الصائفة.
	- عثمان بن الوليد	- كان عثمان بن الوليد في أربعة الاف في ناحية ارمينيا فهزم الروم (كانوا في ٦٠ ألفاً) واكثر القتل فيهم. ملاحظة: أخذ هذه الأرقام بتحفّظ.
٧٤	- محمّد بن مروان	- بلغ اندولية.
٧٥	- محمّد بن مروان	- غزا من ناحية مرعش.
٧٧	- الوليد بن عبدالملك	- غزا بلاد الروم.
٨٢	- محمّد بن مروان	- غزا ارمينيا فهزمها ثمّ صالح أهلها.
٨٤	- عبدالله بن عبدالملك	- فتح المصيصة وبنى حصنها ووضع فيه ٣٠٠ مقاتل وبنى مسجدها.
	- محمّد بن مروان	- غزا ارمينيا.

السنة (هجرية)	قائد الحملة	الإنجازات العسكرية
٨٦	- مسلمة بن عبدالملك	- غزا بلاد الروم.
٨٧	- مسلمة بن عبدالملك	- قتل عدداً كبيراً من الروم بسوسنة وفتح حصوناً عدّة.
٨٨	- مسلمة بن عبدالملك والعباس بن الوليد	- فتحا طوانة.
٨٩	- مسلمة بن عبدالملك	- فتح حصن عمورية وهرقلة وقمونية.
	- العباس بن الوليد	- فتح مدينة اذرولية (في الطبري والحموي: درولّية).
٩٠	- مسلمة بن عبدالملك	- فتح حصوناً خمسة بسوريا.
	- العباس بن الوليد	- بلغ ارزن.
٩١	- عبدالعزيز بن الوليد	- غزا بلاد الروم.

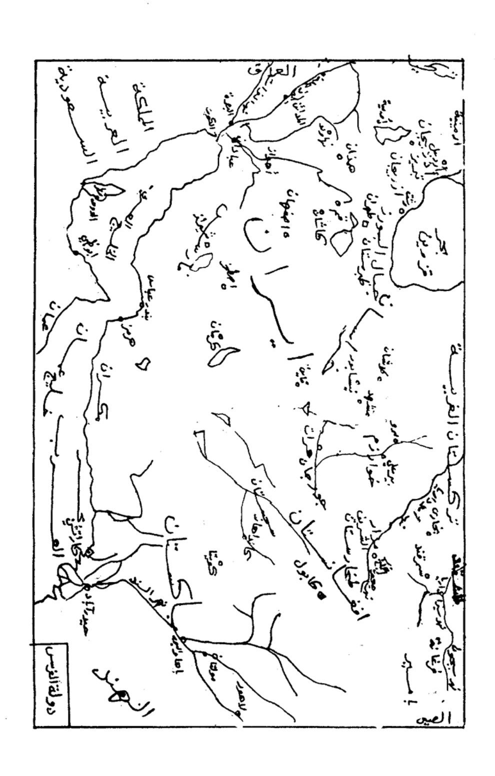
السنة (هجرية)	قائد الحملة	الإنجازات العسكرية
٩٢	- موسى بن نصير	- أرسل حملة إلى جزيرة سردينيا فغنم غنائم عديدة بعد ان دخلها.
٩٢	- مسلمة بن عبدالملك	- فتح حصوناً ثلاثة وجلا أهل سوسنة إلى بلاد الروم.
٩٣	- مسلمة بن عبدالملك	- فتح ماسيسة وحصن الحديد وغزالة.
	- العباس بن الوليد	- فتح طرطوس والمزربانين.
		- وسبسطية (قرب سميساط في أعلى الفرت).
٩٤	- العباس بن الوليد	- فتح انطاكية.
٩٦	- العباس بن الوليد	- فتح هرقلة.
٩٧	- عمر بن هيبرة	- غزا بأرض الروم بحراً.
	-	جهز سليمان بن عبدالملك الجيوش لإرسالها إلى القسطنطينية.
٩٨	- سليمان بن عبدالملك	- حاصر القسطنطينية.
٩٨	- داود بن سليمان	- فتح حصن المرأة.
٩٩	- مسلمة بن عبدالملك	- وجه عمر بن عبدالعزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالعودة بمن معه من المسلمين.
١٠٠	- عمر بن قيس الكندي - الوليد بن هشام المعيطي	- غزوة إلى بلاد الروم.
١٠٢	- عمر بن هيبرة	- غزا ارمينيا فهزم جندها وقتل ٧٠٠ أسير.
١٠٣	- العباس بن الوليد	- فتح مدينة يقال لها دسلة (في الطبري: رسلة).
١٠٥	- سعيد بن عبدالملك	- بعث سرية في ألف رجل فأصيبوا جميعاً.
١٠٦	- سعيد بن عبدالملك	- غزا الصائفة.
١٠٨	- مسلمة بن عبدالملك	-فتح قيسارية.
	- ابراهيم بن هشام	- فتح أحد حصون الروم.

السنة (هجرية)	قائد الحملة	الإنجازات العسكرية
١٠٩	- معاوية بن هاشم	- فتح حصن طيبة.
	- عبدالله بن عقبة الفهري	- غزا في البحر.
	- بشر بن صفوان عامل افريقيا	- غزا صقلية فغنم شيئاً كثيراً.
١١٠	- معاوية بن هشام	- فتح صملة.
١١١	- عبدالله بن أبي مريم	- غزا في البحر.
	- سعيد بن هشام	- أتى قيسارية.
١١٢	- معاوية بن هشام	- افتتح خرشنة.
١١٤	- سليمان بن هشام	- بلغ قيسارية.
١١٦	- ابن الحبحاب	- سير جيشاً إلى صقلية فلقيته مراكب للروم فاقتتلوا قتالاً شديداً.
١١٩	- الوليد بن القعقاع	-غزا أرض الروم.
١٢٠	- سليمان بن هشام	- افتتح سندرة.
١٢١	- مروان بن محمد	- غزا أرمينيا ففتح قلعة بيت السرير ودخل أرض أرز وبطران فصالحه ملكها - وسار إلى أرض تومان فصالحه أهلها، وإلى أرض حمزين فاخربها وحصر حصنا فصالحه أهله.
١٢٢	- مسلمة بن هشام	- افتتح مطامير.
١٢٣	- نصر بن سيار	- غزا الشاتية.
١٢٤	- سليمان بن هشام	- غزا الطائفة فلقي أليون ملك الروم فانتصر عليه وغنم وعاد سالماً.

فتح فارس

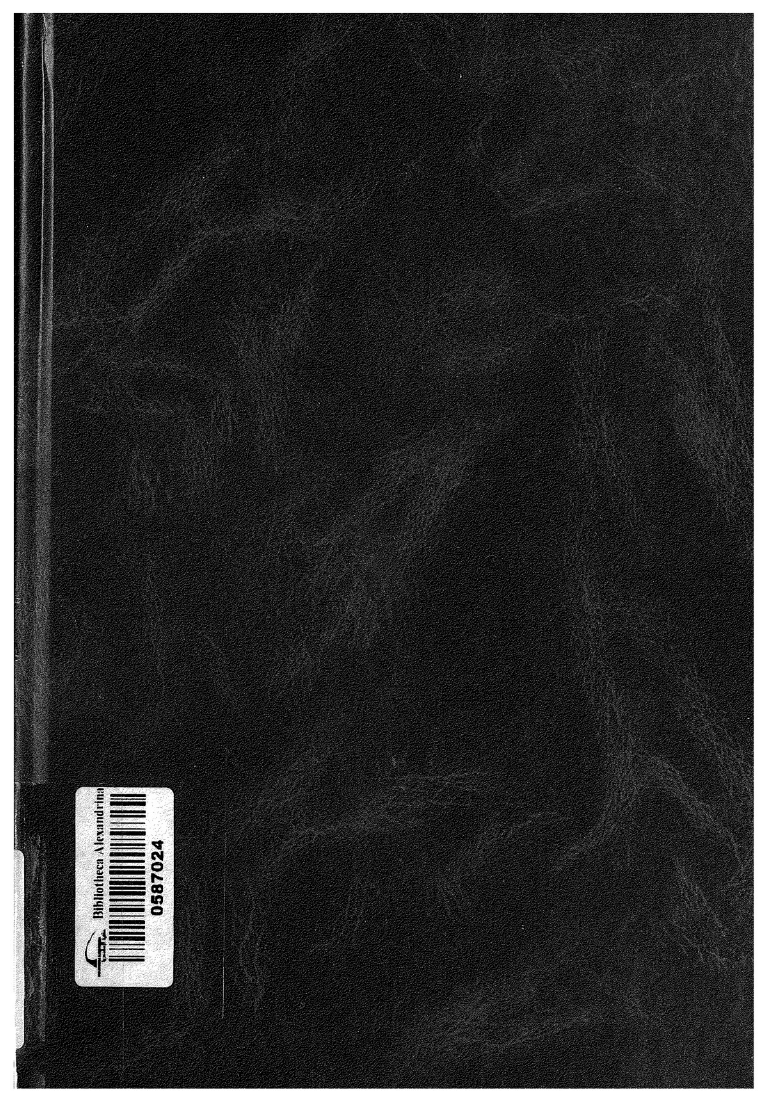


دولة فارس



فهرس الجزء (٨)

الخرائط:


Bibliotheca Alexandrina
0587024